

الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي



ماليز روثقن



اكاديميا

من مواضيع الأطلس:

العصور القديمة المتأخرة ما قبل الإسلام

• رسالة النبي محمد ﷺ وغزواته •

السنة، والشيعه، والخوارج • الخلافة

العباسية • انتشار الإسلام • الشرع

الإسلامي واللغة العربية • الدولة

الفاطمية • طرق التجارة • الممالك

الصليبية • الطُرق الصوفية • الأيوبيون

والمماليك • الغزو المغولي • المغرب

وإسبانيا • الدول الجهادية • السلطنة

العثمانية • إيران • آسيا الوسطى •

التوسع الروسي • انتشار الإسلام في

جنوب شرقي آسيا • السيطرة الاستعمارية

• البلقان • تنامي الحج • مدن متمدنة •

تأثير النفط • الموارد المائية • تجارة

السلاح • العراق • أفغانستان • إسرائيل -

فلسطين • المسلمون في أوروبا الغربية •

المسلمون في أميركا الشمالية • الفنون

الإسلامية • توارث المسلمين في العالم •

السينما الإسلامية • المواقع الأثرية

الإسلامية

الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي

الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي



تأليف
ماليز روثفن

بمشاركة
عظيم نانجي

نقله إلى العربية واعتنى بخرائطه
سامي كعكي

أكاديميا

الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي

© أكاديميا إنترناشيونال، 2007

ISBN: 9953-3-377-9

جميع الحقوق محفوظة

Historical Atlas of The Islamic World

© Oxford University Press 2004

was originally published in English in 2004.

This translation is published by arrangement with Oxford University Press.

تشر الترجمة العربية بترخيص من دار النشر الانكليزية أكسفورد

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اقتزال مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، بأي طريقة، سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة ومقدماتاً.

أكاديميا إنترناشيونال Academia International

شارع فردان، نهاية بنك بيبولس، Verdun St., Byblos Bank Bldg.

ص.ب. P.O.Box 113-6669

بيروت، لبنان Beirut 1103 2140 Lebanon

هاتف 800811 - 862905 - 800832 (961 1) Tel.

فاكس 805478 (961 1) Fax

بريد إلكتروني academ@dm.net.lb

www.academiainternational.com

أكاديميا هي العلامة التجارية لأكاديميا إنترناشيونال

ACADEMIA is the Trade Mark of Academia International

المكتويات

| | | | |
|-----|--|-----|--|
| 108 | الأمبراطوريات البريطانية والفرنسية والهولندية والروسية | 6 | مقدمة |
| 110 | الحركات الإصلاحية في القرن التاسع عشر | 14 | العقائد والعبادات الأساسية في الإسلام |
| 112 | تحديث تركيا | 16 | الجغرافيا الطبيعية للعالم الإسلامي |
| 116 | العالم الإسلامي تحت السيطرة الاستعمارية حوالي العام 1920 | 20 | اللغات والمجموعات العرقية الإسلامية |
| 118 | البلقان وقبرص وكريت (1500-2000) | 24 | الصور القديمة المتأخرة ما قبل الإسلام |
| 122 | الأقليات المسلمة في الصين | 26 | رسالة محمد وغزواته الحربية |
| 124 | المشرق (1500-2000) | 28 | توسُّع الإسلام حتى عام 750 |
| 128 | مشاهير الرحالة المسلمين | 30 | انتشار الإسلام (751-1700) |
| 132 | بريطانيا في مصر والسودان خلال القرن التاسع عشر | 34 | السُّنة والشيعا والموارث (660- نحو 1000) |
| 136 | فرنسا في شمال إفريقيا وغربها | 36 | الخلافة العباسية في ظل هارون الرشيد |
| 138 | نمو الحج وتطوُّر المشاعر المقدسة | 38 | انتشار الإسلام والشرع الإسلامي واللغة العربية |
| 142 | مدن متقدمة | 40 | الدول الوريثة إلى العام 1100 |
| 146 | وقع النفط في القرن العشرين | 44 | العصر السلجوقي |
| 148 | الموارد المائية | 46 | التجنيد العسكري (900-1800) |
| 150 | تجارة السلاح | 50 | الدولة الفاطمية (909-1171) |
| 152 | إضاءة سريعة: جنوب شرقي آسيا (1950-2000) | 52 | طرق التجارة (نحو 700-1500) |
| 154 | إضاءة سريعة: العراق (1917-2003) | 56 | الممالك الصليبية |
| 156 | إضاءة سريعة: أفغانستان (1840-2002) | 58 | الطرق الصوفية (1100-1900) |
| 158 | الجزيرة العربية والخليج (1839-1950) | 62 | الأيديون والماليك |
| 160 | صعود الدولة السعودية | 64 | الغزو المغولي |
| 162 | إضاءة سريعة: إسرائيل - فلسطين | 66 | المغرب وإسبانيا (650-1485) |
| 164 | إضاءة سريعة: الخليج (1950-2003) | 70 | إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى - شرقاً |
| 166 | المسلمون في أوروبا الغربية | 72 | إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى - غرباً |
| 168 | المسلمون في أميركا الشمالية | 74 | الدول الجهادية |
| 170 | المساجد وأماكن العبادة في أميركا الشمالية | 76 | المحيط الهندي إلى العام 1499 |
| 172 | القانون الإسلامية | 80 | المحيط الهندي (1500-1900) |
| 176 | أبرز المواقع المعمارية الإسلامية | 84 | صعود العثمانيين حتى 1650 |
| 180 | توزُّع المسلمين في العالم (عام 2000) | 88 | الأمبراطورية العثمانية (1650-1920) |
| 184 | السبب الإسلامي | 92 | إيران (1500-2000) |
| 186 | استخدام الإنترنت | 94 | آسيا الوسطى إلى العام 1700 |
| 188 | جدول زمني بأهم الأحداث الإسلامية | 96 | الهند (711-1971) |
| | | 102 | التوسع الروسي في ما وراء القوقاز وآسيا الوسطى |
| | | 106 | انتشار الإسلام في جنوب شرقي آسيا (نحو 1500-1800) |

مقدمة

من مَنُ العالم ومنتجاته السياحية، نذكر منها: نيروبي، دار السلام، مومباسا، الرياض، الدار البيضاء، بالي، تونس، جاكرتا، مومباي (بومباي) ومديرد. اللانحة تطول، وحجم الإجابات أخذ بالارتفاع، فيما يكتسِف الغضب والحيرة ودود فعل الشعوب وحكوماتها. وأحسب أن التداعيات البعيدة المدى لردود الفعل هذه على السلم والأمن الدوليين كافية لإقناع كل فرد منا (وليس فقط محرري وسائل الإعلام الذين يُقبلون وعي الجمهور بما يُلائم أولويات المعلنين لديهم)، أن المظاهر المتطرفة للإسلام هي من يضع أجندة النقاش وجدول الأعمال في القرن الحادي والعشرين.

إن المسلمين الذين يُقيمون في الغرب، أو في تلك المناطق الأخذة بالاتساع من العالم الإسلامي التي تغشاهما المؤثرات الإلكترونية للحرب، لبشعرون بالامتعاض من التعرُّض السلمي لهم، هذا التعرُّض المصاحب عادة للقلق المتزايد من الغرباء الطائرين. إن

قلِّما يمر يوم، منذ الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001، إلا ويُذكر فيه الإسلام، دين ما يُقارب خُمس البشرية، في وسائل الإعلام. في ذلك اليوم، خطف إرهابيون أربع طائرات ركاب أميركية وصدموها بها برجني مركز التجارة العالمي في نيويورك ومبنى البنتاغون بالقرب من واشنطن، مما أدَّى إلى مقتل زهاء ثلاثة آلاف شخص، ودفع الولايات المتحدة وحلفاءها إلى إعلان ما يُسمى «الحرب على الإرهاب»، التي أسفرت حتى الآن عن القضاء على حكومتين إسلاميتين، واحدة في أفغانستان والأخرى في العراق. وهكذا برز الإسلام فجأة، في كل أنحاء العالم، موضوعاً للتحليل والنقاش، واتسمت السجلات على أعمدة الصحف كما في استديوهات الأخبار، في المقامي كما في البيوت، بالحدة والسفوية. والأسئلة التي كانت تدور فيما سبق داخل أروقة المؤتمرات الأكاديمية وندوات التخرُّج الجامعية، دخلت الآن في صميم اليوم السائدة للوعي العام: ما هي «شريعة الجهاد»؟ وكيف حدث أن صار «دين مسالم»، ينتسب إليه ملايين المؤمنين الساعدين والمحترمين، أيديولوجيا للحد والكراهية لدى أقلية ساخطة؟ ولماذا أضى الإسلام بعد سقوط الشيوعية مشحوناً هكذا بالحدة الانتعالية؟ أو، إذا ما شئنا استخدام عنوان مقالة لاقت رواجاً واسعاً لعلمد المستشرقين، برنارد لويس: «ما وجه الغلل» الحاصل في التاريخ الإسلامي، في علاقته بنفسه كما في علاقته بالعالم الحديث؟

أسئلة من هذا الضرب لم تعد بعد الآن أكاديمية بحتة، بل أضحت على درجة كبرى من الأهمية، وموضع أخذ ورد بالنسبة لمعظم الأمم والشعوب على سطح كوكبنا هذا، فالإسلام، أو قلُّ بعض التفرعات منه - سواء أكانت مشوَّهة، أم منحرفة، أم فاسدة أم رهيبة أتانس متطرفين - بات اليوم قوَّة يُعتدُّ بها، أو على الأقل سيمَّة تُلمصق بظاهرة خُبلى بإمكانيات واحتمالات بالغة الخطورة.

قبل 11 أيلول/سبتمبر وبعده، وقعت العديد من الغفطات والأعمال الوحشية التي نُسبت إلى متشددين إسلاميين، أو التي اعترفوا هم أنفسهم بمسؤوليتهم عنها، فأوقعت الأذى الفادح والدمار الشديد بالعديد



الإسلام دينٌ سلاوي، لفظة «إسلام» التي تعني حرفياً التسليم (لأمر الله)، تتصل من الوجهة الاشتقاقية بعبارة «سلام» التي تفيد السلم والصِّلح. والتحية المتعارف عليها التي يستخدمها معظم المسلمين لدى انضمامهم إلى تجمُّع ما، أو حتى لدى التقاتيم بغرياء عنهم، هي: «السلام عليكم». يمكن القول إن الغربيين ممن يتهمون الإسلام بأنه دين عنصري يجهلون حقيقته. والصاق التعت «مسلم» أو «إسلامي» بأعمال الإرهاب ينطوي على ظلم واقتتات شديدين. حين أقدم مهوس مسيحي ذو ميول يمينية كنيشوي ماكفاي على تفجير مبنى فيدرالي أميركي في مدينة أوكلاهوما، وكان أسوأ عمل فظيع يرتكب على التراب الأميركي قبل 11 أيلول/سبتمبر، لم يصادر أحد إلى وصفه بالإرهابي «المسيحي». إن العديد من المؤمنين المسلمين لينظرون إلى «الغربيين» ممن تخلوا عن دينهم أو أعماهم التحامل الديني، على أنهم أُناس لا «يفهمون» الإسلام حق الفهم. وثمة وسائل إعلامية معادية لا تتورع عن تشويه الآراء الغربية، فتصنِّغ المشاعر والمواقف بصيغة «الإسلاموفوبيا» (الهلع

المرغبي من الإسلام)، أو المرادف لمعاداة السامية إنما مطبقة هذه المرة على المسلمين بدلاً من اليهود. بعض الدارسين ممن تدرَّجوا في الأكاديميات الغربية، مُتَّهمون بأنهم يرون الإسلام من خلال العدسات المشوَّهة للاستشراق، ذلك العلم الذي تطرق إليه الفساد نظراً لارتباطه بالإمبريالية، حين كانت المعرفة المتخصصة مسخرة لخدمة القوة والتفوذ الاستعماريين.

هذا مجال محفوف بالمخاطر ومُتنازع عليه، ومن يُغامر بدخوله من الكتاب إنما يُعرِّض نفسه للخطر. فأي تعميم بشأن الإسلام، مثله مثل أي دين آخر، يكون عُرضة للنقض والدحض، لأن مقابل كل وصف معياري للإيمان أو الاعتقاد أو السلوك الإسلامي، توجد تنوعات مهمة وفروق ذات شأن. وتزداد معضلة التعريف صعوبة لعدم وجود مؤسسة «كنسية» جامعة أو «باباوية» إسلامية تتمتع بسلطة أممية تفصل في ما هو إسلامي وما هو غير إسلامي (حتى الكنائس البروتستانتية تميَّزَ مواقفها الدينية بالتباير وأحياناً بالتضاد مع الكاثوليكية الرومانية).

العالم كما رآه الإبريسي
(549 هـ / 1154 م)



ثانيةً بصفته «المهدي المنتظر» في يوم ما من مقبَل الأَيام.

أهل السُّنة، من جهة أخرى، يرون أن النبي قد أعطى إشارات كافية على أنه يجبُ لخلافته أحد أصحابه، أبا بكر الصديق (حوالي 632-634)، الذي اتفق أبرز قادة الجماعة على القبول به خليفةً بُعيد وفاة الرسول. وهو بدوره اختار عمر بن الخطاب (ح 634-644)، الذي وقع اختياره، وهو على فراش الموت، وبعد التشاور مع زعماء المسلمين، على عثمان بن عفان (ح 644-656). وقد خلف عثمان علي (ح 656-681)، ومجدداً بموافقة وقبل قادة المسلمين في ذلك الحين. وفي نظر الغالبية السُّنية، يمثل هؤلاء الخلفاء الأربعة «الخلافة الراشدة».

وعلى مرّ الأَيام، صارت لكل من الشيعة والسُّنة هوية اجتماعية مميزة لهم. وقد انقسمت هاتان الطائفتان وتفرّعتا فروعاً شتى، وانتظمتا في حركاتٍ ونزعات مختلفة. ولئن اختلفت هذه وسواها من المجموعات فيما بينها، وكثيراً ما تصارعت حول تفاريقها، إلّا أن الاتجاه العام للعلاقات التي سادت المجتمعات الحضرية ما قبل العصر الحديث أفسح في المجال لتدبر من التماثل المتبادل والحوار الفكري بينهما.

إلا أنه برزت لدى الطوائف المتشددة والجماعات المتطرفة، في الآونة الأخيرة، نزعةٌ إلى لعن الفصوم في الدين وتكفيرهم، أو إلى اتهام من يحكمهم بالمرور من الإسلام. غير أن هذا المنظور الضيق الأفق يُقابل به وعي متنامٍ بين السواد الأعظم من المسلمين بتنوّع وتعددية التأويلات داخل الأمة.

وجو الالتصام الحادي للعبان في بعض أنحاء العالم الإسلامي في الوقت الحاضر، ذو منشأ معقد وقد يكون عَرَضياً. شأن التطرف الطهراني الذي استغل في أوروبا القرن السابع عشر من جراء التفاعيل المؤشّرة للتحوّلات الاقتصادية والاجتماعية. وكما ستوضّح الفرائط والنصوص فيما يلي من صفحات، فقد جاءت الحداثة إلى العالم الإسلامي على أجنحة القوى الاستعمارية، عوضاً عن أن تكون حصيلة تحولات متولّدة داخلياً. ف «خير أمة أخرجها الله للناس كي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر» فقدت الهيمنة الأدبية والسياسية التي كانت لها ذات يوم في الجزء

والهوية الإسلامية، شأنها شأن الهوية اليهودية، تشمل السلف كما تشمل المعتقد. فمن يسمون مسلمين إنما يمارسون دينهم بِطَرُقٍ مختلفة. فبوسع المرء أن يكون مسلماً من الوجهة الثقافية، تماماً مثلما يستطيع المرء أن يكون يهودياً بالمعنى الثقافي، من غير أن يتقيد بمجموعة معينة من الفرائض أو المعتقدات الدينية. وإننا لا نجانِب الصواب إذا ما وصفنا العديد من الأميركيين والأوروبيين غير المتديهِنين بـ«المسيحيين الثقافيين»، نظراً للأهمية التكوينية التي كانت للمسيحية في تطوّر الثقافة الغربية. وحقيقة أن هذه التسمية نادراً ما تستخدم – هذا إذا ما استخدمت أصلاً – لتكشف عن مدى الههمة الثقافية الغربية وطموحها إلى نبوءة سُنّة العالمية.

إن الأساس المسيحي للثقافة الغربية هو من البدايه يمكن بحث لا يَحْتَمُ أحد نفسه عناء إبرازها للمسيحيين. وفي الوقت عينه، لطالما انتُحلت لفظة «مسيحي» من قبل الأصوليين البروتستانت الذين يسعون جاهدين إلى تمييز أنفسهم عن الإنسويين العلمانين أو المؤمنين المتدينين على السواء، ممّن لا يشارطونهم نظرتهم العامة إلى العول.

ثمة مشاكل مماثلة بصدد التعريف تسري على العالم الإسلامي كذلك. فكما أن هناك تباينات وفوارق لاهوتية ما بين الكنائس المسيحية المختلفة حول شتى المسائل الإيمانية والطقسية، كذلك تقوم داخل حظيرة الإسلام جماعات وطوائف وملا تفتلف فيما بينها لجهة الطقوس المتبعة أو تقاليد كلٍ منها في التأويل والعمارة.

ومن بين أكبر النحل في الإسلام، هناك تاريخياً طائفتان تحدّان أمهما على الإطلاق، هما: السُّنة والشيعة.

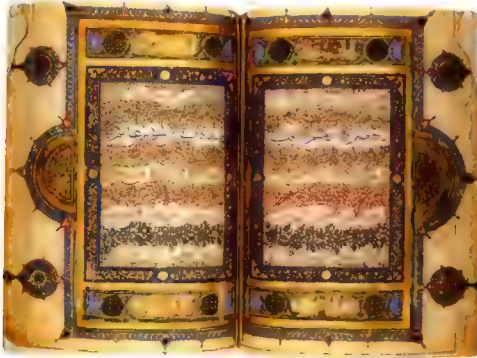
يعتقد الشيعة أن النبي محمد (نحو 570-632)، وقبل وفاته بوقت وجيز، اختار علي بن أبي طالب، ابن عمه وزوج ابنته فاطمة، خليفةً له. كما أنهم يؤمنون بأن هذه الخلافة تواصلت عبر سلسلة من الأئمة (أو القادة الروحيين)، المتخذين من صُلب علي وفاطمة، وقد اختار كلّاً منهم الإمام الذي سبقه. والكتلة الشيعية الأكبر حجماً، وهم الشيعة «الأثنا عشرين» أو كما يسمون «الشيعة الإمامية»، يؤمنون بأن آخر هؤلاء الأئمة، الذي «انحجب» في العام 873، سوف يظهر

قبائل الجزيرة العربية)، قد بُنيت من مجموعة أخرى مختلفة من المادة الشفهية، تلك التي تُعرف بـ «الحديث». أي المأثورات والمنقولات عن مسكينة النبي، وهي لم تدوّن في تصانيف إلا بعد وفاة الرسول. يتألف القرآن من 114 فصلاً تُعرف بالسور، وكل سورة تتألف من عدد متفاوت من الفقرات التي تُسمى آيات (وتعني بالعربية: دلائل أو معجزات). ويستثناء السورة الأولى، سورة الفاتحة (أو الاستهلال)، المكوّنة من سبع آيات هي بمثابة ابتهاج يُطلى في مختلف الشعائر، بما فيها الصلوات اليومية، فإن سور القرآن الأخرى مرتّبة بحسب تناقصها في الطول، بحيث تأتي أقصرها في النهاية وأطولها في البداية. ومعظم المصاحف القياسية تُصنّف السور ما بين سور نزلات في مكّة (وهي تميل إلى القصير، ومن هنا موقعها القريب من نهاية الكتاب)، وسور تعود إلى العقبة التي أقام فيها محمد في المدينة التي هاجر إليها مع أتباعه الأوائل هرباً من الاضطهاد في مكّة عام 622، العام الأول من التقويم الإسلامي (الهجري). السور المكيّة، واسمها المبكرة منها، تحمل في طياتها رسائل حياة عن المسؤولية الشخصية، وأحاديث عن الشواب والعقاب (الجنة وجهنم)، فيما هي تحثني من جهة أخرى ببهاء العالم الطبيعي وجماله كدليل على قدرة الخالق العظيمة وجلال شأنه. أما السور المدنية، فهي وإن كررت العديد من الموضوعات ذاتها، إلا أنها تسوق تحاليل إيجابية فيما يخص القضايا الاجتماعية والقانونية (بما فيها الأحكام الخاصة بالعلاقات الجنسية والميراث، والعقوبات الموصوفة لبعض أصناف الجرائم). وهذه السور، معطوفة على مواد مستقاة من مأثور الحديث، كانت المصدر الرئيسي لنشوء وتطور النظام القانوني المعروف بـ «الشريعة». وقد أضاف أعلام الفكر الإسلامي على اختلاف مشاربهم مصادر أخرى من عباداتهم، وذلك أوجداً المنهجية اللازمة لتنظيم أحكام الشريعة وتطبيقها. بالنسبة للمؤمنين المسلمين، يمثل القرآن كلام الله المباشر، وقد أملاه كما هو من دون أي تحوير أو تنقيح بشري. ويصف بعض العلماء المسلمين المحدثين النبي محمد بالنال أمين لكلام الله. ومن المعتقد أن النبي نفسه كان أميناً لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وإن كان بعض الدارسين يشكّون في ذلك على خلفية أنه كان

الأكثر تمدّناً من العالم خارج الصين. حين كان الإسلام في طور الصعود والترقي، كذلك كان مناخ التسامح الناشئ عنه. فقد كان العلماء والفقهاء المسلمون يتساجلون وينظرون فيما بينهم، لكنهم كانوا يحاذرون تكفير كل من يطق بالشهادة – بما هي الجهر الطئي بالإيمان – أو من يقيمون الصلاة مبتمّين وجوههم شطراً مكّة. ومثلما لاحظ الباحث الأميركي كارل إرنست، فإن «التعددية الدينية، حقيقة اجتماعية في أي مجتمع في عالمنا المعاصر. فإذا ما ادّعت جماعة لنفسها السلطة على سائر الجماعات الأخرى، مُطالبة إياها بالولاء والطاعة، فسوف يُعتبر ذلك تعاضلاً للتسلط بواسطة اللغة الدينية المنمّقة» [كارل إرنست، «أبواب محمد: إعادة النظر في الإسلام في العالم المعاصر»، لندن، من 602]. في المبدأ، وإن لم يكن دائماً في الممارسة، المسلم هو من يتّبع الإسلام، للغة العربية التي تعني الانقياد، أو بمعنى أدق، «التسليم» لإرادة الله كما أوحى بها للنبي محمد. وهذه الموصفات المتنزّلة شغاهاً على امتداد فترة نبوة محمد الناشطة، من حوالي العام 610 وحتى وفاته، موجودة كلها في القرآن، الكتاب الذي يُشكّل أسس الدين الإسلامي والنُظم الثقافية المتنوعة النابعة منه. وقد تصدّى لفيف من الباحثين من ذوي النزعة التصحيحية في الجامعات الغربية للرواية الإسلامية التقليدية عن أصل القرآن، زاعمين أن النص قد اقتطع من كتلة أكبر من المواد الشفهية بعد الفتح العربي للهلال الفصبي. غير أن الغالبية العظمى من الدارسين، مسلمين وغير مسلمين، تنظر إلى القرآن على أنه المكوّنة الكتابية للتنازل المتراكم على امتداد مسار الرسالة المصدية. وخلافاً للكتاب المقدس، ليس هناك ما يدل على وجود تصنيف متعدد للقرآن. وعلى النقيض من «العهد الجديد» (الإنجيل) بنوع خاص، الذي جُمع فيه أقوال السيد المسيح في أربع روايات متمايزة عن حياته وما يُفترض معها أنها قد وضعت من قبل مؤلفين مختلفين، فإن القرآن يحتوي على العديد من الإشارات الضمنية إلى حوادث وقعت في حياة الرسول، إنما من غير أن يتناولها بالتفصيل. بل إن قصة المسيرة العملية لمحمد كنبي وكرجل دولة (إذا جاز لنا أن نستخدم هنا اصطلاحاً حديثاً لزعيم حركة وحّدت

وفتحوا شطراً من الأمبراطورية البيزنطية (بلاد الروم)، وكامل بلاد فارس أمام الاستيطان الإسلامي. في البدء، بقي الإسلام ديناً «عريباً» في المقام الأول. إذ عمد أمراء الحرب المسلمون إلى إيواء كتاباتهم المقاتلة القبلية في معسكرات كبيرة خارج المدن المستولى عليها، تاركين رعاياهم الجدد (من مسيحيين ويهود وزرادشتيين) يديرون أمورهم بأنفسهم ما داموا يدفعون الجزية (وهي نوع من الضريبة على الرأس) عوضاً عن تأدية الخدمة العسكرية. أما عملية الأسلمة، فقد حدثت بالتدريج من خلال القزاق، حيث إن أعوان الأسر من سكان البلاد المفتوحة لم تالَ جهداً في سبيل الالتحاق بالشَّعب الإسلامي. كما اتسع نطاق هذه

تاجراً نشيطاً. وناجحاً. بالنسبة لغالبيت المسلمين، القرآن كما دَوَّن في المصحف واستقرَّ على ما هو عليه إبان حكم الخليفة الثالث، عثمان بن عفان (644-656)، «غير مطلوق»، وأزلياً من أزلية الله نفسه. من هنا، فإن القرآن ينظر المؤمنون المسلمون يحتل المكانة التي يشغلها المسيح في نظر المسيحيين. فإله يتجلى ليس من خلال بشر ما، بل عبر اللغة الواردة في نص مقدس. إن العقائد الدينية الأخرى، ومنها البوذية، والمسيحية، والهندوسية، واليهودية، والسيخية، والزرادشتية، تضفي على نصوصها التأسيسية هالة مقدسة. وقد أخذ الحكام المسلمون بهذا المبدأ المشترك بإدانتهم التصامح الديني حيال «أهل الكتاب».



صفحتان متقابلتان من المصحف
مُزخرفتان بماء الذهب
وموشهتان بالخط البهاري
أُنجزت هذه النسخة عام 1399،
العام التالي لاستيلاء تيمورلنك
على دلهي، الآية من سورة التوبة،
وهي تتحدث عن حلفاء النبي من
البدو الذين لا يَغفر لهم تقاعسهم
عن الالتحاق بإحدى غزواته

العملية لَمَّا وجد الرعايا المعوزون ومقطوعو الجذور سنداً لهم في دين حكامهم الجدد، أو لمّا عثر المتحزرون من سحر حكامهم القدامى على ملائزٍ روحي يلائمهم في دين يحترم تقاليدهم، في الوقت الذي يُقدِّمون فيه تعاليمهم الدينية في إطار توليف جديد وخالق. كما كان دور المبشرين المسلمين الأوائل حاسماً هو الآخر في هذه العملية.

في طوره المبكر، شهد الإسلام توسعاً خائطاً خارج حدود جزيرة العرب عن طريق الفتح العربي لبلاد الهلال الخصيب وما يليها من ديار في غضون قرن أو نحو ذلك بعد وفاة الرسول في العام 632. وقد تصافر الإيمان بالإسلام ورسالة النبي السماوية – فضلاً عن الرغبة في المغانم – لتصهر القبائل العربية في آلة حربية سهولة. فهزموا الجيشين البيزنطي والساساني،

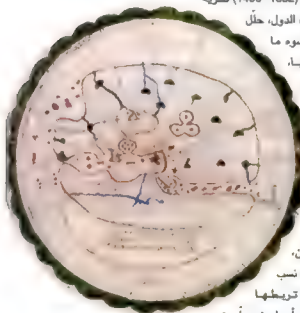
وكما يتضح من الفرائط التي يضمها هذا الأطلس، كان الحزام الأوسط من الأراضي الإسلامية الممتدة من المحيط الأطلسي إلى وادي السند ويشكل دائم تقريباً تحت رحمة الغزاة من البدو الرُّحَّل وأشباه الرُّحَّل. وفي الأزمنة ما قبل العصر الحديث، أي قبل أن تعمل الأسلحة النارية والسلاح الجوي وأنظمة الاتصال الحديثة على إخضاع مناطق الأطراف لسيطرة الحكومات المركزية (برعاية استعمارية طبعاً)، كانت المدن عُرضة للهجمات المتكررة من جانب النهابين البدو، وعبقورية النظام الإسلامي تكمن في أنه زُوِدَ القبائل المتأسلمة بمنظومات قانونية ومسكوكة وتعليمية من ضمن مبادئ الإيمان، وقد تفاقمت معها على مر الزمن.

في «مقدمته» لتأريخ العالم، وضع فيلسوف التاريخ العربي ابن خلدون (1332-1406) نظرية حول التجدد الدوري ونشوء الدول، حلَّ فيها هذه السهرورة على ضوء ما جرى في شمال إفريقيا، المنطقة التي ينتمي إليها وطبقاً لنظريته هذه، فإن المناطق الجافة أو القاحلة، التي يندر سقوط المطر فيها، تبقى الحالة الرعوية هي النمط الرئيسي للإنتاج الزراعي فيها. والرعاة، على عكس الفلاحين، ينقطعون ضمن خطوط نسب قبيلية (أو في مجموعات تربطها علاقات قرابة أبوية). إنهم أحرار نسبياً من سطوة الحكومات، وكونهم يتميزون بدرجة حراكية أعلى من أهل الأوصار (الحضر)، فلا يمكن فرض الضرائب عليهم بضعة منتظمة كما يتعدّر إخضاعهم لسيطرة السادة الإقطاعيين الذين يستولون على جزء من محاصيلهم لقاء شملهم بالحماية. أجل، في المناطق القاحلة، هم رجال القبائل من يكونون مدججين بالسلاح في العادة، وهم من يستطيعون في

غير أن اللاهوت الإسلامي (علم العقائد أو علم الكلام)، كان له بُعد ثقافي اتسم بالدينامية. ولعل هذا بالذات ما يفسّر لنا كيف تطوّر دين «العرب» إلى ديانة عالمية. فقد حمل الإسلام معه، بوصفه «دين الكتاب» النموذجي، الذي يمثّل كلمة الله مجسّدة في نصّ مكتوب، هبة واحترام التعظيم والمعرفة إلى الثقافات الجاهلة. وعلى شاكلة تعريف لاروشفوكو للتفارق، نقول إن عبادة الكتاب ما تكّن ولاء الرذيلة للفضيلة، بقدر ما كانت إجلال الجهل للعلم. وأياً كان إدراكنا للوحي - تنزيل من عند الله، أم حالة ذهنية مثبّدة أشبه ما تكون بمعلمات دماغية لنابغة بشري - فإن «معجزة» محمد جاءت على صورة لغة، ومرة بعد أخرى، راحت أقوام البدو الرُّحَّل اللقائقة عند أطراف الأمبراطورية الإسلامية بالاستهلاء على مراكز القوى، عاملةً بذلك على تعدّين نفسها، ولتغدو من ثم حاملة بدورها لواء النفوذ الثقافي الإسلامي. وائر فتسّع الدولة العباسية المظلمى، لم يعد الملم بخلافة عالمية تضم مجمل أرجاء العالم الإسلامي (لا بل وسائر البشرية في الواقع) مشروعاً قابلاً للحياة. فخطوط المواصلات كانت أطول من أن يتمكّن المركز من لجم طموحات الأمراء المحليين. لكن هبة المعرفة، كما كان يرمز إليها القرآن وآياته المنقوشة على جدران المساجد والمباني العامة في لوحات بديعة، ناهيك عن المصاحف المنسوخة بمنتهى الإتقان، كانت شديدة فعلاً. حتى الغزاة المغول، أصحاب السُّمعة السيئة لما كانوا يتصفون به من قسوة وهجمة، لم يجدوا مناصاً من التسليم بقوة الإسلام الروحية والجمالية في الأجزاء الغربية من البلاد الخاضعة لسلطانهم.

ليست الغاية من الفرائط التي يحتويها هذا الكتاب تقديم رواية جامعة وشاملة عن النضاج المتحوّلة للدولة والسلطة الدينية التي سادت إبان الاندفاع الجارف للتأريخ الإسلامي من زمن الرسول إلى يومنا الحاضر. بل غاية ما تتطلع إليه أن تنور جوانب مهمة من ذلك التاريخ عبر فتح نوافذ صغيرة على نواح بالغة الشأن من التاريخ البعيد والقريب، وبما يساعد على تهبان إرث المشاكل، وكذلك السوانح، الذي ورثه الحاضر عن الماضي. فالجغرافيا عنصر جوي لفهم التاريخ الإسلامي وصلته المنطوية على إشكالية بالحدائق

خريطة العالم رسمتها أسرة الشرفي
الصفائسي في العام 1571/1572 م
في مدينة صفائس بتونس



جزئياً، إلى مفاعيل الشريعة الإسلامية؛ إذ بخلاف الأعراف القانونية الرومانية، لا تتضمن الشريعة أية أحكام للاعتراف بالجمعية النقابية بوصفها «شخصية» اعتبارية.

في صياغتها الكلاسيكية، تنطبق نظرية ابن خلدون أكثر ما تنطبق على البيئة في شمال إفريقيا؛ البيئة التي يعرفها ويفهمها أفضل من غيرها. بيد أنها تصلح مع ذلك نموذجاً تفسيرياً للتاريخ الأوسع لغرب آسيا وشمال إفريقيا منذ ظهور الإسلام إلى الزمن الحاضر. تقوم النظرية على أساس من التفاعل الجدلي بين الدين والعصبية. ومفهوم ابن خلدون هذا للعصبية، الذي يشكل العمود الفقري لنظرية العامة إلى التاريخ الاجتماعي والسياسي للإسلام، يمكن تطويعه كي يتماشى والنظريات الحديثة. سواء أخذ المرء بالنموذج «البدائي» أو «الثقافي»، وبالنسبة إيجاد المبدأ الأساس لنظرية ابن خلدون في أطروحتين له أبرزهما الفيلسوف والعالم الأنثروبولوجي إرنست غيلشر بنوع خاص، وهما: 1- «لا تقوم الرئاسة إلا بالغلبة، ولا تقوم الغلبة إلا بالعصبية»؛ 2- «وحدها القبائل التي تحكمها العصبية قادرة على تحمل شظف الحياة الصحراوية».

والقوة الغالبة للقبائل قياساً بقوة المدن هي ما وفر الشروط التي مكّنت الحكم العسكري السلالي أو بديله، الحكم الملكي المدعوم من المؤسسة الملوكية أو العصبية المماسة، من أن يقدّم النمط السائد في التاريخ الإسلامي قبل التدخل الاستعماري الأوروبي. وغياب الاعتراف القانوني بالجماعة النقابية في الشرع الإسلامي حال دون قيام التماسك الاصطناعي للمعهود في النقابات؛ وهذا الأخير شرط مسبق لتطوير الرأسمالية المدنية وتجاوز الشئمة «الطبيعية» للقرابة. وقد دأبت التقاليد الثقافية الرفيعة للإسلام، في عهود ما قبل الاستعمار الحديث، تتفاعل مع أشكال التضامن البدائي هذه والعصبية العرقية، إنما لا لم تستطع الحلول محلها.

رسمياً، الأخلاق الإسلامية تمنع قيام أي شكل من أشكال التضامن المحلي خصوصاً إذا كان يُمايز ما بين المؤمنين. نظرياً، ثمة جماعة إسلامية واحدة هي

بعض الأحيان أخذ المدينة رهينة لهم طلباً لغدية أو حتى فتحها عنوة. إن نظرات ابن خلدون الثاقبة تُخبرنا لماذا يُجاني المرء الحقيقة عندما يتحدث عن «إقطاع» إسلامي إلا في السياق المحدود والمحدد جداً للأنظمة السائدة في أحواض الأنهار الكبرى كمصر والعراق، حيث تعمل كتلة فلاحية مستقرة في زراعة الأرض. أما في المناطق القاحلة، فينقل الرعاة بمرشهم وقطعانهم موسمياً من مكان إلى آخر، وفقاً لرتببات معقدة يتخذونها مع سواهم من المتنقلين بالأرض. وحق الانتفاع ليس بملكية. فالممتلكات والأراضي هنا لا تحدها حدود مشتركة مثلما أصبحت عليه الحال في المناطق الأوروبية التي تتساقط عليها الأمطار بمعدلات عالية. لقد ضرب الإقطاع، وكذلك فرعه الغائب: الرأسمالية، جذوراً عميقة له في أوروبا، وخلق في نهاية المطاف الدولة البرجوازية التي سوف تبسط سيطرتها على الأرياف، وتصبح الزراعة بصيغة تجارية، وتختص المجتمع الريفي للمقيم الحضري بقبضة المدينة. على العكس من ذلك، بقيت شعوب الأطراف في معظم أنحاء غرب آسيا وشمال إفريقيا قادرة على التعلّص من رفة الدولة إلى حين مقدم السلاح الجوي. وحتى في أماننا الماضية، لم يتحقق ذلك كلياً في بعض الأماكن من أفغانستان، حيث البنى القبلية قاومت ولا تزال سلطة الحكومة المركزية. وثمة لفظ مُجرّب يستخدمه أهل الحضار المغاربة للدلالة على مناطق البلاد القبلية؛ إنهم يسمونها «بلاد السببة» - أي أرض الجعفرة والسفاهة - في مقابل «بلاد الممنّن»، أي المركز المتمدّن، الذي يقع ويصفه دورية فريسة لها. تبعاً لنظرية ابن خلدون، فإن تفرق القبائل رهن بـ«العصبية»، تلك العبارة التي تعيل، في العادة، على قوة الشعور بوحدة الجماعة أو التضامن الاجتماعي. وهذه العصبية مستعذّة، في النهاية، من البيئة القاسية للأرض الصحراوية، أو الأرض الجباب، حيث لا وجود إلا لفقر طفيف من تقسيم العمل، وحيث البشر يعتقدون في بقائهم على غرى النصب ووشائج القرى. على النقيض من ذلك، تفتقر الحياة المدنية لأية عصبية أو روح تشاركية. وغياب التضامن البرجوازي، الذي تسمو بموجبه مصلحة الجماعة النقابية فوق رابطة الدم والقرى، يمكن عزوه، ولو

تختلف عنها في آخر الأمر لتجد نفسها تحت الهمية السياسية والثقافية لشعوب كانت تعدّها - وما زال بعض أفرادها يدونها - في مصاف الكفار.

كان النظام الإسلامي في الأزمنة ما قبل الحقبة الاستعمارية، والمتجذّر إلى اليوم في ذاكرة ووجدان المسلمين المعاصرين، على أكمل تهاجر مع البهثة السياسية لعصره. فحتى استراتيجية «الجهاد في سبيل الله»، كانت تعتمد لأغراض ذرائعية، نفعية أو عسكرية، فيما كان المستفيد من ذلك هو الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية. وهكذا صار الغزاة البدو، والممالك المستقدمون من مناطق الأطراف لصدّهم، في مقدمة رجال الإسلام، اللذين عن حياض الإيمان والجماعة، وأبرز حُماة لثقافته ونظمه التعليمية.

والذاكرة الاجتماعية لهذا النظام ما برحت تُمارس جاذبية شديدة على مخيال العديد من الشباب المسلم في الوقت الحاضر. ويصعّب هذا القول بنوع خاص حين نذكر أن الذاكرة الأحداث بعداً عن التحدث من خلال الاستعمار يُمكن تمثيلها كقصة ملوّها المهانة والكوص، وخيانة رسالة الإسلام لا شيء إلا لإحلال الحقيقة والعدالة الشاملتين في عالم تمرّقه الفِرقة والنزاعات. إن العنف الذي ضرب أميركا في 11 أيلول/سبتمبر 2001 قد يكون متجذّراً في اليأس المستحكم بأناس يحملون رؤية رومانسية ومثالية عن الماضي فيما هم يتأملون أشدّ الألم تحت وطأة الإذلال اليومي في الحاضر. ولئن كان الذين خطّوا لهذه العملية، من دون أدنى شك، أناساً متعلمين ومحتكين، وعلى دراية تامّة بأحوال المجتمعات العصرية وسير العمل فيها، إلا أنّه ليس بالأمر العرسي البتة أن يكون معظم مختطفي الطائرات الخمسة عشر من التابعة السعودية، وبعضهم من محافظة عسير بالذات؛ هذه المنطقة الجبلية القوية المعادية للحدود اليمنية العالية، استولت عليها أسرة آل سعود في عشرينيات القرن العشرين، وهي لا تزال تحتفظ بالكثير من علاقاتها وارتباطاتها بالقبائل اليمنية. كان من شأن المذبحة العشوائية في 11 أيلول/سبتمبر أن تروّع ابن خلدون مثل كل كرام الناس قطعاً، لكنّي أنك في أنها كانت ستُفاجئ.

«الأمة»، تخضع لمشية الله. أما عملياً، فكثيراً ما يُصار إلى تعديل أو تحوير هذا المثل الأعلى الإسلامي من خلال التسليم بالحاجة إلى استغفار العصبية أو النعرة القبلية «في سبيل الله». تُشدّد الممارسة الإسلامية، مُتمثلة بالمعبادات وغيرها، على قيمة الجماعة وذلك عبر إقامة الصلاة وأداء فريضة الحج بانتظام؛ ومع مرور الزمن، تولدت عن ذلك تقوى كتابية ذات صبغة مدنيّة، وتقاليده ثقافية رفيعة أو «كبرى». غير أن هذه عاجزة بذاتها عن أن تبني جماعة مترامنة، مستديرة وقوية بما فيه الكفاية لتجاوز الدينامية المقابلة، دينامية النعرة المحطية. وسواء أكانت هذه النعرة دنيوية، قائمة على الفوارق بين القبائل والقرى أو حتى بين الحرف والمهن؛ أو طائفية، قائمة على الاختلاف ما بين شتى المذاهب الدينية أو الطرق الصوفية التي تحكمها في أغلب الأحيان أسر بعينها؛ أو كان منشؤها الفوارق بين السُنة والشيعية، فإن مثل هذه الانقسامات تعمل ضد وحدة الأمة.

على نسق الحركة المعدنانية في الولايات المتحدة، يُشكّل الإسلام، ولاسيما التيار السُني الغالب الذي يضم حوالي 90 بالمئة من مسلمي العالم، قوة شعبية محافظة، تعارض التزمّت العقائدي أو الضوابط الكهنوتية المعتدلة. وإذا كانت كتابية الإسلام وروحه العملية الرابضة قد أدّته بلغة مشتركة عابرة للحدود الإثنية والعرقية والقومية، خالفة بذلك أضخم «مجتمع عالمي» عرفه العالم ما قبل العصر الحديث، إلا أنها لم تنجح قط في تأمين الدعامة الأيديولوجية الأساس لنشأام اجتماعي موحد. يُمكن أن يُترجم إلى هوية قومية مشتركة، في الغرب، أوجدت مؤسسات المسيحية القروسطية، المتحالفة مع البنى القانونية الرومانية، الشروط المسبقة لنشوء الدولة القومية الحديثة. أما في «دار الإسلام»، فبأن الأساس الخلفي للدولة ظلّ باستمرار عُرضة للإضعاف والتخريف من جانب واقع العصبية القبلية. كان يُمكن التسليم بذلك أمراً واقعاً، إنما يستحيل منحه اعترافاً شرعياً. وربما كان ذلك أحد الأسباب التي جعلت حضارة متقدمة بأشواط على منافستها المسيحية في القرنين العاشر والحادي عشر،

الصقائد والعبادات الأساسية في الإسلام

تتخذ أشكالاً عدة، كالصلاة والذكر والدعاء والابتهاال. والمسلمون في تأديتهم الصلاة يسجدون في اتجاه الكعبة، ذلك الهيكل المكعب الشكل الذي تغطيه «كسوة» سوداء مطرزة من الحرير الأسود، وينهض وسط ما يُعرف بـ«الحرم القدسي» في مكة. وتقام الصلاة يومياً عند الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب والعشاء، وفي المقدور الجمع بينها بحسب الظروف. كذلك بالوسع أداء الصلاة فردياً، في البيت، أو في مكان عام كالمتنزه أو حتى الشارع، وطبعاً في المساجد والجوامع وسواها من الأماكن المخصصة لذلك. ونداء الصلاة (ويُسمى الأذان)، يُطلق من المئذنة التي تعلو المسجد، ويتضمن التكبير (الله أكبر)، والشهادة (أشهد أن لا إله إلا الله... إلخ)، واللازمة: «حي على الصلاة». في الماضي، وقبل اختراع مكبرات الصوت الإلكترونية، كانت أصوات الأذان المرئية ترتدأ بدهاء تصدح من أعلى المآذن خمس مرات يومياً. وصلاة الظهر في يوم الجمعة هي الصلاة الجامعة التي تصاحبها «خطبة» يتلوها الإمام، أو من يوم المصلين، أو أية شخصية دينية بارزة أخرى. وفي القرون الأولى من الإسلام، كان اسم الخطبة أو الأمر يرد حتماً في أثناء الخطبة. وحين كانت المناطق تنتقل ملكيتها من حاكم إلى آخر (على غرار ما كان يحدث مراراً وتكراراً)، كان المؤثر الرسمي على انتقال الحكم: المناداة باسم الحاكم الجديد علناً في المساجد الكبرى بالبلاط. وثمة ركن آخر من الأركان الأساسية في الإسلام، ذلك هو الزكاة، أو المشاركة في الثروة (ويجب عدم الخلط هنا بين الزكاة والإحسان الطوعي أو الصدقة). في الماضي، كانت الغاية من إيتاء الزكاة تقوية الشعور الجمعي من خلال التشديد على واجب الغني بمساعدة الفقير، وكانت تدفع للزعامة الدينيين أو للحكومة. أما اليوم، فإن كل ملة إسلامية تؤتي زكاتها وفقاً لتقاليد خاصة بها.

والصوم هو الامتناع عن الأكل من طلوع الفجر

في الغالبية العظمى من المذاهب الإسلامية، يلتزم المسلمون جميعاً قواعد أساسية محددة، تسمى «أركان الإسلام». وأهم هذه الأركان، إظهار الإيمان أو النطق بالعبارة التالية: «أشهد أن لا إله إلا الله: وأشهد أن محمداً رسول الله». وهذه الجملة التي تُقال أمام شهود، وتسمى «الشهادة»، شرط كافٍ للدخول في الإسلام والانتساب إلى «الامة».

كذلك يشهد المسلمون بالتوحيد (وحدة ووحداية الله). إنهم يؤمنون بأن الله كان دائماً وأبداً على اتصال بالإنسانية من خلال الرسل والأنبياء، مثل إبراهيم وموسى وعيسى، وأن محمداً هو خاتم الأنبياء الذي أنزل عليه القرآن. والمسلمون مطالبون بالتزام نمط سلوك منطقي وأخلاقي في حياتهم الشخصية والاجتماعية، وهم مسؤولون عنه أمام الله.

وبالإضافة إلى التوحيد، تشتمل مبادئ الإيمان التي يلتزمها المسلمون على الاعتقاد بأن الملائكة وسواها من الكائنات الخارقة للطبيعة كالجنان مثلاً، إنما تعمل في تبليغ رسائل الله: وأن إبليس أو الشيطان، الملاك الساقط، أخرج من الجنة لأنه أبى النزول عند أمر الله بالسجود لآدم: وأن محمداً هو «خاتم النبيين»، أي أنه الأخير في سلسلة من الرسل البشريين أرسلهم الله لهداية البشر وتحذيرهم. ويؤكد القرآن أن من الذين أوحى إليهم فيها سلف – وبالنسبة للنصارى واليهود – قد حوِّروا في الكتب التي أنزلت عليهم. ويُنذر القرآن الناس بهيوم الدين (الدينونة/ القيامة)، يوم يقف الجميع، الأحياء والأموات على حد سواء، أمام الرب الذيان ليحاسبوا على ما فعلت أيديهم: فمن فعل خيراً، يُثاب ويدخل جنات النعيم: ومن أخل بواجباته، يُعاقب بأن يصلى نار جهنم.

كذلك يبيّن القرآن بالتفصيل جملة من الممارسات التي صارت مع الوقت معيارية بالنسبة للمسلمين. ومن هذه الممارسات: العبادات، التي

حتى غروب الشمس طوال شهر رمضان؛ وفيه يتمتع المؤمنون عن الطعام والشراب والتدخين وكذلك عن الجماع، ولقد عُدَّ أبو حامد الغزالي، المتصوِّف والفقيه المشهور في القرون الوسطى، منافع جمة للصيام، نذكر منها: نقاء القلب وشحذ المداكر المُلَازِم للجوع، وإماتة الجسد والسيطرة على النفس وكبح الشهوات، فضلاً عن التضامن مع الجوعى؛ فالإنسان الشهبان «غرضة لأن ينسى الجانعين وحتى الجوع نفسه». تقليدياً، شهر رمضان مناسبة لجميع شمل أفراد العائلة والعكوف على الصلاة والتأمل الديني. لكن في العديد من الأقطار الإسلامية اليوم، ينقلب الصيام إلى مأذب عامرة عند المغرب، فتكون مناسبات يغلب عليها جو المرح والإسراف في الطعام والشراب وتدوم حتى ساعة متأخرة من الليل. رمضان هو الشهر التاسع في التقويم الهجري (القمري)، الذي ينقص عن التقويم الشمسي بأحد عشر يوماً. لذلك، يحلّ رمضان، شأن بقية الأعياد الإسلامية، في فصول مختلفة خلال دورة كاملة من خمس وثلاثين سنة.

وهناك فريضة شعائرية جليلة الشأن في الإسلام، هي الحجّ إلى مكّة، حيث يتوجّب على المسلم المؤمن أن يحجّ في حياته مرة «واحدة» على الأقل إن استطاع إلى ذلك سبيلاً. تاريخياً، الحجّ كان وما زال إحدى الوسائل الرئيسية لإبقاء العالم الإسلامي بشئى أراجائه على اتصال وتواصل مادي، في

الآزمنة ما قبل الحديثة، أي قبل أن تجعل وسائل النقل الجماعية من سفن وطائرات الحجّ في متناول معتدلي ومتوسطي الحال، كان الحجّاج العائدين يكتسبون اللقب المشرف: «الحاج» / «الحاجة»، ويحظون بمكانة اجتماعية أرفع من أولئك الذين لم يحجّوا بعد داخل أوساطهم. والحجّ علاوة على إتاحتها الفرصة لتحقيق كمال الذات روحياً، يوفّر في بعض الأحيان فرصة لمزاولة الأعمال من خلال تمكينه الحجّاج من مختلف أصقاع الأرض من الالتقاء والعمل معاً. كما أنه يسهّل الأمر للحركات الهادفة إلى الإصلاح الديني – السياسي. فكم من حركة سياسية نشأت عن لقاءات جرت أثناء موسم الحجّ – ابتداءً من الثورة الشيعية التي أفضت إلى قيام الخلافة الفاطمية في شمال إفريقيا (909)، وصولاً إلى حركات النهضة والإصلاح الإسلامية الحديثة. والمعظم الذّال على انتهاء شهر الصوم هو «عيد الفطر»؛ في حين يبلغ الحجّ ذروته مع «عيد الأضحى»، حيث يشارك المسلمون في تقديم الأضاحي من المواشي. وهذان العبدان هما أكبر احتفالين متعارف عليهما يحبيهما المسلمون في كل مكان. وعلاوة على ما تقدم، هناك العديد من العبادات والممارسات الروحية الأخرى لدى المسلمين التي نشأت وتطوّرت عبر العصور، وهي مبنية على تأويلات خاصة لمزاولة الإيمان وتفاعله مع التقاليد المطبقة.

الجغرافيا الطبيعية للعالم الإسلامي

المحيط الهندي؛ وعلى منطقة جونغلي جنوبي بحر قزوين عند المنحدرات الشمالية لجبال البروز، التي تستجمع الهواء المشبع بالرطوبة المنساب جنوباً من روسيا.

في الأزمنة القديمة، وقبل أن تصبح المياه المتحجرة الجوفية، المغزونة لملايين السنين داخل الطبقات الصخرية، متوافرة للإنسان بفضل طرق الحفر العصرية، كانت الزراعة غير مستقرة إلى حد بعيد، خصوصاً حين ظهرت المنطة مثلاً، وغيرها من المربوعات التي يلزمها كميات هائلة من المياه، على شكل واديات غذائية، فالهطل الذي ظلّ يغلّ المنطة طوال آلاف السنين لن يلبث أن يعرف مواسم عصفاً حين يكون تساقط المطر بوحدة واحدة بدلاً من الهوسات الضخيرة المعتادة. وهذا ما أدركته الشعوب القديمة جيداً، فأثبتت لنفسها إلهادات الجيوب. غير أن الزراعة ازدهرت بالفعل في أودية الأنهار الكبرى، في مصر وبلاد الرافدين (العراق حالياً)، فالفيضات السنوية فيهما، التاجم عن الأمطار المدارية في إفريقيا وذبوان الثلوج في هضاب الأناضول وإيران، دأب يغلّ محاصيل منتظمة، وسهّل عملية نشوء الثقافات المدنية المعقدة في سومر وأشور ومصر. والحاجة إلى إدارة شبكات الري ذات المعايير العالية الدقة في استخدام مياه دجلة والفرات والنيل الفنية بالعناصر الغذائية، اقتضت استنباط أنظمة معقدة للتسجيل والضغط، الأمر الذي أتاح للكتبة المتعلمين، الجديدين بأن يكونوا كهنة، أن يحكموا جنباً إلى جنب مع القابضين على زمام القوة العسكرية وهكذا يجوز القول إن النهر الأصفر في الصين، وادي الإندوس (السند) في الهند، والمنظومات النهرية الكبرى في الهلال الخصيب، كانت في أصل نشوء الحضارة الإنسانية. وأولى الدول، بمعنى أنظمة الحكم الخاضعة للنظام والقائمة على مبادئ قانونية عامة، إنما ظهرت في تلك المناطق تحديداً منذ ما يزيد عن خمسة آلاف سنة.

والقدر المحدود من ماء التربة اللازم للإنتاج الزراعي، كان له الوقع الحاسم على نمو المجتمعات البشرية في المناطق الجافة، صمّح أن الظروف تختلف من منطقة إلى أخرى، إلا أن ثمة مزايا معينة

لأن كان العالم الإسلامي يُغلبُ حالياً حزاماً عريضاً من المناطق الممتدة من سواحل إفريقيا على المحيط الأطلسي إلى الأريخييل الإندونيسي في المحيط الهادي، إلا أن الرقعة الوسطى من غرب آسيا، حيث ظهر الإسلام، كان لها الأثر الحاسم في تطوره. وبالمقارنة مع غرب أوروبا وشمال أمريكا، تتصف تلك الرقعة بقلة هطول الأمطار على وجه العموم. في فصل الشتاء، تسقط الأمطار والثلوج التي تحملها الرياح الغربية



مسجد أفايس في الفجر. شُيّد أول مرّة في القرن الرابع عشر ميلادي، وهو مبنيّ من الطين. هيكله الإنشائي يتطلب تجديداً وترميمات بصورة منتظمة، ويقوم بذلك عمال يحملون طيناً جديداً ويتسلفونه على القيد الفشوية الثالثة التي تقوم مقام السقالات.

القادمة من المحيط الأطلسي ويكميات لا بأس بها على جبال الأطلس وجبل الريف، وعلى هضبة برقة وجبل لبنان، فيما تسقط بقاياها على نحو متقطع على الجبل الأخضر في عُمان، وجبال زاغروس والبروز ومرتفعات أفغانستان. غير أن الأمطار الوحيدة التي تهطل بانتظام أكيد، هي تلك المتساقطة على جود الهمن وظفار، التي تستقبل الرياح الموسمية الهابّة من

محاصيلهم الزراعية من جانب الكهنة على شكل تقديرات وأعطيات، أو من قبل الحكام على صورة ضرائب إلزامية. كان الرعاة الرُحَّل في كثير من الأحيان يتجشون في التمسك من قيود سلطة الدولة وضوابطها. فالتاس هنا منتظمون في عشائر أو في تشكيلات أبوية من ذوي الأرحام متحدرين من سلف ذكر مشترك وتلقى البسالة في الحرب تشجيعاً خاصاً، لأنه حيث تندر الموارد الغذائية، ربما تضطر القبائل، أو البطون والأفخاذ القبلية، إلى التنافس فيما بينها، أو حتى إلى الإغارة على القرى المستقرة كي تبقى على

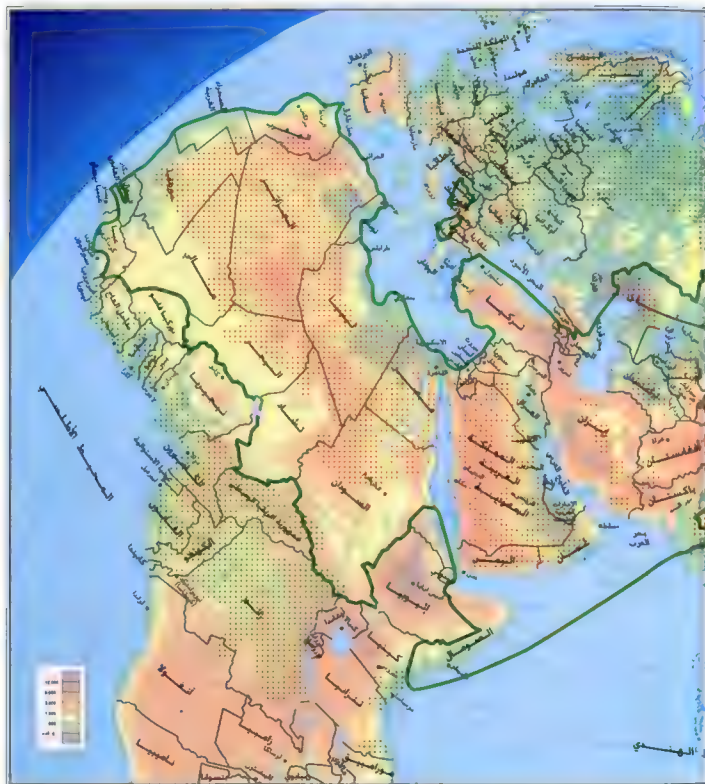
تميز أنماط الحياة فيها عن مثيلاتها في المناطق المعتدلة شمالاً أو المناطق الاستوائية جنوباً. فحيثما تقل الأمطار أو يكون هطولها غير مؤكد على وجه اليقين، تشكل تربية الحيوانات – الإبل، والغنم، والماعز، والبقرة، والخيول إذا كان الأمر مثلاً – أضمن وسيلة للعيش بالنسبة لعدد لا يستهان به من البشر. إن «البدو الخالصة»، أو بدو الرمال من الكلبان المتبدلة والمتنقلة بفعل الرياح، والتي تغطي قرابة ثلث مساحة الجزيرة العربية وشمال إفريقيا، لا تناسب حياة البشر أو الحيوان إطلاقاً، لذلك تحاشاها

مع إرساء الإسلام دعائمه على امتداد «طريق الحرير» أقيمت المساجد للمسافرين المسلمين والمهتدين المخلصين إلى الإسلام على حد سواء. هذا المسجد في مقاطعة شينجيانغ الصينية يهكس في تصميمه مؤثرات العمارة في آسيا الوسطى



قيد الحياة. الملكية لدى الرعاة مشاعية، وهي تتخذ بصورة تقليدية شكل قطعان من الماشية عوضاً عن أراضٍ مُغلة للمحاصيل الزراعية. إن الممتلكات والأراضي هنا ليس لها حدود مشتركة (كما هي الحال في المناطق ذات التساقطات المطرية العالية)، لأن الأرض قد يشغلها مستخدمون مختلفون تبعاً لاختلاف فصول السنة. وغالباً ما يعتبر الموارد الحيوية، كالنباتات وآبار المياه، التي للجميع مصلحة فيها، ملكاً لله، إنما عهد بها إلى أسر مخصوصة تكون قيمة عليها وتعد نوعاً ما مقدسة.

الرعاة والتجار والجيوش. لكن أشكالاً معقدة من الحياة الرعوية البدوية وشبه البدوية نشأت في المناطق شبه الصحراوية الأوسع مساحة، فكانت قطعان المواشي تساق شتاءً مسافات بعيدة إلى الأودية أو الأراضي شبه المتصحرة لترعى هناك على الكلاً والنباتات التي يمكن أن تنبت بعد أدنى رقة من المطر. وفي حر الصيف، تنتقل القطعان، حيثما أمكن ذلك، إلى المراعي في المرتفعات والهضاب، أو تتجمع على مقربة من الأنهار ويزك المياه، ويعكس الغلاحين العاملين في زراعة الأرض الذين قد تُنزع منهم



اللغات والمجموعات العرقية الإسلامية

وإلى جانب المسلمين الذين يعيشون في بلدانهم ذات الأصل العرقي المعروف، هناك في الوقت الحاضر ملايين المسلمين المقيمين في أوروبا وأمريكا الشمالية. وحيث إن اللغة الإنجليزية هي اليوم اللغة العالمية للأعمال والتجارة والثقافة والعلوم، وبالنظر إلى أن المسلمين من الجيل الثاني في أوروبا وأمريكا وكندا يتحدثون الإنجليزية (ناهيك عن الفرنسية والألمانية والهولندية وسواها من اللغات الأوروبية)، بات انتشار هذه اللغة بين المسلمين يشكل تطوراً بارزاً في الآونة الأخيرة.

تُعد الدولة القومية الحديثة، القائمة على حدود معترف بها دولياً، ولغة مشتركة (في معظم الحالات)، ونظام قانوني عام، ومؤسسات تمثيلية (سواء أكانت مُعيّنة أم منتخبة)، ظاهرة جديدة في معظم العالم الإسلامي، فالحدود الحديثة المفروضة فرضاً في أحوال كثيرة، نتيجة ترتيبات وتفاعلات بين الدول الأوروبية، ترسم خطوطاً على الخرائط تنهك وحدة الانتماءات اللغوية/العرقية، مما ترك شعوباً كالأكراد والبشتون، مثلاً، مُقسمة بين دول مختلفة. قبل أن تهاجر التدخلات الاستعمارية بحسب البلدان الإسلامية داخل المنظومة العالمية للدول الأعضاء في الأمم المتحدة، كانت تلك البلدان تنزع إلى تنظيم نفسها على أساس مذهبي أو عرقي وليس على أساس إقليمي أو ترابي. قلم تكن للبلدان الإسلامية حدود مرسومة على خرائط ولم تكن الحكومات فيها تعمل بانتظام ضمن مساحة معترف بها، كما هي الحال في أوروبا، «بل كانت بالأحرى تنطلق من عدد من المراكز الحضرية بقوة تميل إلى الضعف كلما طالت المسافة وبرزت في وجهها موانع طبيعية أو بشرية» [ألبرت حوراني، «تاريخ الشعوب العربية»، لندن، منشورات فايز، طبعة منقّحة 2002، ص 138].

وإذا لم أن تنصّب الروح القومية، كما في إيطاليا النهضة وإنجلترا وهولندا، على المدينة، أو المدينة/الدولة، أو الأمة بالمعنى الإقليمي الحديث، انصبت بالأحرى على العنصرية أو القبيلة ضمن إطار «الأمة» الأوسع: الجماعة الإسلامية على نطاق العالم أجمع. وقد تعرّزت أشكال التضامن المحلي هذه

هناك ما يناهز مليار مسلم في العالم اليوم، أي حوالي خمس تعداد البشرية. وأكثر مجموعة فيهم ذات لغة واحدة هي العرب، بما يشكل زهاء 15 بالمئة من المسلمين. إنما ليس كل العرب مسلمين. فهناك أقليات مسيحية عربية لا يُستهان بها في كل من مصر وفلسطين وسورية والعراق، وأعداد قليلة من اليهود الذين يتكلمون العربية في المغرب. وإن كان عدد هاتين الجاهتين قد شهد هبوطاً سريعاً في العقود الأخيرة بفعل الهجرة بالدرجة الأولى. لقد هيمنت العربية، بما هي لغة القرآن والعلم والفكر الإسلاميين، زمناً طويلاً على ثقافات العالم الإسلامي: تليها مباشرة الفارسية، لغة بلاد العجم والبلاد المغولية في الهند.

غير أن انتشار الدين الإسلامي بين شعوب وأقوام من غير العرب، قد جعل العربية لغة أقلّوية، وإن كان العديد من المسلمين من غير العرب يتلون القرآن بالعربية. وتبعاً لسميح إثنوغرافي نُشر عام 1983، ثمة ما يربو على 400 مجموعة عرقية/لغوية في صفوف المسلمين حالياً، لعل أكثرها بعد العرب، وبالترتيب نزولاً: البنغاليون، البنجابيون، الجاويين، الناطقون بالأردية، أتراك الأناضول، السودانيون (سكان شرق جاره)، الفرس، الهوسا، الملاويين، الأذريين، الفولاني، الأوزبكسون، البشتون، البربر، السنديون، الأكراد، المادوريون (سكان جزيرة مادورا، شمال شرقي جاره). ويتراوح تعداد هذه المجموعات ما بين 100 مليون نسمة تقريباً (البنغاليون)، و10 ملايين (السنديون، الأكراد، المادوريون). ومن مثبات المجموعات الصغرى التي تضمها اللائحة، تأتي أصغرها طراً، وهي: الواتوي، الذين يعملون في الصيد وجمع الثمار في إثيوبيا، ولا يزيد عددهم عن 2,000 نسمة لكن ثلاث لغات يتكلم كلّا منها تزيد من 10 ملايين نسمة – وهي الجاوية والسوندانية والمادورية – تعرّض حالياً للخطر من جانب الـ «بهاسا إندونيسيا»، وهي اللغة الرسمية المعتمدة اليوم في المدارس الإندونيسية. وحيث إن الإندونيسيين يشكلون أضخم بلاد في العالم ذات أغلبية إسلامية، فمن الممكن أن تتجاوز الـ «بهاسا إندونيسيا» اللغة العربية من حيث كونها اللغة الإسلامية السكية الأوسع انتشاراً.

على الرُّحل من ممتلئ السلب والنهب أو عن ضبطهم ولجئهم بواسطة القوة العسكرية، تعرّضه نوعاً ما القوة الأدبية للإسلام وهيجته الثقافية. وقد حدث مراراً، في عصور ما قبل الاستعمار، أن صار الشُّهاب أنفسهم مدافعين مؤثوقين عن الإسلام: أو إذا ما استعربنا هنا جملة للعالم الأنثروبولوجي إرنست غيلنر، «صارت الذئاب كلاباً للرعيان». ومثلما روى النبي محمد قبائل الجزيرة العربية بما ضربه لها من أمثلة شخصية، فضلاً عن الإعجاز القرآني ونظام الحكم العنيتق عنه، كذلك عملت الشريعة (الإلهية) وأنظمة الفقه (البشرية) معاً على تسوية الخلافات والنزاعات التي كانت تترى بين قطاع الطرق الرعويين والزراعيين وأهل الأمصار. وهذا النظام المتأصل في الذاكرة الاجتماعية لمسلمي الحاضر، كان يقوم على واجب الحاكم في إقامة العدل، وذلك بالحكم وفق الشرع الإسلامي، والمهمة الجسيمة التي تواجه الدول الإسلامية المعاصرة، هي كيف تسخر تقاليد سياسية واجتماعية يعرف الجميع أنها تشكّلت في بيئة تختلف كل الاختلاف عن الظروف السائدة حالياً.

شرطي من الطوارق في منطقة الساحل الجنوبي الصحراء الكبرى من مركزهم في تيمكتو، سيطر الطوارق على طرق التجارة بين البحر المتوسط وغرب إفريقيا

بممارسات من قبيل الزواج اللصحي بين أبناء العمومة المباشرين، وهو شرط لازم في العديد من المجتمعات الإسلامية. كما تدّعت الولاءات العشائرية أكثر فأكثر بالعامل الديني، مع لجوء زعماء القبائل في كثير من الأحيان إلى توسيع ثورتهم أو غزواتهم بالدعوة إلى الذود عن حياض الإسلام الحق في وجه أعدائه الكفار. إذا ما نظرنا إليها من منظور تاريخ الغرب الحديث، نجد أن أنظمة الحكم التي عرفتها المناطق الجافة أو القاحلة كانت بوجه عام غير مستقرة وباعثة للخلاف والشقاق. في أوروبا، وهي منطقة تتميز بمعدلات تساقط أمطار عالية، خرجت الدولة من رحم الصراعات الدستورية ما بين الحكام والمحكومين، فتذّهبها الصراعات بين الطبقات الاجتماعية إنما داخل سكان متجانسين يتشاطرون نفس الهويات القومية والسياسية والثقافية (وإن شابهنا نزاع في بعض الأحيان كما في إيرلندا مثلاً). أما في المناطق الجافة، فقد فرضت العشائر المتقلّبة، أو السلالات ذات الركائز القبلية، هيمنتها على المجموعات المروّضة، أو سعت إلى ضمان هيمنتها تلك عن طريق استقدام المماليك (وهم من الصكر المسترق) من أطراف البلاد النائية، ممن لا يربطهم بسكان البلاد الأصليين سوى الحد الأدنى من العلاقات الاجتماعية. فبقي الزراع أهل الفلاحة وكذلك أهل المدن والأمصار، عُرضة لأعمال السلب والنهب من جانب البدو الرُّحل، ممّن كان يضرب بهم المثل بالصيحة: «البرابرة على الأبواب»! كانت العصبية التي تشدّ أفراد العشيرة إلى بعضهم بعضاً أقوى من أي شكل من أشكال التضامن العنيتق. وإن افترضنا الطبقات المدنية المسلمة إلى روح التلاحم النقابي التي ميّزت تطوُّرتها في الغرب، فقد أخفقت في تحقيق الثورة البرجوازية أو الرأسمالية التي أفضت إلى قيام أنظمة الدولة الحديثة في أوروبا وأميركا الشمالية.

بيد أن هناك طريقة مغايرة لمعاينة المشهد ذاته فعلى ضوء غلبة البداوة الرعوية على الحزام الشاسع من الأراضي التي ضرب فيها الإسلام جذوره، والممتد من سهوب كازاخستان إلى سواحل الأطلسي (وكنذك الأمر في المناطق المشابهة في شمال الهند وإلى الجنوب من الصحراء الإفريقية الكبرى)، كان عجز الدول الزراعية الضعيفة نسبياً عن فرض الضرائب







المصور القديمة المتأخرة ما قبل الإسلام

اللاحقة الذين كانوا يتمتعون بحماية البيزنطيين، والضميين الذين كانوا يدينون بالولاء للأمبراطورية الساسانية.

والتأثير الأكبر على الحياة الثقافية التي فُض لها أن تظهر في العالم الإسلامي، جاء من الأكاديميات ومعاهد التعليم التي صانعت المؤثرات الفارسية والإغريقية والهندية. ولعل الإرث الهلنستي والفارسي في حقول الطب والطوم والفلسفة بنوع خاص، هو ما سيخلق ذلك التقليد القوي المتمثل في حُب البحث والفضول الفكري في المجتمعات الإسلامية العتيدة.

هذا وقد تأثرت ثقافات المنطقة، وإن بدرجات متفاوتة، بالطابع الكونموبوليتاني للعالم المتوسطي هذا، فحفظت بذلك تراث العصور القديمة الكلاسيكية

والتراث الهلنستي

بأشكالهما المختلفة،

المعمارية والفلسفية والفنية

والمدنية والزراعية. ومن

بين أبرز الديانات التي

عرفتها المنطقة، الديانة

المسيحية في صيغتها

الأفروآسيوية التي دانت لها

الأجزاء الجنوبية من الجزيرة

العربية، فيما سيطرت

الزرادشتية على إيران وبلاد

ما بين النهرين. ولليهودية

تأريخٌ مسديد في الشرق

الأدنى، كما استقرت جاليات

يهودية صغيرة في اليمن

وإحاط الجزيرة العربية مثل

يثرب (المدينة). وقد تعايشت القيم والآداب والتقاليد الموروثة من كل هذه الحضارات في تلك البيئة الشاسعة، المتعددة الديانات والمتعددة الأعراق، التي لن يمضي قرنٌ من الزمن على وفاة النبي محمد إلا وتكون قد بوغت بالفتوحات الإسلامية لها. وسوف تُشكل مع مرور الزمن جزءاً من منظومة حضارية أكبر مقترنة بالدين الإسلامي، إنما محافظة في الوقت عينه على تواصلٍ مع شتى تراثات العصور القديمة.

خرجت جماعة المسلمين إلى الوجود في الجزيرة العربية إبان القرن السابع الميلادي، وكانت المنطقة التي شهدت مولدها محل سيطرة حضارات وأمباطوريات وثقافات ومجموعات عرقية عريقة فما زالت آثار من حضارة بلاد الرافدين حيةً إلى اليوم في واديّ دجلة والفرات؛ ولطالما شعرت المناطق المحاذية للبحر المتوسط والخليج بوقع القوى المجاورة التي كانت تززع خطوط التجارة البحرية في تلك المياه ذهاباً وإياباً. كانت مبرزنة، الدولة الرومانية الأرثوذكسية الشرقية، التي تتخذ من القسطنطينية قاعدة لها، المملكة المسيحية الأولى في المنطقة، وكانت على خصام مع الأمباطورية الساسانية الزرادشتية الجبارة في بلاد فارس (إيران حالياً).

نقشٌ بارزٌ على الصخر من ماغشي - رومفان، يصور أردشير الأول، مؤسس السلالة الساسانية، وهو يواجه محارباً معادياً من بارثيا



والمد والجزر في النزاع بين مختلف القوى الكبرى آنذاك كان له أكبر الأثر على التجارة، وكذلك على العلاقات مع المنطقة المزدهرة الواقعة إلى الجنوب منها في الجزيرة العربية. ولا يزال تأريخ بعض الممالك العربية الغابرة محفوظاً إلى الآن في الأوابد والمحفلات الأثرية كتلك القائمة في البغراء النبطية (القرن الأول ق-م - القرن الأول م)، وتدمر (القرن الثاني - القرن الثالث)، وفي آثار الفسافسة في القرون



رسالة محمد وغزواته الحربية

التنزيل الأخير من الله إلى البشر، جُمع القرآن في عهد ثالث الخلفاء الراشدين، الخليفة عثمان بن عفان (ح 644-656)، وهو يتألف من 114 فصلاً أو سورة ويُقال إنها تنزلت على محمد في مسقط رأسه، مكة، حيث كان يعمل في التجارة؛ كما أن هناك سوراً تعود إلى فترة إقامته في المدينة (622-632).

في مكة، تسببت إدانة القرآن للأثام والشور، مثل الكبرياء والغرور والجشع وإهمال الواجبات الاجتماعية، وكذلك تحذيراته من يوم الحساب وتهجمات على عبادة الأوثان، بنشوب نزاع حاد بين محمد وأنصاره من جهة، وزعماء قبيلته قُرَيش من جهة أخرى. فتعرض أبناء عشيرته للمقاطعة، والمهتدون إلى الإسلام للاضطهاد، مما حمل بعضهم على اللجوء إلى أقبشوم (في الحبشة). إلا أن شهرة محمد كنبى ورسول الله الصادق الأمين، تجاوزت حدود مكة، فكان يُدعى إلى القضاء والتحكيم بين فئات القبائل المتخاصمة في يثرب، التي سُميت لاحقاً بـ «مدينة النبي»، وتُختصر عادة بـ «المدينة»، وهي واحة مأهولة تقع على مسافة 250 ميلاً إلى الشمال الشرقي من مكة. وهجرة المسلمين إليها في العام 622 تُؤرخ لبداية العصر الإسلامي. وتحتوي آيات القرآن التي تعود زمنياً إلى حقبة المدينة، حين كان محمد بمثابة الحاكم الفعلي فيها، على شطر من العادة التشريعية، كأحكام الزواج والميراث، التي سوف تُشكّل لاحقاً ما يُعرف بالقانون أو الشرع الإسلامي.

وبعد سلسلة من الحملات والغزوات ضد الكُفّين، خرج المسلمون ظافرين. وفي السنة الأخيرة من حياته، رجع محمد مظفراً إلى مكة، حيث أعلنت القبائل عن خضوعها له واستنابها لأمره على امتداد طريق العودة. وقد قام بإصلاح شتات الحج القديمة، فخرج منها جوانبها الوثنية وأعاد توجيهها نحو ما آمن بأنه التوحيد الإبراهيمي الأصلي. وبعد تنظيم بضعة حملات إضافية، عاد محمد إلى المدينة، حيث وافته المنية بعد مرضٍ قصير ألم به في العام 632.



الإسلام اسم مشتق من الفعل العربي «أسلم»، أي سَلِمَ العره نفسه واستسلم. واسم الفاعل «مسلم»، يعني، أولاً وأساساً، تسليم الإنسان أمره لله كما تجلّى في تعاليم الرسول محمد (ن 570-632). هذا ويؤمن المسلمون بأن محمداً قد تبليغ الوحي الإلهي بحذافيره متجسّماً في القرآن، هذا الكتاب الذي ينظر إليه المسلمون على أنه

يُعدّ تصوير النبي محمد في رسوم من العرصات. لكن جرى تداول صور المآثر البطولية لعمه حمزة والمهجرين إظهاراً لأولى المعارك الملحمية التي خاضها المسلمون. هذا الرسم من العهد (حوالي 1561-1578)، وأحد من سلسلة تصامير كبيرة الحجم كانت تُعرض على الجمهور أثناء سرد وقائع تلك القصص الملحمية

توسُّع الإسلام حتى عام 750



تركزت وفاة الرسول محمد جماعة المسلمين من دون أي قائد ببنّ، فكان أن اقتار عدد من الزعماء واحداً من أقدم أصحابه، هو أبو بكر الصديق (ح 632-634)، ليكون أول خليفة له. وخلال فترة حكمه وحكم خليفه عمر بن الخطاب (634-644)، أعيد توحيد القبائل التي ارتدت بعد صوت الرسول، وتحوّلت تحت راية الإسلام إلى قوة عسكرية وأيديولوجية جبّارة. اندفع المسلمون خارجيين من الجزيرة العربية، ففتحوا نصف الولايات البيزنطية، وهزموا جيوش فارس الساسانية. سقطت المدائن، عاصمة الفرس، في العام 736، والقدس في العام 638. وفي فترة حكم عثمان بن عفان، خلف عمر بن الخطاب، دانت مصر بكاملها لسيطرة المسلمين العرب، وكان ذلك بحلول عام 648. اقتصى العرب السفن من مصر وسورية، وبواسطتها أخذوا يشقون غارات بحرية، فانتزعوا قبرص في العام 648، ونهبوا رودس في العام 654. وعملت الفوارق والعلاقات المذهبية بين الحكّام البيزنطيين وبرعاياهم في مصر وسورية على تسهيل الأمر للمسلمين، فقبولوا باللامبالاة، إن لم تقل بالترحاب، من جانب من يُشاطرهم الإيمان بإله واحد، الذين زادتهم عقود من الحكم البيزنطي الغريب عنهم شعوراً بالسخط والمرارة غير أن الحوامل الدنيوية كانت مهمة هي الأخرى فالحافز المحرك للعرب كان الرغبة في المغنم، فضلاً عن الإيمان الديني. في الماضي، كان المغيرون من العدو يكتفون بالتهب أو يسيطرون على الأرض، إنما ليقتربوا

قبة الصخرة في القدس، بناها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في العام 692-691. وتعتبر أكبر صرح شُيّد بعد الفتح العربي يزدان المبنى بأيات قرآنية تتحدث عن وحدانية الله، وهو يكتنف الصخرة التي يُعتقد أن النبي قد خرج منها في «إسراة» الإعجازي إلى السماء





انتشار الإسلام 751 - 1700

بموجبها لليهود والنصارى بالبقاء على دينهم إذا ما أتوا الجزية، كفل الخلفاء لجميع الشعوب من أهل الكتاب (بين فيهم الزرادشتيون) الحق في ممارسة شعائهم الدينية شريطة أن يدفعوا الجزية، وهي كناية عن ضريبة تُسَدَّد لقاء الإعفاء من الخدمة العسكرية. في البدء، بقي الإسلام ديناً للعرب، ورمزاً للوحدة وشارة للقبيلة. وحين اعتنق الناس الإسلام، طُلب من المهتدين الجُدد أن يكونوا موالى (أي وكلاء) للقبائل العربية، وبما يفترض معه احتفاظ العرب بالدور المهيمن.

بيد أن عوامل كثيرة شجعت الناس على الدخول في الإسلام بُعيد الفتوحات الأولى. فبالنسبة لأولئك المسيحيين الذين أرهقهم قرون طويلة من المشاحنات اللاهوتية المتضاربة حول التوازن الدقيق بين طبيعتي المسيح الإلهية والبشرية، جاء الإسلام حاملاً إليهم رحابة صدر دين يتبوأ فيه المسيح مكانة مشرفة بوصفه بشراً بمحمد. كذلك الأمر بالنسبة لليهود، فقد بدا الإسلام لهم كإيمان مقوم بديانة إبراهيم وموسى. وحتى الزرادشتيون الذين جردوا من أي دعم رسمي لديانتهم عقب الفتح العربي للأمبراطورية الساسانية، وجدوا في الإسلام ديناً مثل دينهم، يقيم وزناً لمسؤولية الفرد الأخلاقية؛ ولاحقاً في فكرة المهدى الشيعة، مفهوماً شبيهاً بحقيقة «الساوشانت» في الأخويات الزرادشتية. تميزت الأفكار المسيحية (المخلصية) بجاذبية عامة، وهي منبئة في جميع التعامل الدينية تقريباً. في أعقاب الفتوحات الإسلامية للهند، صار «الإمام المنتظر» بحسب الأخويات الشيعية يتخاضع في بعض الأحيان مع التجسد المرتقب للإله فيشنو. وفي المواضع، ساهم المهتدون إلى الإسلام من الديانات الأقدم عهداً في نزح الصيغة القبلية عن دين العرب من خلال تأكيد حقهم كمسلمين، والتشديد على عالمية رسالته، وكذلك من خلال التنويه بوظيفته كمشرع في إرساء النظام الاجتماعي الجديد وأشكال السلطة السياسية الجديدة، ولعل البساطة التي تسم عملية اعتناق الإسلام (النطق

لقد توسع الإسلام بالفتح والهداية معاً. وإذا قيل أحياناً إن الدين الإسلامي انتشر بحد السيف، فليس معنى ذلك أن الاثنين متطابقان. يقول القرآن ويصوره لا ليس فيها: ﴿لا إكراه في الدين﴾ [البقرة، 852] واقتاده بالسابقة التي أرساها الرسول، والتي سمح

برج الجامع الكبير في القيروان بتونس. يعود بناء هذا المسجد إلى القرن التاسع الميلادي، وقد بُني في نفس موقع مدينة قرطاجة القديمة. وتصميمه الهندسي المتميز بثلاثة أبراج يعلو واحدها الآخر مقتبس من وظيفة المئذنة وأبراج المراقبة في العصور الكلاسيكية



جهراً بالشهادتين أمام شهود عدول ليس إلا) كانت تتفاير مغايرة صارخة لصالحها مع الإجراءات الشديدة التعقيد لاعتناق الديانات الغامضة. ففي إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى، أمكن «أسلمة» الأرواح المحلية بسهولة عن طريق دمجها في المحشر القرآني من الملائكة والجان والشياطين. كما أمكن لعبادة الأسلاف، هي الأخرى، أن تكيف نفسها بواسطة تطعيم مجموعات القرابة المحلية بأنساب روحية، عربية أو صوفية.

لكن كان هناك أيضاً المزيد من الاعتبارات النبوية وراء العديد من عمليات الدخول في الإسلام. فأحكام الزواج الإسلامية ترجح الكفة لصالح دين الإسلام قطعاً، ذلك أن امرأة من أهل الذمة غير مكزمة حين تتزوج من مسلم أن تغير دينها، والعكس غير صحيح. إذ من المفترض أن ينشأ الأولاد على دين الإسلام، وفي ذلك ما يضمن أسلمة الأجيال القادمة. وقد كان لهذه الميزة الديمغرافية شأن كبير في مجتمعات جرت العادة فيها أن يتزوج المتصورون من نساء القبائل المهزومة. وبصورة أكثر عمومية، كان هنالك ذلك الميل الطبيعي لدى أناس يحرصون بالنباهة والطموح إلى الالتحاق بصنف النخب الحاكمة. ففي المجتمع الإسلامي المتطور في الحواضر، كمدن إيران والعراق مثلاً، صارت معرفة الشريعة والأحاديث النبوية، إلى جانب تحصيل العلوم غير الدينية كالأدب والفلك والفلسفة والطب والرياضيات، بمثابة علامة فارقة على الطبقات الشريفة (الأرستقراطية). لكن التأسلم بدافع من الطموح الاجتماعي ينبغي ألا يوصم بوصمة الانتهازية البحتة. فالعالم الإسلامي في أوج ازدهاره في العصور الكلاسيكية، كان المجتمع الأرقى تطوراً والأرفع ثقافة خارج الصين. لذلك كان أمراً طبيعياً أن تكون للحضال المدنية، من رصانة ونظام وترتيب وغيرها، جاذبيتها الخاصة بمعزل عن النشاط التبشيري الواعي. فالقاطنون عند أطراف المناطق التي تشكل قلب الإسلام، سوف يطالعهم الدين الإسلامي بأشكال ومظاهر شتى: تجار متعلمون مثقفون؛ معلمون

ودارسون متجولون؛ دراويش صمدانيون؛ أمراء أروميون مصاطون يبطانات تطلب الألباب؛ مثقفون ودعاة مذاهب سرية متذللون يعرفون كيف يكفون عقائدهم وطقوسهم بحيث تناسب جمهوراً تتباين خلفياته الثقافية أشد التباين. وربما لافتقاره إلى برنامج تبشيري موجه توجيهاً مركزياً، أثبت الإسلام أنه أكثر ما يكون قدرة على الانتشار بصورة عضوية.

هذه الصفحة من القرآن المرقونة بالخط المحقق، أنجزت في بغداد عام 1306، ويتم فيها الكبر عن كونها نسخة موهوبة كي يستخدمها عموم المصلين في المسجد





السُّنة، والشَّيْعة، والخوارج 660 - ن 1000

صبيحة معتدلة تُعرف بـ «الإباهنية». وقد ثار أحد زعماء الخوارج، ويدعى ابن ملجم، لرفاقه بأن اغتال علياً عام 661. فتوصل الحسن، أكبر أبنائه سنّاً، إلى تسوية مع معاوية المنتصر، الذي أضفى بذلك أول خليفة أموي. وعند وفاة معاوية في العام 680، ووراثته ابنه يزيد الحكم، قام الحسين، الابن الأصغر لعلي، بمحاولة لاسترجاع الخلافة وإعادة ثابته إلى ذرية النبي الأقرين. لكن المذبحة التي أودت بحياة الحسين ونفر من أتباعه في كربلاء في العام 680 على أيدي جنود يزيد، ولدت موجة من الندم والثوب بين أتباع علي في العراق [حركة التَّوَابِين] وصاروا هؤلاء يُعرفون منذئذ بـ «الشَّيْعة»، أي شيعة علي.

الانقسامات الرئيسية في الإسلام، المتصورة أساساً على مسألة الزعامة، ترجع زمنياً إلى وفاة الرسول محمد، إلا أنها اشتركت وتفاقت مع أولى الحروب الأهلية (656-661)، وتدايعياتها في الجيل التالي (680-681). كان الخليفة الأول، أبو بكر، واحداً من أقدم صحابة الرسول ووالد أصغر زوجاته سنّاً، عائشة. وقد اختار عند وفاة الرسول بدعم قوي من عمر، وكان من أوائل المهتدين إلى الإسلام ويحمل على كل مزايا القائد بالقطرة. وحين حضرت الوفاة أبا بكر، لقيت خلافة عمر قبولاً عاماً. وخلال فترة حكمه التي دامت عشر سنوات، أخذت الدولة الإسلامية بالتشكل. كذلك بدأت تظهر في عهده التوترات والمنازعات الناجمة عن الفترحات، وذلك حول تقاسم الغنائم ومكانة زعماء القبائل في النظام الإسلامي الجديد. وقد بقي هذا التوتر تحت السيطرة بفعل حكم عمر الذي اتسم بالصرامة والطهرانية، إلا أنه لن يلبث أن يتفجر على نحو فاجع إبّان عهد خلفه، عثمان، الذي اغتيل في المدينة على أيدي مقاتلين ساهطين عاندين من مصر والعراق. فبالرغم مما عُرف عن عثمان من القزم شديد بالدين الجديد، وهو الذي كان من أوائل الداخلين فيه، لطالما ارتبط اسمه بمشيرة بني أمية في مكة، التي عارضت في الأصل رسالة محمد. فقد اتهم بمحاباة أبناء عشيرته على حساب مسلمين أكثر تقوى وصلحاء منهم. وقد تكوّن هؤلاء حول علي بن أبي طالب، ابن عم الرسول وأقرب أنسابه الذكور من الأحياء، الذي رأى بعض أتباعه أنه الشخص المختار أصلاً لخلافة الرسول، والذي تبوأ الآن سدة الخلافة فعلاً. غير أن إغفاق علي في معاتبة قتلة عثمان حمل الثمن من أقرب صحابة النبي محمد، وهما طلحة والزبير، على شق عصا الطاعة بدعم من عائشة، ولئن هزم عليّ هذين الرجلين، إلا أنه لم يتمكن من التغلب على نسيب عثمان، معاوية بن أبي سفيان، والي بلاد الشام، في معركة صفين. وقراره الأخير بالسمي إلى إجراء تسوية مع معاوية، أثار تمرداً في صفوف أشد أنصاره تنقداً وكفاحية. أولئك الذين عرفوا فيما بعد باسم «الخوارج». صحيح أن علياً أنزل هزيمة ذكروا بالخوارج في تموز/يوليو 658، إلا أنه كتب اليقاع لعدد كبير منهم لمواصلة الحركة إلى يومنا هذا، وإن في

لطالما أبدى أباطرة الدول وديّهم عبادة ثابتة بتاريخ دينهم وحكمتهم، وقد تجلّى ذلك في مذكراتهم ورسومهم على السواء بحلول منتصف القرن السابع عشر، كان الفنانون التابعون للأمويين طموحاً جاهلاً تمرد طرّوا تصميمات تصويرية يظهر فيها حكامهم أو ولّاهم على الأقل وقد اقتعدوا بساطاً يتناقشون فيما بينهم. لم يتورع فنّانو العقيدة المغوية عن تصوير أوليائهم الخرافيين من الماضي كما لو أنهم بعد أحياء. الشخصيات البارزة في هذا الرسم تمثل الاتجاه السلفي، وجهه الدرويش حارس الرأس إلى يسار الصورة يمثل الخروج عن «الخط المألوف».



الخلافة العباسية في ظل هارون الرشيد

على البيزنطيين (الروم)، أجبرتهم على البقاء في وضع دفاعي حرج. لدى تويته سنة الخلافة في العام 786، أقام هارون علاقات دبلوماسية مع شارلمان (ح 742-814) ومع أمبراطور الروم. كما أنشأ صلات دبلوماسية وتجارية مع الصين.

كثيراً ما يُشار إلى حكم هارون الرشيد على أنه «العصر الذهبي»: أي حقبة من النشاط الثقافي والأدبي الفائقة الأهمية، ازدهرت خلالها الفنون،

والنحو العربي، والآداب والموسيقى بفضل رعايته لها. هذا ويبرز الرشيد كأجل ما يكون الروع في العمل الأدبي الشهير: «ألف ليلة وليلة». ومن بين جلسائه وسُفّارَه، نذكر الشاعر أبا نواس (ت 815)، الذي عُرف بغمرياته وغزلياته، والموسيقي إبراهيم الموصلي (ت 804). وكان أبو الحسن الكشائي (ت 805)، معلم الرشيد ومؤدّب أولاده، وصحفاً مرموقاً بين النخبة العرب ومقرّبي القرآن في عهده. وفي عهده أيضاً، نُقلت بعض النصوص الكلاسيكية من اليونانية والصربية إلى العربية.

وغيرهما إلى العربية. واشتهر هارون بهباته السخية فكانت قصيدة مُحكمة النظم قديمة بأن تُكسب صاحبها قرصاً، أو صُرّة ذهب أو حتى عزة بحالها. كذلك عُرفت زوجته زبيدة بعمل البر وصنع الخير، ولاسيما ووقها وراء حفر عدد كبير من آبار



ثمة إجماع على أن فترة حكم الخليفة هارون الرشيد (ن 764-809) تُمثل ذروة الفتوحات العسكرية والتوسّعات الإقليمية في ظل الدولة العباسية، حيث امتدت الخلافة من حدود الهند وآسيا الوسطى إلى مصر وشمال إفريقيا

برز هارون الرشيد من خلال ارتقائه الصفوف كقائد عسكري قبل تسلّمه مقاليد الخلافة من أخيه المغفور، الهادي (ح 785-786)، كما عمل والياً على عدد من الأمصار، منها إفريقية (تونس حالياً)، ومصر، وسورية، وأرمينيا، وأذربيجان. وحمالاته العسكرية

صورة تُمثّل هارون الرشيد بعلف عليها الطابع الروماني للقرن التاسع عشر، ويظهر في خلفية الرسم مسجد على الطراز العثماني كان إحياء الخلافة الإسلامية من جانب سلاطين بني عثمان خطوة يراود منها توريثهم حق رعاية المسلمين في البلدان الأوروبية، وذلك لموازنة الحقوق المزعمة من طرف هذه الأخيرة على رعايا السلطان من المسيحيين



| |
|--------------------------------|
| الدولة العباسية حوالي 850 |
| امتداد الدولة العباسية 800-786 |
| سلالات إسلامية أخرى |
| انتشار الإسلام 800-750 |
| الإمبراطورية البيزنطية |
| صلاوات حربية عباسية |
| هجمات بحرية إسلامية |
| تحتل الصليبيين |
| توسيع الخلافة |

قضاؤه على آل المومكي المتفقدون، أفضى إلى فترة سادها التدهور السياسي والإقليمي، إلا أن قرار الرشيد بتقسيم الإمبراطورية بين ولديه الأمين والمأمون واختياره أكبرهما سناً، الأمين، ليخلفه على العرش (ح 809-813)، أسهم في نشوب حرب أهلية دامت سنتين، تلتها فترات من الاضطراب المتواصل والعصيان المسلح. هذا ولحق عرف عهد المأمون (ح 813-833) تألقاً فكرياً مثمراً للإعجاب، إلا أنه شهد مع ذلك تدهوراً على صعيد الامتداد الإقليمي، فضلاً عن انحصار دائرة النفوذ العباسي.

المياه على طريق الحج من العراق إلى المدينة. كذلك شهدت حركة التصوف الإسلامي ازدهاراً كبيراً في عهد الخليفة هارون الرشيد. فكان الزاهد والمتصوف الشهير، معروف الكرخي (ت ن 815)، من بين أبرز الشارحين للصوفية في بغداد. على النقيض من ذلك، انتهج هارون الرشيد سياسة التضييق على الشيعة، الذين دأبوا بتحذون سلطانه على أرجح الظن. اتسم النصف الأخير من حكم الرشيد بالقلقل وعدم الاستقرار السياسي. ففتح والي إفريقية، إبراهيم بن الأغلب، حكماً شبه ذاتي في العام 800، وكذلك



انتشار الإسلام، والشرع الإسلامي، والملفة العربية

الأدبية نفسها. وفي حين سيطرت العربية على اللهجات المحلية في الولايات الغربية، ظلت الفارسية قيد التداول في الولايات الشرقية، وقد شهدت هذه الأخيرة نهضة أدبية كبرى في القرنين العاشر الميلادي بظهور لغة جديدة هي مزيج من العربية والفارسية، ما لبثت أن سادت إيران بأسرها، فضلاً عن بلاد ما وراء النهر وشمال الهند.

وثمة موضوع ظل يطرح نفسه المرة تلو الأخرى في تلك الحقبة التكوينية من الفكر الإسلامي، وأعني به العلاقة ما بين الوحي والعقل، التي غالباً ما اتسمت بالحدّة والتشنج. في عهد الخليفة العباسي المأمون (ح 813-833)، خرجت إلى حيز الوجود مجموعة من المتكلمين (علماء العقائد) عُرفوا بـ«المعتزلة»، كانوا قد تشبّعوا بأعمال الفلاسفة الإغريق وتجنّبوا الأسلوب العقلاني في الجدل والحجاج الذي يُساري ما بين الله والعقل المحض. بالنسبة للمعتزلة، العالم الذي خلقه الله إنما يسير وفق المبادئ العقلية التي يستطيع البشر إدراكها عن طريق أعمال العقل. وحيث إن البشر كانتات حرة، فهم مسؤولون أدبياً عن أعمالهم. ولما كان للخير والشر كليهما قيمة جوهرية، فإن العدالة الإلهية محكومة بنواميس عامة. كونه كان المعتزلة من أصحاب الرأي القائل إن القرآن «مطلوق» في الزمن، وقد أوحى به الله لمحمد، لأنه لیس جزءاً من جوهره. أما خصومهم من «علماء الحديث»، فكانوا يُصوِّرون على أن القرآن «غير مطلوق»، بل هو أزلي تماماً مثل أزلية الله نفسه. كما كانوا يرون أن ليس من شيمة الإنسان أن يشك في مشيئة الله أو يتحرّرها بصورة عقلانية، بل إن أعمال الإنسان كافة محكومة بالقضاء والقدر في النهاية. والنظرة المعتزلية هذه، التي زادت بها «المحنة» (محنة خلق القرآن) قوة على قوة، فرضت نفسها فترة من الزمن. غير أنها ما لبثت أن تراجع في عهد الخليفة المتوكل (ح 847-861)، بفضل الضغوط الشعبية المتركة على الشخصية البطولية لأحمد بن حنبل (ت 855)، الذي تحمل كل صنوف السجن والتعذيب دفاعاً عن الرأي القائل بلا مخلوقية القرآن. وقد أمكن التوصل إلى حل وسط بين

عمل الانتشار السريع للإسلام بمثابة قوة تغييرية هائلة في العالم القديم. فما إن انتهى عهد عمر بن الخطاب (ت 644)، حتى كانت الجزيرة العربية بأكملها قد تمّت فتحها، ومعها معظم أراضي الأمبراطورية الساسانية، علاوة على الأقاليم السورية والمصرية من الأمبراطورية البيزنطية. وفي أعقاب موقعة كربلاء المأساوية، التي انتهت بمقتل الإمام الحسين (680)، بدأت مرحلة جديدة بقيام الأمبراطورية الأموية (681-750)، التي امتد سلطانها في نهاية الأمر من نهر إبرو في إسبانيا إلى نهر أوكسوس (جيسون) في آسيا الوسطى. وازبطت على هذا النحو سلطتها الشاملة على بلاد مترامية الأطراف، اتخذت السلالة الأموية من دمشق عاصمة لها، وبقيت عالياً من دون أي تحدٍ لسلطانها إلى حين صعود الخلافة العباسية وعاصمتها بغداد (749-1258). وفي حين بقيت إسبانيا (الأندلس) تحت الحكم الأموي (756-1031)، قامت قوى إقليمية جديدة بالتصدي للهجمة العباسية، كالفاطميين في مصر (909-1171)، والسلاجقة في إيران والعراق (1038-1194). وقد توافقت كل ذلك مع موجات من الغزاة الصليبيين خربت الشرق.

لقد ازدهرت مدارس وتيارات عديدة في الفكر، مثل مذاهب الاجتهاد السنية (الحنفي، والمالكي، والشافعي، والنبلي)، والمذهب الشيعي «الإثني عشري» المتحدّر من إمامة علي (ت 661). كذلك طبع فوران النشاط الفكري ظهور تياراتي المعتزلة والأشعرية في مناهج «علم الكلام»، ونضج الفلسفة والعلم والتصوُّف. وقد تأسست العديد من مراكز التعليم المرموقة، واقتزنت بإنتاج غزير للمخطوطات، نذكر منها: الأزهر في القاهرة، والزيتونة في تونس، والقرويين في فاس، وحلقات قرطبة في الأندلس، وحوزات النجف وكربلاء في العراق، وحوزات قم ومشهد في إيران.

وبوصفها لغة القرآن، انتقلت العربية إلى المتألمسين الجدد، وبصيرورتها اللغة المشتركة للإسلام القروسطي، تجلّت أوجه تفرّقاتها في سائر حقول الثقافة العالية، من المجال الديني إلى القانوني، ومن المجال الديواني إلى الفكري، وصولاً إلى الأساليب



الوحي والعقل في أعمال أبي
الحسن الأشعري (ت 835)، الذي
كان يلجأ إلى استخدام طرائق
عقلية دفاعاً عن فكرة عدم خلق
القرآن، ويقبل بقدر معين من
مسؤولية البشر عن أفعالهم. بيد
أن هزيمة المعتزلة كانت لها
ثبوت بعيدة المدى؛ فقد بطل بعد
الآن أن يكون الخلفاء أصحاب
الكلمة الفصل في أمور العقيدة.
واعتنق التيار السائد في علم
الكلام السني نظرية الأمر على
صعيد الأخلاق: أي أن عملاً ما
يكون صائباً لأن الله أمر به؛
والله لا يأمر به فقط لأنه صائب.
والمعتزلية اصطلاحاً دال على
الفساد والاعتساف في نظر الكثر
من الإسلاميين المحافظين،
ولاسيما في المملكة العربية
السعودية، ممن يأخذون
بالمذهب الحنفي في الشرع.

صحن الجامع الأزهر في القاهرة
أسسه الفاطميون الشيعة عام 970م،
لكنه صار فيما بعد أهم مركز
لدراسات الفقهية السنية وينوعاً
غزيراً للمخطوطات

الدول الوريثة إلى العام 1100

إدريس الثاني مدينة فاس في العام 808. وفي إفريقية (تونس حالياً)، قام أحفاد إبراهيم بن الأغلب، عامل هارون الرشيد الذي مُنح حكماً ذاتياً على البلاد التي يتولاها لقاء دفع أتاوة سنوية، بتأسيس سلالة حاكمة [الأغالبة] دام عهدها حتى عام 909. والخوارج



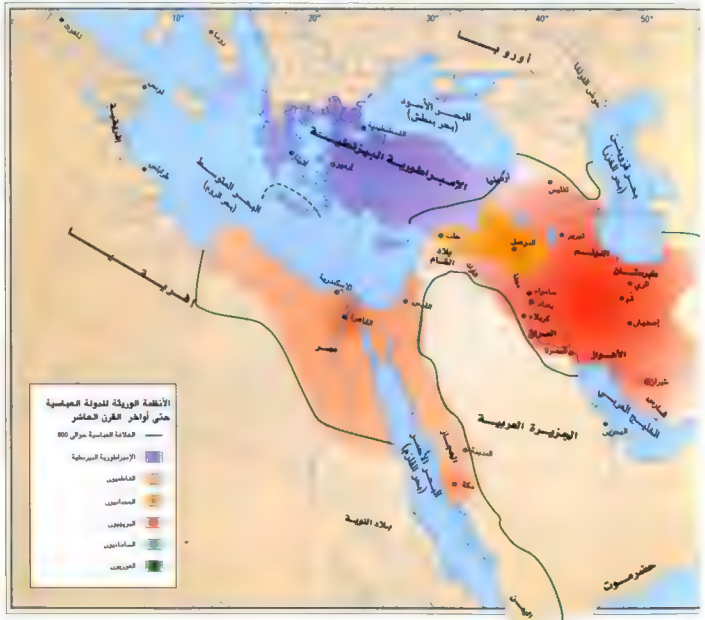
هذا التمثال من الصلصال يبين بجلاء القسامة الجسمانية التي لفتت أنظار المعلقين العرب والفرس بوصفها السامع النموذجية للجنود الأتراك الذين يبتدعهم الخلفاء في جديدهم

لم يمتد لدولة العباسية، حتى وهي في أقصى امتدادها، أن تضم العالم الإسلامي برمته. ففي إسبانيا، تأسست سلالة حاكمة مستقلة على يد ناج من بني أمية هو عبد الرحمن الأول (ح 756-788). كان عبد الرحمن هذا حفيداً للخليفة هشام بن عبد الملك، وقد أفلت من مذبحه أودت بذويه وأقاربه، وتمكن بعد مغامرات شتى من أن يجد طريقه إلى شبه الجزيرة الإيبيرية. هنا أفتق العرب والبربر المتخاصمين بأن يقبلوا به زعيماً بدلاً من الوالي المعين عليهم من قبل العباسيين. وإلى ما يُعرف بالمغرب حالياً، وصل أحد المتحدرين من نسل علي وفاطمة، ويدعى إدريس بن عبد الله، بعد فراره من الجزيرة العربية إثر فشل ثورة شيعية في العام 788، وحل في العاصمة الرومانية القديمة، فولفيليس. هنا شكل إدريس اتحاداً قبلياً سرعان ما استولى على جنوب المغرب. أنشأ ولده

والأمان الذي يتمتع به الجميع في الأتس والممتلكات جميعاً.

غير أن التوترات السياسية والدينية كانت ما فتئت مستفحلة في عقر دار الأبراطورية. فالنزاع على الخلافة بين ولدي هارون الرشيد، الأمين والمأمون، انفجر احتراقاً أهلياً دام قرابة عقر من الزمن، مما فت في عضد الجيوش العباسية وأوهن مؤسسة الخلافة

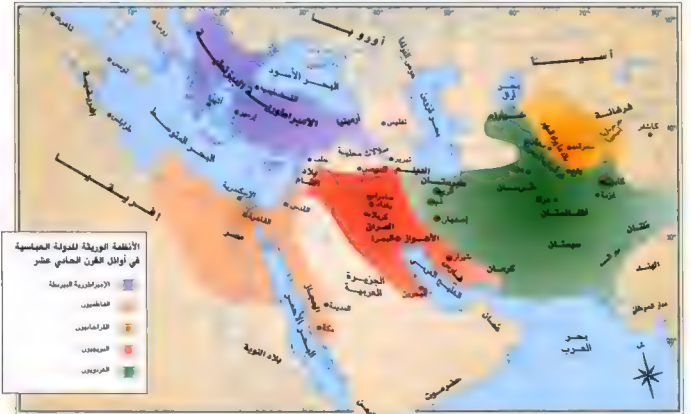
المتزمتون، المعتصمون بمبدأ انتخاب الإمام أو الخليفة، أقاموا لأنفسهم دويلات مستقلة في كل من واحة ورجلة وتاهرت وسجلماسة. وعن مدينة تاهرت التي دمرها الفاطميون في القرن العاشر، كتب الإخباري ابن الصقر يقول: «ما من غريب توقف فيها إلا واستوطنها وبني فيها، مأخوذاً بالحبوحة الضافية عليها، وعدل إمامها، وحفايته تجاه البرية،



على بناء طبقة من ملاك الأراضي على حساب الحكومة المركزية. وفي إيران والولايات الشرقية، أقام طاهر [بن الحسين بن مصعب]، أكفأ قواد السامون العسكريين على الإطلاق، حكماً وراثياً. وبغية التصدي لقوة الطامعين، عوّل خلف السامون، الخليفة المعتمد، وبشكل متزايد على المرتزقة المجندين من القبائل الناطقة بالتوركية في آسيا الوسطى - هذه الممارسة التي عجّلت بتفكك الدولة العباسية وظهور سلالات قبلية حاكمة بحكم الأمر الواقع. ولعلّ بناء عاصمة جديدة للدولة في سامراء زاد في عزلة الخليفة عن رعاياه. ولم تحل نهاية القرن العاشر إلّا وكان الخلفاء العباسيون ملوكاً بالاسم فقط، يتحدّى شرعيتهم مطالبون بالحكم لذرية عليّ. وأشدّ هؤلاء تطرفاً وجذريةً، وهم القرامطة، لم يألوا جهداً في إنكسار نار الثورات الفلاحية والبدوية في العراق وبلاد الشام

نفسها. ولئن كسب السامون الحرب، إلّا أنّ محاولته فرض عقيدة المعتزلة الغائلة بـ «خلق» القرآن، واجهت مقاومة عنيفة من جانب العلماء الشعبيين المتحلقين حول أحمد بن حنبل. في عُرف هذا الأخير، الذي كان يؤمن بأن النصّ الإلهي «غير مطوق»، لا يل ويتّصف بـ «القديم»، من شأن العقيدة القائلة بعكس ذلك أن تنقص من فكرة أن القرآن كلام الله. لذلك كان ابن حنبل وأتباعه ينظرون إلى القرآن والحديث على أنهما المصدر الوحيد للسلطة الدينية، وهم دون سواهم المؤهلون لتأويلهما. أما الخليفة، فهو في نظرم مجرد منفذ لإرادة الجماعة وليس مصدرًا لإيمانها.

ومثلما ضعفت سلطة الخليفة الدينية، كذلك تراخت قبضته السياسية والاقتصادية. ففي المناطق الزراعية كالعراق، عمل نظام الإقطاع (أو الزراعة الخراجية)



ممتلكاتهم مع قبيلة الكراكلة التركية بزعمارة السُلالة القرخانية، وقد بذل محمود قصاره لحصرها في حوض نهر جيحون في الشمال. كذلك عبر محمود نهر السند حيث أرسى لنفسه حكماً دائماً في البنجاب، وراح يشن غارات على شمال غربي الهند، ناهباً المدن ومُحطماً العديد من الآثار الفنية بحجة أنها «وثنية». وهذا ما أكسبه سمعة مخيفة كغزاة للكفار. وعلى جبهته الغربية، في أراضي «الإسلام القديم»، دحر محمود البوهيين حتى تخوم العراق تقريباً.



محمود الغزنوي [يمين الدولة] يعبر نهر الغانج حطى الغزنويين، وكانوا ولاية عسكريين أنراكا، بشهرة خانة في الأزمنة المتأخرة باعتبارهم أول من أدخل سلطان المسلمين إلى الهند. الرسم مأخوذ من «جامع التواريخ» للوزير رشيد الدين، المصنف في مطلع القرن الرابع عشر ميلادي

والجزيرة العربية باسم «مخلص» يتحدث من نسل علي عبر سلالة إسماعيل بن جعفر. وفي عشرينيات القرن العاشر الميلادي، أصاب القرامطة الذين خلقوا دولة مستقلة لهم في البحرين، العالم الإسلامي كله بالصدمة والذهول عندما نهبوا مكة ونقلوا معهم «الحجر الأسود». وفي عام 990، انتزعت مصر، وكانت شبه مستقلة تحت حكم ابن طولون وخلفائه الأخشيديين، من جانب الفاطميين الإسماعيليين الذين أقاموا خلافة يتولأها «إمام حي» من نسل علي وإسماعيل. وفي شمال سورية وأعلى نهر دجلة، حكمت أسرة بني حمدان العربية البدوية - وكانت هي الأخرى من الشيعة - دولة شبه مستقلة، وفي بعض الأحيان مستقلة بالقصام. وفي خراسان وبلاد ما وراء النهر، حلّ السامانيون محل الطاهريين كمدافعين عن الثقافة العالية العربية - الفارسية في وجه القبائل البدوية المتكاثرة، وحتى في قلب الأمبراطورية نفسها، أي في العراق وغرب إيران، كان الخلفاء العباسيون سجناء فعليين للبوهيين الشيعة، وهم عشيرة محاربة من الديلم كانت تستوطن جنوبي بحر قزوين.

وفي آسيا الداخلية، حيث أسس السامانيون عاصمة مزدهرة في بخارى، أفسد اعتناق القبائل الناطقة بالتوركية الإسلام على السامانيين دورهم كفراة. كان هؤلاء محاربين أشداء عهد إليهم بالدفاع عن حدود الإسلام من تعدييات البدو الرحّل. لكن تجنيد المحاربين بالاسترقاق، المعروفين بالمعاليك أو الغلمان، من سكان المناطق الجبلية أو القاحلة، عجزل في تفكك أوصال الأمبراطورية. وحينما تداعت السلطة في المركز، تنطج المعاليك إلى إنشاء «سلالاتهم الرقبة» الخاصة بهم. وهكذا شرع

الغزنويون - الذين حلوا محل سادتهم السامانيين السابقيين في خراسان - بالعمل جتوداً مسترقين في منطقة غزنة الحدودية إلى الجنوب من كابول. وحين انهار حكم السامانيين عام 999، قام محمود الغزنوي (ح 998-1030)، وهو ابن والرمن الأرقاء، بتقاسم

العصر السلجوقي

اليهوديين عام 1055، آلت بغداد إليهم، حيث قام الخليفة العباسي بتتويج زعيمهم مطغربك سلطاناً، اعترافاً منه بسلطته العليا. وفي مقابل هذا الاعتراف

بالرغم من كل التحديثات التي واجهت سلطة الخلفاء العباسيين وفقدانهم المنعة العسكرية والسلطان السياسي الفعّال، إلا أنهم احتفظوا بهيئة كبيرة واعتبار لا يستهان به في أعين معظم أهل الأمصار والعديد من القبائل باعتبارهم الورثة الشرعيين للنبى محمد ورأس جماعة المسلمين. لقد ساعد تقسيم العالم إلى «دار الإسلام» و«دار الحرب» على انتشار الإسلام وتوسعه في اتجاهين، اتجاه طارد بعيداً عن المركز، وآخر جاذب نحو المركز. حين كانت القبائل تتقبل الإسلام من خلال احتكاكها بالتجار والعلماء المسلمين أو بالمتصوفة الجوالين، كان الخلفاء يميلون إلى إضفاء الشرعية على حكمها، فيعينون زعماءها ولاية على مناطقهم. والدخول في الإسلام عمل على تمدين الأقوام البدوية والرعيّة بإخضاعها شكلياً - وإن ليس دائماً في الممارسة - للشرعية، مما قلص الفجوة الثقافية بين سكّان البوادي والسهوب من جهة، وسكّان المدن والأمصار من جهة أخرى. وكم من مرّة صارت القبائل الداخلة حديثاً في الإسلام من كبار بناة ورعاة الثقافة العالية الإسلامية، مثقلة بالفن والعمارة والأدب. لكن الدخول في الإسلام صعب، في الوقت عينه، على الحكّام أن يدافعوا حتى عن قلب العالم الإسلامي في وجه غزوات وتعدّيات البدو الرُحّل، طالماً أن هؤلاء لم يعودوا بعد الآن في عداد الكفار، وبالتالي فقد الجهاد (أو «الحرب المقدسة») ضدهم كل أسياحه الموجبة.

وثمة مجموعتان من الشعوب الناطقة بالتوركية، وهما الأتراك الكراكلة والأتراك الغزّة (الغزّ)، أسستا دولتين كان لهما إسهامهما الكبير في هذه السيرة. ففي بلاد ما وراء النهر، قبلت السلالة القرخانية بالسلطة الصورية للخلفاء العباسيين، وأضحت راعية لثقافة تركية جديدة مستمدة جزئياً من النماذج العربية والفارسية. وبعد إنزال الأتراك الغزّة، بقيادة الأسرة السلجوقية، الهزيمة بالغزنويين، بسطوا سيطرتهم على خراسان، واضعين بذلك الحجر الأساس للإمبراطورية السلجوقية. وفي أعقاب دحرهم



في أعقاب التقدّم السريع الذي أحرزته السلالة داخل بلاد الأناضول، اتخذ هؤلاء من قونية (إيكونوم سابقاً) عاصمة لهم. هذه الدولة ذات الزخرفة المبدعة لمدرسة «إينجه مينار» دليلٌ واضحٌ على الثراء الاستثنائي للطراز السلجوقي في العمارة. والمئذنة الهائلة التي اشتقت منها المدرسة اسمها، تُمثّل جزئياً حين صرّفتها إحدى المصاوغ عام 1900

العام 1098. صحيح أن السلجقة استولوا على نصف بلاد الأناضول، مما أسس لقيام الحُكم التركي العثماني فيما بعد، إلا أن نظامهم السلطوي كان أكثر تشدداً من أن يحفظ وحدة الدولة، أو يحمي تخوم الإسلام من المزيد من غارات وانتهاكات البدو الرحّل.

الرسمي، وافق السلاطين السلجقة على التقيّد بأحكام الشرع الإسلامي والذود عن حياض الإسلام في وجه أعدائه الخارجيين. والهزيمة الفادحة التي أنزلها السلجقة بجيش الروم في ملازكرد عام 1071، شكّلت أحد العوامل المُفضية إلى أولى الحملات الصليبية في



التجديد العسكري 900 - 1800

كانت أم ثقافية أم لغوية أم تاريخية، بالشعوب التي يحكمونها، فقد رأينا المجتمع ينزع إلى التطور خارج نطاق سلطة الدولة ومسؤوليتها، ووجدنا العلماء (رجال الدين وقضاة الشرع) يتدمجون بالتجارات والبيوتات المتملكة ليتشكلوا معاً نخباً من الوجهاء والأعيان تتوقف الهيبة التي تتمتع بها على مدى تسلطها في المعارف الدينية. ولئن سمحت الظاهرة المملوكية بنشوء شكل من أشكال المجتمع المدني المنفصل عن الدولة العسكرية، إلا أنها عملت ضد بلورة نمط من الولاء المجتمعي، أو الروح الوطنية، كالذي سيجري لاحقاً في بلدان غرب أوروبا. وكنت تجد هذه الممارسة، أي تطويع المغويين البدو لحماية المجتمع

حصار تجنيد الجيوش من مناطق الأطراف، ولاسيما من أراضي السهوب في آسيا الداخلية والقوقاز والبلقان، من أبرز العلامات الفارقة لأنظمة الحكم الإسلامية حتى العصر الحديث. كان هؤلاء المقاتلة المعروفون بـ«المماليك»، يُشترون كعبيد أرقاء في النجود والسهوب، أو يُؤسسون من بين أفراد القبائل المهزومة. ولما كان يُؤتى بهم خصيصاً للانخراط في جيش السلطان الخاص أو للعمل في حراسة قصره، فقد كانوا يُلقنون مبادئ الدين الإسلامي وشيئا من الثقافة الإسلامية، ويتلقون تدريباً على فنون القتال. إلا أن إلصاق الصفة «أرقاء» بالمماليك (مثلاً نقول «مقاتلة أرقاء» أو «سلالات رقية»)، أمر مضلل إلى حد ما. فلئن كان المماليك والغلمان (الرقيق المنزلي) يُشترون ويباعون كمتاع شخصي، فإن مكانتهم الاجتماعية كانت تعكس مكانة أسبأدهم نفسها وليس وضعهم هم العبودي. ولدى إعتاقهم من نهر العبودية في نهاية المطاف، كان هؤلاء يُصبحون أحراراً، بل وكلاء لأسبأدهم السابقين، يتمتعون بكامل حقوقهم في التملك والزواج والأمن الشخصي، لا بل ويرتقي بعضهم إلى مصاف الأمراء.

بدأت هذه الظاهرة، أعني ظاهرة المماليك، مع الخلفاء العبّاسيين الذين أخذوا يجنّدون أبناء القبائل في بلاد ما وراء النهر وأرمينيا وشمال إفريقيا، كي يوازنوا بهم قوة الطاهريين. كما عمدوا إلى موازنة تلك القبائل بدورها بواسطة الغلمان الأتراك الذين كانوا يُشترون في أسواق النخاسة فرداً فرداً، قبل أن يُصار إلى تدريبهم وتطويعهم في كتائب ذات إمرة فردية. ولما كان هؤلاء الغلمان يقيمون داخل معسكرات منفصلة، لها مساجدها وأسواقها الخاصة، فقد كان لاوْهم لقادتهم أكثر منه للخليفة. وبعد سقوط الدولة العبّاسية في العام 945، تبنّى هذه السياسة حكام الأمر الواقع من ورثوا السلطة السياسية من العبّاسيين. فجميع الدول التي ظهرت في الشرق غداة العصر العبّاسي، أي البويهية والغزنوية والقراخانية والسلاجقية، إنما نشأت على أكتاف أقبليات عرقية، من بينهم مرتزقة جازاؤ من منطقة بحر قزوين، وقبائل تركية وبدوية أخرى أتت من آسيا الداخلية. ولما كان الأمراء العسكريون الجدد لا تربطهم أية رابطة عرقية



يقاوموا كل محاولات امتصاصهم داخل صفوف النخب الأصلية. وظلوا في الأغلب الأعم يشكلون شريحة أرستقراطية من جبل واحد، لا تجمعها أواصر القرى ببقية المجتمع المصري.

وقد تطور نظام الاسترقاق العسكري في اتجاه مختلف نوعاً ما في ظل العثمانيين. فاعتباراً من أواخر القرن الرابع عشر، بدأ السلاطين يوازنون قوة الخيالة السباهية في جيوشهم الخاصة، المجندين أساساً من إقطاعات النبلاء والأشراف أو المتطوعين كمرتزقة من عشائر البدو العربية والكردية والناطقة بالفارسية، بتشكيلات عسكرية من المشاة عرف أفرادها من العساكر الجدد بـ«الإنكشارية» المجندين غالباً من الولايات العثمانية المسيحية في البلقان. فكان

من بدو آخرين - وبمعنى آخر: تحويل الذئاب إلى كلاب رعيان» - قائمة في كل أرجاء العالم الإسلامي، من المغرب إلى وادي السند.

ونظام الاسترقاق العسكري هذا بلغ ذروة اكتماله في مصر، البلد الكثيف السكان من الفلاحين والمفتقر إلى أية طبقة عسكرية أصلية من صلبه. وقد تأسس هذا النظام في مصر بنجاح مطلق، حتى إن حكم المماليك دام ما يربو على قرنين ونصف القرن (1250-1517)، وعاد وظهر ثانية، وإن في شكل معطل، في ظل العثمانيين (1517-1811). وحيث إن المماليك المصريين كانوا يسدون النقص الحاصل في صفوفهم باستمرار من الخارج (بدايةً من الأتراك الكيبيتشاك ثم لاحقاً من الشركس في القوقاز)، فقد استطاعوا أن



التجنيد، المعروف بـ«الدشمره» (ضريبة الدم بالتركية)، يجري في القرى والساكن كل أربع سنوات مرة تقريباً. في حين كانت المدن والبلدات مغطاة من ذلك، لا اعتبارهم أبناء المدن والواضر متعلمين أكثر مما ينهي أو غير أشداء جسدياً بما فيه الكفاية. فكان يقع الاختيار على الفتيان ممن تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والثامنة عشرة (وإن أفادت بعض التقارير عن تجنيد صبوة دون الثامنة من عمرهم) ولما كان الرجال المتزوجون مستثنين من التجنيد، فقد كان الفلاحون الأرثوذكس يلجؤون في كثير من الأحيان إلى تزويج أولادهم وهم بعد صغار السن للتهرب من أخذهم إلى العسكرية. والفتيان الذين يتم انتقاؤهم من بين البقية (وتصل نسبتهم إلى 20 بالمئة)، كانوا يعطون هوية إسلامية ويدربون على فنون القتال، مع اشتهار أبوعهم وألمعهم لخدمة السلطان شخصياً. ومن موقعهم هذا، كثيراً ما كانوا يرتقون الصفوف ليقعدوا حكاماً للأمبراطورية نفسها. وإذا كان التجنيد الاسترقاقي قد توقف منذ أرمينية القرن السابع عشر، إلا أن ظامرة الإنكشارية لم تعرف الانحسار بفضل التحاق المزيد من الصبية المولودين مسلمين هذه المرة بصفوفهم. وبالنظر إلى ما كانوا يتمتعون به من مصالح تجارية لا يُستهان بها، وما يتقاضونه من رواتب ومعاشات تقاعدية من خزينة الدولة، فقد تحول الإنكشارية إلى نخبة ذات امتيازات، مستبعدة وصانعة لكل تغيير. في عام 1826، استخدم السلطان محمود الثاني قوته العسكرية المكونة حديثاً للإجهاز على معظم هؤلاء الإنكشارية أثناء تجمعهم للتفتيش في استنبول

عرض لسرايا الإنكشارية بكامل بهارجهم وثيابهم الموشاة بالذهب أثناء أحد الاستقبالات في بلاط السلطان. والإنكشارية المجهزون أسلاً من نصارى البلقان، صاروا قوة يُحسب لها حساب داخل الدولة. وقد خطر السلطان محمود الثاني تشكيلات الإنكشارية هذه عام 6281 كجزء من برنامجه التحديثي





الدولة الفاطمية 909 - 1171

تأسست الخلافة الإسماعيلية الشيعية للفاطميين في إفريقيا بالغرب، عندما قبلت عشيرة بوكاتمة البربرية ادعاء أبي عبد الله المهدي بأنه السليل الشيعي لعلّي وفاطمة، وتارت على الأغالبة في العام 909. وبحلول عام 921، كان المهدي قد استقر في عاصمته الجديدة، مدينة المهديّة، الواقعة على ساحل إفريقية. وبوصفهم ورثة الأغالبة، ورث الفاطميون كذلك أسطولهم البحري وجزيرة صقلية. وفي أواخر عهد المهدي (ح 908-934)، امتدت الدولة الفاطمية من الجزائر وتونس الحاليتين إلى ساحل طرابلس في ليبيا. بنى الخليفة الفاطمي الثالث المنصور (ح 946-956) عاصمة جديدة سميت على اسمه: «المنصورية». وظلت المنصورية الواقعة بالقرب من صبرة إلى الجنوب من القيروان، عاصمة للفاطميين من عام 948 إلى عام 973.

إلا أن الحكم الفاطمي لم يتوطد على وجه الروح في شمال إفريقيا إلا إبان سلطة العضو الرابع من السلالة الحاكمة، المعز لدين الله (ح 953-975)، الذي حول الخلافة الفاطمية من مجرد قوة إقليمية محلية إلى إمبراطورية كبرى. فقد نجح في إخضاع المغرب بأسره، فيما عدا صبرة، قبل أن ينصب اهتمامه على فتح مصر، وهذا ما تمخّل له في العام 969. فأقامت عاصمة فاطمية جديدة خارج القسطنطينة، وقد دُعيت في البدء «المنصورية»، إنما أعيدت تسميتها بـ«القاهرة المعزية»، أي مدينة المعز الظافرة، عندما تسلّم الخليفة عاصمته الجديدة في العام 973. وأضحى توسيع رقعة السلطة الفاطمية لتشمل بلاد الشام الشغل الشاغل لولد المعز وخلفه، العزيز بالله (ح 975-996). وفي نهاية عهده، تمكنت الدولة الفاطمية من بلوغ اتساعها الأقصى، أقلّه من الوجهة الاسمية، مع الإقرار بسيادة الفاطميين من المحيط الأطلسي وغرب المتوسط غرباً إلى البحر الأحمر والحجاز وسورية وفلسطين شرقاً. وفي عام 1038، مدّ الفاطميون نطاق سلطانهم إلى إمارة حلب شمالاً.

في عهد الخليفة المستنصر بالله المديد (ح 1036-1094)، دخلت الخلافة الفاطمية طور الانحطاط. فقد خسرت شمال بلاد الشام إلى الأبد في العام 1080. آنذاك كان الفاطميون يجابهون الخطر المتعاظم



للأتراك السلاجقة، الذين كانوا في صدد
إرساء الدعائم لدولتهم الجديدة. في
العام 1071، صارت دمشق
عاصمة لأتابكية سورية
وفلسطين الجديدة
التابعة للسلاجقة.
ولم ينته عهد

قصعة خزلية من الفسفاط (القاهرة) تعود إلى القرن
العاشر - الحادي عشر ميلادي. هذا الزناء الخزفي
المطلي بخلاخ لماع، مزوَّق بموتيفات
فاطمية نموذجية. كالأرب الطاهر
في وسط القصعة
والنماطات



المستعصر بالله
إلا ولم يبق في أيدي
الفاطميين من ممتلكاتهم
في سورية وفلسطين سوى
عسقلان وبضع مدن ساحلية من بينها
عكا وصور وبحلول عام 1048، قام الزيريون، الذين
استخلفهم الفاطميون في حكم إفريقية، بالانفصال
عنهم وأعلنوا القطبة للعباسيين. وفي العام 1070،
حين خسروا صقلية لصالح النورماندين، صارت برقة
الحذ الغربي للدولة الفاطمية، التي ما لبثت أن
انحصرت فعليا داخل حدود مصر وحدها. أما عسقلان،
وهي آخر موطئ قدم فاطمي في سورية وفلسطين،
فقد انتزعها منهم الفرنجة عام 1153. وانتهى حكم
الفاطميين في العام 1171، يوم أعلن صلاح الدين
الأيوبي، وكان آخر وزير فاطمي بعيد بسط سيطرته
على مصر، الصلبة للخليفة العباسي فيما كان للخليفة
الفاطمي الأخير، المعاضد لدين الله (ح 1160-1171)
يُعاني سكرات الموت في قصره.



طُرُق التجارة ن 700 - 1500

الأمبراطورية حمل معه تدهوراً اقتصادياً في بعض المناطق، مع قيام السلاطات الحاكمة المتنافسة برفع ميزانياتها عن طريق فرض المزيد من الضرائب والرسوم، إلا أن الوثيرة التي شجبت بها مثل هذه الخطوات بوصفها تدابير غير مشروعة، وجائرة وغير عادلة، إنما تدل على المزاج العام، الذي ظل محابياً للنشاط التجاري حتى وإن كانت الظروف السياسية غير مؤاتية له.

كان من نتيجة الفتح العربي في بادئ الأمر جمع طريقين للتجارة البحرية - واحد عبر الخليج والثاني عبر البحر الأحمر - ضمن سوق واحدة قائمة على شرعة ولغة وعملة مشتركة. في العصر العباسي، كان الطريق المفضل للبضائع الآتية من شرق آسيا وجنوبها إلى المتوسط هو مجرى نهر دجلة صغداً حتى بغداد، أو مجرى الفرات وصولاً إلى أيسر وسيلة نقل إلى حلب، ومنها إلى مرفأ سوريا كزنطكية وكانت المدن الواقعة على امتداد هذه الطرق تعتمد في معيشتها على تبادل البضائع.

كانت مدن بلاد ما بين النهرين تمتص السلع الكمالية الآتية من الهند والصين؛ فكانت هذه بُعاع في الأسواق إلى جانب السلع الضرورية، مثل الصبوب والوقود والأخشاب وزيت الطهي. كما كانت بلاد ما بين النهرين المحطة الأولى على السط التجاري الرئيسي المتجه نحو الصين والهند، وكذلك شمالاً نحو حوض الفولغا وأراضي أوروبا الشرقية المروية جيداً، منبع الفراء والكهرمان والسلع المعدنية والمديوعات الجلدية. في الفترة المبكرة، كانت السفن الإسلامية المنطلقة من موانئ كالبرصة أو هُرمز، تقطع الطريق بطوله إلى الصين، وتعود من هناك بعد سنتين أو ثلاث محملة بالبضائع كالحرير والغزل الصيني والذهب وسواها من الأشياء النفيسة. لكن مع ازدياد التجارة تعقيداً وتكلفاً، لم يعد التجار يتعاملون مباشرة مع غوانغزو (كانتون) وهانغزو في الصين، بل صاروا يقتنون البضائع الصينية من موانئ في جاوه وسومطرة أو على ساحل مالبار.

أما التجار المسلمون من المغرب فكانوا ينشطون في تجارة الذهب، التي أخذتهم عبر قباني الصحراء الكبرى إلى مدن الساحل، مثل تمبوكتو وغاو وما بعدها إلى مناجم الذهب في غرب إفريقيا، وسلسلة المراكز

يقال إن النبي محمد كان يسافر إلى خارج الجزيرة العربية طلباً للتجارة؛ وبقيلته قريش، التي قادت الفتوحات العربية، كانت من بين أوائل التجار في الجزيرة العربية. وقد ظلّ للتجار موضع تقدير واحترام، وكثيراً ما كانوا يُصاهرون عائلات العلماء الذين يحظون بدعمهم على مهنة وقفيات توقف على مؤسستهم التعليمية. إن الأعراف الإسلامية تحدت النشاط التجاري، فالصناد غالباً ما تكون في جوار الأسواق. ولئن كان يوم الجمعة مكرساً للصلاة الجامعة، فهو لم يتكرس عطلة رسمية إلا في أزمدة متأخرة فحسب. كانت الأسواق تفتح قبل صلاة الظهر وبعداه. وحيث إن معظم السكّان الذكور متجمعون في المدينة، فقد كانت أمام الجمع ملائمة جداً لتعاطي التجارة. وكذلك الأمر بالنسبة للحج أو العمرة في مكة، حيث يأتونها المسلمون من أقاصي الدنيا ليلتقوا بعضهم بعضاً، فكانت هذه المناسبات هي الأخرى عامل تسهيل لأمر التجارة. كان الحجاج يؤمنون بنفقات رحلتهم الطويلة والشاقة (التي ربما كانت تستغرق من العره نصف عمره في الأزمنة القديمة)، عن طريق تبادل السلع فيما بينهم، أو من خلال صنع بعض المشغولات الحرفية. كما كان التجار يلتحقون بقوافل الحجيج كي يبيعوا بضائعهم في الحجاز.

إن إخضاع الفاتحين العرب شاسعة من الأراضي الساحلية لسلطة حكمية واحدة، أتاح لهم خلق منطقة هائلة للتجارة الحرة، وسهل عليهم مدّ النشاط التجاري إلى ما وراء حدود الأمبراطورية بعميد. وقد كشفت التنقيبات الأثرية عن مدى اتساع نطاق هذه التجارة، فمُثّر على عدد وفير من النقود المعدنية العائدة إلى العصر العباسي في البلاد الاسكندنافية، وعلى أقنعة حربية وأنية خزفية صينية مطورة في مقابر في غرب آسيا. لم يكن التجار المسلمون مجبرين على دفع المكوس أو الرسوم الجمركية داخل حدود الأمبراطورية. أما التجار الأجانب الذين يدخلون ديار الإسلام، فكانوا يخصصون للنسب نفسها من الرسوم المفروضة على التجار المسلمين في ديارهم هم. ولعلّ الغضب الجديدة التي عرفتها تصورات الخلفاء، وما كانت تتطلبه من سلع مفرقة وكماليات، كانت وراء تشجيع التجارة ومضاعفة حجمها. صحيح أن تفكك أوصال

كانت الطرق البرية التي تربط غرب آسيا والبحر المتوسط بشرق آسيا وجنوبها لا تقل أهمية، بأي حال، عن الطُرُق البحرية. فوجود العديد من المدن مُحاطة باليابسة أو بعيدة عن الأنهار والمحيطات، تعيّن لزمام نقل البضائع، بما فيها السلع ذات الأحجام الضخمة، بواسطة الدواب. لذلك، كان الأمر يتطلب تخطيطاً دقيقاً وحذراً قبل انطلاق القوافل في رحلاتها الطويلة. كما كان من الضروري تأمين الحلف للدواب، والغذاء للمسافرين، ناهيك عن استئجار أفراد من البدو لحراسة

التجارية التي أقامها التجّار المسلمون على الساحل الشرقي لإفريقيا، مثل لامو وماليندي وجزيرة زنجبار، وصلت جنوباً حتى إلى صوفالا في موزامبيق الحالية. لقد اخترق رجالون مسلمون يتصفون بجسارة فائقة الداخل الإفريقي بحثاً عن الذهب والعبيد والعاج والأخشاب النادرة والأحجار الكريمة قروناً عديدة قبل أن يقتني أثروهم الأوروبيون. وحين جعل انحطاط الدولة العباسية وغزوات القبائل التركية الطُرُق التجارية عبر بلاد الشام أقل

لم يخلُ القرن السادس عشر إلا وكانت الامبراطورية العثمانية، وعاصمتها القسطنطينية (إستنبول)، قد صارت واحداً من أهم المراكز التجارية في العالم الإسلامي. فكان السلطان، فضلاً عن بطانته ومستشاريه، أشد ما يكونون حرصاً على الوقوف على حالة التجارة سنةً بسنة.



القوافل. وفي المناطق النائية، كانت هناك شبكة من الفانات (للاستراحة والمبيت حتى صباح اليوم التالي)، والخانقانات (مهاجع للمتصوفة) توفر الطعام وحسن الوفادة. وقد شُيّد بعضها على هيئة حصون لتصدد في وجه عصابات الذهب البدوية. ونظراً لطول المسافات، وسط تضاريس بالغة الوعورة، زد على ذلك انهيار السلطة الإقليمية، صار بناء الطُرُق أمراً غير عملي بالمرّة. حتى في أواخر أيام الرومان، كان النقل المدولب قد اختفى أو يكاد. وبالإمكان تلمّس نتيجة ذلك في كثير من مدن غرب آسيا وشمال إفريقيا. فقبل الحصر الحديث، لم تكن سوى قلة قليلة منها تلك جادات عريضة بما يكفي لمرور الكاركات والمركبات.

أمنًا، برز إلى الوجود طريق بحري يمزج بين البحر الأحمر ونهر النيل. كانت صعوبات جمة تكتنف هذا الطريق، حيث إن المسافة من خليج السويس إلى نهر النيل كانت أشد وعورة من المسلك المار عبر سورية، باستثناء فترة وجيزة أحيها فيها سلاطين المماليك ترعة قديمة كان حفرها القراعنة أصلاً. وقد جنت موائيه البحر الأحمر، مثل عدن وجدة وعيذاب والمقرّم (السويس حالياً)، فوائد جمة من هذه التجارة، وكذلك فعلت القاهرة والإسكندرية. وهكذا احتكر المسلمون التجارة في المحيط الهندي إلى حين مجيء البرتغاليين ومن بعدهم الإنجليز والهولنديين اعتباراً من القرن السادس عشر فصاعداً.



الطُرُق الصوفية 1100 - 1900

للطُرُق الصوفية، يمثلون للإرشاد الروحي الصادر عن مشايخ تلك الطُرُق، ويستمدون من «بركتهم» منافع جمّة. وخارج ديار الإسلام، أثبتت الطُرُق الصوفية فائدتها العملية في نشر الإيمان في مناطق طرفية، مثل أرخبيل الملايو وآسيا الوسطى وجنوبي الصحراء الكبرى الإفريقية. كان الوصول إلى الإسلام النصّي المعيارى المأثور عن العلماء والقائم على القرآن والحديث والفقه والتفسير، يتطلب معرفة باللغة العربية، وهذا ما كان يحدّ كثيراً من تأثيره وجاذبيته. في حين أن مشايخ الصوفية (ويُسمّون بالفارسية «السيّرة») كانوا مهرة في الارتجالات الروحية، فاستطاعوا إيصال تعاليم الإسلام شفاهاً بواسطة اللّغات المحلية. كما أتاحت لهم الطقوس الصوفية السريّة المعروفة بجالس «الذكر» (أو الحضرة) أن يطوّروا فنوناً روحية تتماشى والممارسات المستمدة من التقاليد غير الإسلامية، كالرقص الطقسي أو التحكم بالتنفس على منوال البوغا في الهند. أما في إفريقيا، فقد تمكّن الصوفيون والمرابطون (الذين كانوا في أول أمرهم زهاداً مسلمين) من نشر الإسلام من خلال تشبيههم الآلهة أو الأرواح المعبودة محلياً بالقوى الغارقة للطبيعة كالجبان والملائكة الوارد ذكرها في القرآن. كما أمكن تكيف عبادة الأسلاف عبر إضافة بُنى قرابية محلية على أنساب عربية أو على سلاسل صوفية، في ما يشبه غريّ روحية تربط المشايخ والأولياء بالنبي محمد وصمبه. وقد وفّرت مثل هذه السلاسل، في مناطق طرفية كجبال الأطلس الأعلى، إطاراً شبه دستوري حققت من خلاله الأفضاء والبطون القبلية حدّاً أدنى من التعاون فيما بينها، مع قيام زعماء الأسر المُحاطة بهالة من القداسة بدور الوسطاء المحكّمين في حل النزاعات الناشئة بين القبائل المختلفة. وفي كل أرجاء العالم الإسلامي، صار الأولياء من المتصوّفة (وكان ثمة نساء من بينهم من وقت لآخر) موضع تجميل شعبي يبلغ حد التقديس. لكن هذه البدعة ما لبثت أن صارت بعد حين هدفاً للمصلحين الذين اعتبروا الغلو في تجميل الوسطاء

كانت الطُرُق الصوفية ولا تزال أهم تعبير منظمّ للتعلّق بالقيم الروحية في الإسلام. إن كلمة «صوفية» (أو تصوف) مشتقة من اللفظة العربية: صوفى، أي لابس الصوف؛ ويُعتقد أنها عائدة إلى الملابس الضخنة المصنوعة من الصوف التي كان يرتديها أوائل الزهاد المسلمين، ممّن سعوا إلى إثناء ما لديهم من طاقة روحية جوّانية. وهذا ما يُعبّر عنه في بعض الأوقات بتشدن الاتحاد مع الخالق (الطول)، ويُميزهم عن سائر المؤمنين الذين يقنعون بالنقيد الشكلي بالشرعية والشعائر الدينية. وثمة بعض المريدن الأوائل، وكانوا يُدعون أحياناً بالمتصوّفة «السكراني»، قد صقلوا لديهم حالات ذهنية تقودهم إلى تجربة الغناء في الحضرة الربّانية، والتوق إلى الاتحاد وجدانياً مع الله، والألم المتأبّي عن الافتراق عنه، وهي الموضوعات التي يطرّحها الكثير من الشعر الصوفي.

هذا وتتخذ الصوفية «السكرى» أحياناً شكل عروض مسرفة في الشهور ترمي إلى إبداء الازدراء بالجسد، من غرذ أسباح الحديد في اللحم إلى الإمساك بحيوانات ضارية... أما الصوفية «الصاحبة»، كما تجسّد تعاليم أبي حامد الغزالي (ت 1111)، فتتصرّف على أن السبيل إلى تحقيق الكمال الروحي إنما يقع قطعاً ضمن حدود العبادات الشرعية والطقوس الشعائرية المتعارف عليها.

وكونها حاضرة منذ بدايات الإسلام الأولى، فقد كان في استطاع جميع الحركات الصوفية أن تدّعي أنها تعود في منشئها إلى التجربة الدينية للنبي محمد وإثنين من أقرب صحابته إليه، هما: أبو بكر وعلي. غير أن التصوف المنظم لم يستتب على أسس راسخة إلا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، محرّزاً تقدماً سريعاً في آسيا إثر الغزوات المغولية حين اختلّت الركائز المؤسّساتية للحياة الإسلامية على نحو خطير. داخلياً، عملت الطُرُق الصوفية على تمثين النظام الاجتماعي - السياسي بأن وفّرت للأمرء المصادر الشعبية للشرعية الدينية، وأكملت حيوات السلطة الرسمية التي يُمثلها العلماء. فكان العديد من الأمراء بمثابة رعاة وخمّاء

لغيف من المتصوفة المولويين أو الدراويش. أثناء تأديتهم طقوسهم العبثية التقليدية الرقص، ويُدعى «الدَّكْر» (أي دَكْر الخالق) يحمل المريد على الاقترب من المحمرة الربانية، في ما يشبه التوازن الدقيق بين المشقة الروحية والسيطرة المنهجية على الذات. تأسست الطريقة الصوفية المولوية على يد الشاعر والمتصوف الشهير جلال الدين الرومي (1207-1273).



وإضفاء هالة من القداسة عليهم انتهاكاً لتحريم الإسلام الوثنية.

وخلافاً للطعام الذين يعكسون، في العادة، إجماع الرأي لدى المتعلمين، طوّرت الطرق الصوفية منظمات ذات تراتبية هرمية تتمتع بالسلطة الروحية المتركَزة في يد الرئيس الذي يكنى بأسماء شتى، مثل: الشيخ، أو المرشد، أو السبّير، أما المريدين أو المنتسبون إلى الطريقة، فهم مقيّدون بالبيعة أو يعين الولاء للرئيس أو المرشد الذي يترتب على رأس مراتب متسلسلة من الصغرى داخل الطريقة، وفقاً لدرجة تسامي الحالة الروحية للمرء. ومع أن الأنظمة السارية المفعول تختلف وتتفاوت إلى حد بعيد فيما بينها، مع اتصاف بعض الطرق الصوفية بدرجة أكبر من الحصرية والانضباطية من بعضها الآخر، فإن الجمع بين التعلق بالرئيس وتكريس الذات للمصقوف ضمن الجماعة الصوفية تتيح لأتباع الطريقة أن يجعلوا من أنفسهم قوة مقاتلة جبّارة. ففي القوقاز مثلاً، خاض الإمام شامل ثورة ضد الروس دامت من عام 1834 إلى عام 1839، وذلك تحت جناح مُرشده الروحي وحميهِ السيد جمال الدين الغازي الغموقي، شيخ مشايخ الطريقة الخالدية المتفرّعة عن النقشبندية. وفي شمال إفريقيا، تقدّم عبد القادر، أحد مشايخ الطريقة القادرية، الصغوف في النضال ضد الفرنسيين، وكذلك فعلت الطريقة السنوسية في المقاومة ضد المحتلّين الإيطاليين (في ليبيا). لكن في مناطق أخرى، سارت بعض الطرق الصوفية في ركاب قوى الاستعمار. ففي مراكش مثلاً، وما بين أواخر القرن التاسع عشر وبدايات العشرين، قبلت الطريقة التجانية الواسعة النفوذ إعانات مالية طائلة من الفرنسيين الذين سخّروا تلك الطريقة لتعزيز مصالحهم الاستعمارية. وفي السنغال، انصرفت الطريقة المريدية التي أسسها أسادو بامبا (1850-1927) عن المقاومة لتتّبع عوضاً عنها ضروباً من أخلاق العمل قائماً على زراعة القول السوداني، مما أعاد الاستقرار إلى البلاد في ظل نظام حاضخ للسيطرة الفرنسية.

وفي حالات كثيرة، أسّست الطرق الصوفية القيادة اللازمة للحركات الإصلاحية والتهضوية التي

اكتسحت العالم الإسلامي في القرنين التاسع عشر والعشرين. فعبارة «الصوفية الجديدة» تنطبق أحياناً على حركات تَجهد لإقامة توازن ما بين النشاط السياسي «البركاني» والتجربة الروحية «الجوانية»، فيما يوفّر الهنّاء الهيكلي للطريقة الآلية الضرورية لنقل الأفكار ووضعها موضع التنفيذ. ولعل أشهر مثال على ذلك، حركة «نور خُلق» التي أسسها سعيد نورسي (1876-1960) في تركيا. كان سعيد نورسي هذا داعية وكتّاباً ذا خلفية نقشبندية، وقد سعى إلى إحياء الفكر الإسلامي عن طريق دمج العلم والإيمان واللاهوت والتصوّف في صيغة جديدة من الشعار النقشبندي: «اليد تنكبّ على العمل، والقلب يهفو إلى الله». وعلى عكس جماعة الإخوان المسلمين في مصر، التي تأثرت هي الأخرى بالأفكار الصوفية، فإن حركة «نور خُلق» تعمل على وفاق قام مع الدولة العلمانية في تركيا.

استُهدفت الأفكار الصوفية والممارسات التقليدية، في العقود الأخيرة، بالهجوم من جهتين: من جانب الدلّاتويين الذين يعتبرون الصوفية اتجاهاً رجعيّاً، ومن جانب الإسلاميين الوهابيين الذين يضعون أيديهم على العديد من المؤسسات الإسلامية بفضل الدعم المالي من المملكة العربية السعودية وغيرها من البلدان الغنية بالنفط. وإذا كانت هاتان الأجندتان مختلفتين إلى حد ما، إلا أن نتائجهما واحدة في المحصلة. لقد بدأ الدلّاتويين، المعتنقون أفكار التنوير الأوروبي، بالمطالبة بدين «عقلاني»، لكنهم انتهوا برفض الدين جملة وتفصيلاً. وفي ردّهم على الدلّاتويين، وقع الإسلاميون أسرى الموقف ذاته: «إما كل شيء أو لا شيء».

تحتل الصوفية مكاناً وسطاً بين الدلائة والأصولية، وهذا ما يتيح للدين أن يتكيف مع الظروف الاجتماعية المتبدّلة. ومن غير هذه القوة التوسيطية والتكيفيّة التي تتمتع بها الصوفية، من غير المرجّح أن يتمكن أنصار الإسلام السياسي من النجاح في استيعاب أطباء الإسلام المنوّعة ضمن النظام الإسلامي «المستعاد» الذي يهفون إليه

الطرق الصوفية 1145-1389

- مقام وفي مؤسس مؤسسة من أدم الطرق الصوفية
- تقاليد صوفية متصورة وأفريقية تشدائية متصورة من تقاليد عراقية
- تقاليد صوفية إيرانية وأسيوية من وسط القارة مستمدة من الجيود والسنطاسي
- ▨ تقاليد صوفية عراقية مستمدة من الجيود

الخرائطية الرئيسية في تطور مؤسسة الصوفية، ويظهر أصل جميع الطرق الفرعية إلى إحدى هذه الطرق الرئيسية. وقد سادت في مكان ما في أفريقيا الأولى، رغم أنها اختارت بعد عام 1900 خارج هذه المناطق ما عدا الطريقة التوارقية والقادرية والكنسية

الخرائطية تقاليد صوفية أخرى ذات أهمية في القام 1900، مشار إلى موقعها حيث تكون هي الأمير

| الطريقة | الوحي المؤسس | موقع التأسيس |
|-----------|---|--------------|
| السنوورية | شهاب الدين أبو طحس عمر (1145-1234) | بغداد |
| الرباعية | أحمد بن علي القرطبي (1108-1182) | أبو حنيفة |
| القادرية | عبد القادر الجيلاني (1077-1106) | بغداد |
| القشيرية | أبو مدين طهيب (1120-1197) | تلمسان |
| الحدوية | أبو الحسن علي الشاذلي (1186-1258) | خط |
| الكنزانية | سريد السريدي أبي مدين (وحي اسمه سعيد هذه الطريقة الصوفية) | خيرة |
| الهاوسية | أحمد الكندي (1188-1276) | تركستان |
| الغولانية | نجم الدين ركني (1145-1221) | قروية |
| الغشيدية | أحمد بن إبراهيم بن علي الهاسي (1188-1273) | بغداد |
| الشتية | جلال الدين الرومي (1207-1273) | أوجير |
| | سعيد بهاء الدين الششتي (1316-1389) ويعتبر عبد القادر الجيلاني المستم الأول للفرقة الششتية | |
| | معين الدين خضر الششتي (1142-1236) | |



الأيوبيون والمماليك

مصر بسماحة للعلماء والدارسين من مختلف المذاهب الفقهية بالعمل سوية، مع ترك التحلق الشيعي بالمطالبيين (آل علي بن أبي طالب) يأخذ مجراه في مسجد الحسين، حيث يُعتقد أن رأس السبط الشهيد قد نُفِذَ هناك. ومن مصر، انطلق صلاح الدين لإخضاع بلاد الشام وأغالي بلاد الرافدين، فأعاد بذلك الحياة للدولة الموحدة في الشرق للمرة الأولى منذ العصر العباسي الأول، وفي عام 1187، توج صلاح الدين إنجازاته بانتزاع مدينة القدس من أيدي الفرنجة.

غور أن سلالة صلاح الدين، السلالة الأيوبية، لم يُكتب لها البقاء. ففي عام 1250، قُتل آخر سلطان أيوبي على أيدي جنده من المماليك الأتراك، الذين نادوا بقائدهم هم سلطاناً عليهم، مفتحين بذلك حقبة جديدة من الحكم المملوكي دامت أكثر من قرنين ونصف القرن، بعدها بعشر سنوات، أنزل القائد المملوكي اللاحق، بوبرس، الهزيمة بالفرازة المغول في موقعة عين جالوت في فلسطين. وبحلول عام 1291، كان خلفاؤه قد وحدوا بلاد الشام، وطردوا الصليبيين، ووسموا حدود دولتهم إلى وادي الفرات الأعلى وأرمينيا. احتفظ المماليك بأسمائهم التركية وبحقهم المصري في ركوب الغول واتخاذ ممالك آخرين عبيداً لهم. لكنهم كانوا على وجه العموم، لا يتزوجون إلا بمن يجلبون من نساء مسترقعات. لأنهم إذا ما اقترنوا بنساء محليات أو تسموا بأسماء عربية - إسلامية، فقد يفقدون اعتبارهم واحترام أبناء جلدتهم لهم. وحين بدأ إمداد العبيد من الأتراك الكيبيتشاك (وكانوا يُعرفون بالمماليك البحرية) بالتصوب، حل محل المماليك الكيبيتشاك الشرقي (الذين عُرفوا بالمماليك البرجية). هذا ولتسن حاول معظم السلاطين المماليك إقامة سلالات حاكمة لهم، إلا أن مساعيهم نادراً ما كان يُكتب لها النجاح، نظراً إلى أن القاصرين منهم أو الضعفاء كانوا يُعزلون على الدوام من قبل منافسين أقوى شكيمة منهم. مهما يكن من أمر، فقد أبدى المماليك إخلاصهم للإسلام بأن رعوا العلم والطرق الصوفية، وكذلك من خلال تلك الصروح المعمارية المهيبة، من مساجد ومدارس وخانات، التي أغدقوها على القاهرة بطرازها الهندسي المميز والمنمق الذي يحمل اسمهم.

أما وقد فرضت نفسها على ذلك الشطر المتشرذم من العالم الإسلامي، لم تغفل الممالك الصليبية سوى أنها خلقت استجابة متضامنة ضدها. وبالإوسع تتبع آثار هذا النهوض إلى استيلاء أتابك (والي) الموصل السلجوقي، عماد الدين زنكي، على مدينة حلب في العام 1128. وابنه نور الدين زنكي، الذي حكم دمشق في الفترة 1154-1174، وسد دعائم سلطته في الشام وبلاد ما بين النهرين، وبعث بقائد كردي لديه، يدعى صلاح الدين الأيوبي، إلى مصر في العام 1169 كي يقبض على زمام الأمور هناك. وبالفعل، تولى صلاح الدين السلطة رمزياً في مصر عندما عزل آخر خلفاء الفاطميين بعد ذلك بستين. وقد وسع صلاح الدين ودينته، الأيوبيون، من جاذبية المذهب السني في

يظهر صلاح الدين الأيوبي، في هذا الرسم لغوستاف دوريه (1884) بوصفه النموذج الأمثل للبلط السراسيني (الشرقي). كان صلاح الدين موضع إعجاب المسلمين وكذلك أعدائه الصليبيين سواء بسواء. نظراً لما كان يتجلى به من حسن رفيع بالشرف والإنسانية. وقد طارت شهرته في الغرب بفضل الرواج الواسع الذي حظيت به رواية ولتر سكوت، «الملك» (1825)





الغزو المغولي

جنكيزخان في إحدى المناسبات الرسمية وقد أحاط به أفراد حاشيته، لكن بصرف النظر عما بلغه بلاطه من ترف ورفاهية، كما هو ظاهر من هذه الخيمة المغولية (الهورت) ذات الزركشات والتزيينات السفلى، فقد بقي هذا المان الأعظم بدوياً حتى نهاية حياته

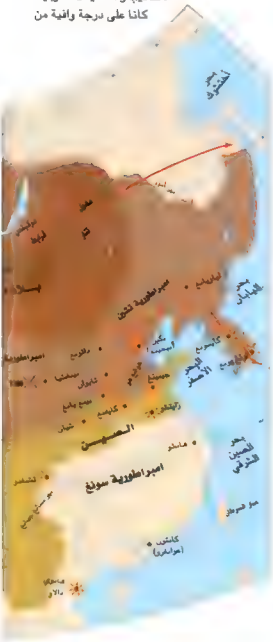


خلفاً للجوادي في الجزيرة العربية، تتصف أراضي السهوب في آسيا الداخلية بقدر كافٍ نسبياً من حاجتها إلى المياه، ومساحات واسعة من المراعي لرعي الدواب. والبدو الخيالة ممن سكنوا تلك المناطق، كانوا منظّمين اجتماعياً وفق خطوط مماثلة للعرب في تشكيلات قبيلة ذات طابع أبوي. وعلى شاكلة البدو العرب والأتراك أيضاً، تمكن هؤلاء من إنشاء كتلات ضخمة بما يكفي لشنّ غارات ناجحة على المدن والمناطق الزراعية، فأسسوا إمبراطوريات لها وزنها بقيادة زعماء مرمعين، لعل أشهرهم أتجلا، الذي عاث وحضاه من قبائل الهون نهياً وهرباً في وسط أوروبا إبان القرن الخامس. أدرك أباطرة الصين ما تمثّله هذه التشكيلات الضخمة من الغزاة المحمولين على سهوات الجهاد من أخطار ومخاطر، واستخدموا قواتهم لكسر شوكة هؤلاء في كل مرة وجدوا أنهم أقوياء بما فيه الكفاية للقيام بذلك. وقد شُهِد «الصور العظيم» بمثابة حاجز دفاعي لصدّهم وإتقاء شرهم.

في مطلع القرن الثالث عشر، ظهر تشكيل جديد بين المغول في منطقة نائية محاذية للخابيات السهبيرية بزعامة جنكيزخان (ن 1162-1227). تسلّم جنكيزخان، الذي عُرف بهائه الطديد وقسوته اللامتناهية، قيادة تجمع عريض من القبائل اعتباراً من عام 1206. وبين وافته المنية، كان قد سيطر على معظم أراضي شمال الصين، وبلغت جيوشه سواحل بحر قزوين. تقاسم أبناءه أجزاء إمبراطوريته، لكنها استمرت في التمدّد والتوسّع، متقلية على ما تبقى من شمال الصين، ومكتسبة شرق أوروبا حتى تخوم ألمانيا. لكن وعلى غرار سائر التشكيلات البدوية، لم تكن هناك قواعد واضحة للوراثة. وعليه، فقد اختلف ورثة جنكيزخان وتنازعوا على «تركتهم»، فأقاموا عدة دويلات مستقلة وأحياناً كثيرة متعادية، تذكر منها: منغوليا الحالية، وشمال الصين، وسلطنة «القبيلة الذهبية» (المركزة في حوض الغولغا)،

وخانات جغتاي في منطقة أموداريا (جيجون)، والسلالة الإيلخانية التي غزت إيران وقضت على سلطان السلاجقة في بلاد الأناضول.

لم يكن المغول مجرد قبائل بدوية تتصف بالعنف ولا تحترف قلوبها الشفقة، بل إن نظام الاتصالات عندهم، وأطلاعهم على أحدث الأساليب والتقنيات الحربية، كانا على درجة وافية من



فالمؤرخ السني علاء الدين الجويني، مثلاً، رافق هولاكو في حملته على قلعة الموت، حيث دُمّر آخر معقل للإسماعيليين الذين نجوا بعد سقوط الفاطميين في العام 1256. وفي أعقاب فتح بغداد بعد ذلك بستين، عيّن الجويني والياً عليها، ولم تمض بضعة أجيال حتى دخل المغول الغربيون في الإسلام، فأتحن بذلك عصرًا جديدًا لامعاً في مسار تطوره.

التطور أتاحت لهم إحداث مستويات غير مسبوقة من التخريب والتدمير. في فتوحاتهم الأولى، أبيدت مدن بأكملها عن بكرة أبيها، وسويت ميان بالأرض، وارتفعت إهرامات مقرّزة من الرؤوس المقطوعة النقتة. كانت الوحشية المغولية شكلاً من أشكال الحرب النفسية، الغاية منها إيصال رسالة مفادها أن المقاومة عديمة الجدوى. وكإستراتيجية، أُنشيت الإرهاب أنه فعّال للغاية: فقد كان الأمراء الحاكمون في الهضاب الإيرانية يتسارعون إلى إظهار ولائهم، والموظفون المحليون والوجهاء من أعيان الأسر يقبلون على إبداء التعاون معهم، لا بل ويشجعونهم على مهاجمة أعدائهم هم من المسلمين لنيل الحظوة لدى الفزاة. وقد سما البعض من طبقة العلماء إلى أعلى المراتب من حيث الشهرة والنفوذ.

غزوات المغول 1206-1259

- أرمية شيا ليا
- مزارع القتل الصغرى
- الغزاة الصغرى 1206
- الغزاة الصغرى 1209
- الغزاة الصغرى 1208
- الغزاة الصغرى 1208
- مناطق عدم الثقة أو خاضعة لسيطرة مغولية
- شبه مغولية
- شبه مغولية
- مدينة لم يفتحها المغول



القرنين الحادي عشر والثاني عشر، هما: المرابطون (1056-1147)، والموحّدون (1130-1269). وقرب نهاية حكم الموحّدين، تكثّر سائر الأمراء المسيحيين معاً، مدسّنين بذلك حقبة «حروب الاسترداد»، وباستثناء حكم بني نصر في غرناطة، الذي مكث حتى عام 1492، كان معظم شبه الجزيرة الإيبيرية قد خرج من قبضة المسلمين.

غداة سقوط غرناطة في العام 1492، سلك معظم المسلمون واليهود طريقهم إلى شمال إفريقيا هرباً من محاكم التفتيش، بعضهم راضع واعتنق المسيحية، فيما سمح لقلّة قليلة منهم بالبقاء على دينهم، ولكن في ظروف تميّزت بالشدّ في تقييد حركتهم. غير أن عملية «التنصير» وطرد المسلمين كانت قد اكتملت أو تكاد بحلول نهاية القرن السادس عشر، ولم يبق من وجود للإسلام في المنطقة سوى ما خلفه وراءه من آثار ثقافية ليس إلا.

ارتبطت الحضارة الناشئة في الأندلس المسلم بالتطورات الأوسع نطاقاً في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، غير أنها تميّزت عنها من عدة وجوه. فالفن والعمارة المقترنان بمدن قرطبة وغرناطة وإشبيلية وطليطلة، باقيا معال حية ومنازل مشرقة على مرّ الزمن. كما أنّ التراث الأدبي الذي ازدهر أيما ازدهار في الفترة الأخيرة من الحكم الإسلامي، أصاب اعتباراً هو الآخر بإسهامه العظيم في الأدب الرومانسي. لكن ربما كان

التراث الأبقى على مرّ الدهور هو ذلك التجسّد في كتابات المسلمين واليهود الفلاسفة والعقائدية والقانونية، والتي سيكون لها أعظم الأثر في بروز النزعة السكولانية (المدرسية) اللاتينية لاحقاً في أوروبا. ومن أبرز المراجعيات في هذا الصدد، ابن رشد، المتوفى عام 1198؛ وابن عربي، المتوفى عام 1240،

الأندلس هو الاسم العربي لقسم من الأراضي الواقعة في شبه الجزيرة الإيبيرية، الذي دال لحكم المسلمين ونفوذهم طوال ما يقرب من 800 سنة. أول احتكاك للمسلمين بالمنطقة حدث في عام 711. يومذاك عبر جيش مسلم مضيق جبل طارق من شمال إفريقيا. وبحلول عام 716، كان عدّد من المدن والممالك قد سُي بالهزيمة. غير أن طبيعة السيطرة الإسلامية ونطاق اتساعها في المنطقة، ارتبط ارتباطاً دراماتيكياً بسقوط الدولة الأموية وعاصمتها دمشق في العام

إسبانيا الإسلامية حوالي 1030

- دول مسيحية
- خلافة قرطبة حتى 1031
- ممالك إسلامية بعد 1031
- إمبراطورية
- خلافة إيبيرية مهددة
- إسكان
- مسيحيون
- شاذلية عربية وشاذليونية
- عقيدة مسلمة



750، فقد فرّ أحد أفراد البيت الأموي إلى إسبانيا، حيث صار والياً قبل أن يؤسّر سلالة أموية جديدة أعلنت إيبيريا وشمال إفريقيا في نهاية المطاف خلافةً مستقلة.

وثمة حركتان مدفوعتان بنظرة أكثر سلفية إلى الحكم الإسلامي، تولتا السيطرة تفاعلاً على المنطقة في

بأحواض الأسود في قصر الحمراء
بغرناطة. صمدت مملكة غرناطة، وهي
آخر موقع إسلامي متقدم في غرب
أوروبا، قرابة 250 سنة في وجه حروب
الاسترداد المسيحية. وبالرغم من كل
الضغوط الخارجية، ظلت غرناطة في
ظل سلالة بني نصر بمثابة بوتقة
انصهرت فيها على وجه من التفرقة
والانصهار الثقافيان الإسلاميه
والغربية في توليفة لائمه وحلاقة.



الذي وضع العديد من المؤلفات الصوفية التي أثرت
عميقاً في الأجيال اللاحقة. كما أن المعتقد اليهودي
الكبير موسى بن ميمون (ت 1204)، عمل هو الآخر في
مثل هذا الوسط المنعش فكرياً والمثاقب ثقافياً إلى أبعد
الحدود.



إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى شرقاً

شجرة النسب القرشية؛ وتلك نزعة سوف تتبدى جلياً للعيان بين سواهم من الزعماء الدينين والقبليين. وفي حين احتفظت العربية، وفي بعض الحالات الفارسية، التي جاء بها البصرة، بمكانتها الاعتبارية وإمتهاراتها بوصفها لغة «الإسلام الحق»، طوّرت اللغات العامية أداباً بفتحها ثرية لن تلبث أن اكتسب آخر الأمر شكلاً مكتوباً. يعود تاريخ أول نصّ كتب باللغة السواحلية إلى عام 1662. والثقافة السواحلية المهمة على الشريط الساحلي الممتد مسافة ألف ميل، من مديشو إلى كلوة، هي ثمرة قرون عدة من التفاعل بين الأفكار التي حملها معهم التجّار والمستوطنون العرب والفرس، والشعوب الأصلية في الساحل الشرقي لإفريقيا التي تزاجوا معها.

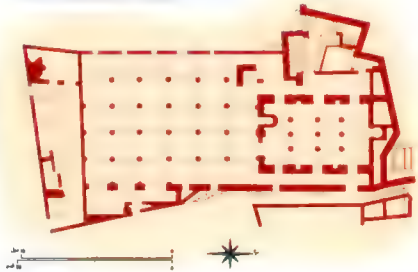
بعدما دار فاسكو داغاما حول رأس الرجاء الصالح في العام 1498، دسّر البرتغاليون وبشكل منتظم المدن السواحلية المزدهرة التي كانت قد نبئت على امتداد الساحل. في عام 1505، تم الاستيلاء على كلوة واستُبدِحت مومباسا لأعمال السلب والنهب. وبحلول عام 1530، كان البرتغاليون قد بسطوا سيطرتهم على الساحل برمته، انطلاقاً من حصونهم المنبئة في بعبا وزنجبار وغيرهما من الجزر. غير أنه في الخمسينيات من القرن السابع عشر،

استطاع العُثمانيون، وهم من المسلمين الإباضيين، أن يطردوهم من مسقط، ويُعيدوا البطر الشرقي من المحيط الهندي إلى حظيرة الحكم الإسلامي، وأقام العُثمانيون شبكة لتجارة الأقمشة والعاج والعبيد بين شرق إفريقيا والهند. وفي القرن التاسع عشر، اتحدت مسقط وزنجبار لفترة وجيزة تحت سلطان حاكم واحد، هو السيد سعيد بن سلطان (1804-1856). مما فتح الباب أمام توطن موجات جديدة من المهاجرين المسلمين القادمين من جنوب الجزيرة العربية. وتحوّلت زنجبار في مجملها إلى مركز لإنتاج كيش

منذ زمن الفراعنة القدماء ومناطق أعالي النيل في شرق إفريقيا تنتمي إلى الفضاء الثقافي نفسه الذي تنتمي إليه مصر. فإثيوبيا اعتنقت المسيحية على يد الإرساليات القبطية اعتباراً من القرن الرابع؛ وبحسب أقدم المصادر الإسلامية، فقد وفر التجاشي المسيحي الملاذ الآمن لمجموعة من المسلمين المضطهدين قدمت من مكّة حتى ما قبل الهجرة الممعدية. وصل الفاتحون العرب لمصر إلى حدود أسوان عام 641، واستمروا لعدة قرون بعدها يزحفون جنوباً، مانحين منطقة أعالي

كلوة. الموقع الجنوبي المتقدم لدار الإسلام حتى الأزمنة الحديثة. كان يبلغ تعداد سكانها زهاء عشرة آلاف نسمة عام 1905 حين احتلها البرتغاليون في هجوم كاسح. أوائل المسلمين الذين استوطنوها (حوالي 800 م)، كانوا من البحارة والتجّار القادمين إليها من سواحل الملج.

ملعب لرهي للمجامع الكبير في كلوة



النيل طابعها العربي الغالب. وقد أسّس سلطنة الفُنج، التي حافظت على احتكارها لتجارة الذهب إلى مطلع القرن الثامن عشر تقريباً، قومٌ من الرعاة سلّكوا طريقهم جنوباً في موازاة مجرى النيل الأزرق. وعملت تلك السلطنة على توطيد النفوذ العربي باستقدامها فقهاء وأولياء من مصر والمغرب والجزيرة العربية.

وما عَزَّ الطابع العربي للإسلام في شرق إفريقيا، قرب المناطق الساحلية من الحجاز واليمن. فمنذ زمن مبكر، اكتسب مريّو المواشي الصوماليون أشرف الأنساب الإسلامية جميعاً وذلك بإرجاع أصلهم إلى

إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى - غرباً

القصرية للإفريقيين جنوبي الصحراء الكبرى، غير أنها كانت نادرة جداً. فقد كانت الأسر المالكية، كما هي العادة، من بين أوائل الداخلين في الدين الجديد، وهي التي طالما استندت إلى الهيبة الدينية لاعتصار الضرائب أو فرض التجنيد على العشائر وأبناء الجاليات الخاضعة لها. وحيث أن التجار المسلمين كانوا قد استقروا في مدن الساحل [بلاد الزنج]، وصار لمعلمهم أحيانهم الإسلامية الخاصة بهم بحلول القرن العاشر، فقد سعت تلك الأسر المالكية إلى الاستفادة من السمعة الثقافية العالية التي حملوها معهم بأن اتخذت الإسلام ديناً للبلاد.

في أغلب الأحوال، استمرت الممالك المحلية بالتشكل وإعادة التشكل في ظل مختلف السلالات القبلية الحاكمة، مع امتزاج الشعائر والعبادات الإسلامية بالعادات والأعراف القبلية. ومع نشوء كل دولة جديدة، كانت عاصمتها تتحول إلى مركز للثروة والتعليم الإسلامي، بحكم سعي حكامها إلى الفوز بالهيبة والاعتبار من خلال بسط رعايتهم على المتعاطين بالعلوم الدينية. ولعلّ المركز الثقافي الأوسع إلى الإعجاب حقاً، كان مدينة تمبوكتو الطوارقية الواقعة على نهر النيجر، والطوارق شريحة نسبية تركب الإبل، وقد ازدادت ثراءً من التجارة العابرة للصحراء الكبرى. كما استخدمت العبيد الأرقاء لاستعمار مناجم الملح، والأقنان المتوطنين من القبائل الإفريقية لزراعة الواحات الواقعة على امتداد الطرق التي يملكونها.

وأشهر حاكم مسلم من إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى، هو مانسا موسى، ملك مالي (1307-1332)، الذي حج إلى مكة في العام 1324-1325، محاطاً بأفخم وأعظم أبهة في زمانه، فترك وراءه انطباعاً قيض له أن يدوم طويلاً. وخلافاً للسودان النيلي حيث خربت اللغة العربية جنوباً مؤتلة فيه، انتشر الإسلام هنا باللغات العامية المحلية منذ المراحل المبكرة نسبياً. فاعتباراً من العام 1700 تقريباً، أو حتى في زمن أبكر من هذا بعد، طوّر الدارسون والمعلمون صيغة معدلة من الأيجيدية العربية لإيصال التعاليم الإسلامية بالفقلادة والهوسا، أوسع اللغات انتشاراً في منطقة غرب الساحل.

كان انتشار الإسلام في غرب إفريقيا سلمياً إلى حد بعيد، فالجهد باستخدام الجمال لأغراض النقل عبر الصحراء الكبرى في زمن يرجع إلى ما قبل عام 600 ميلادية، كان قد أرسى شبكة متنامية من مسالك القوافل بين المغرب والساحل، ذلك الحزام الشاسع من السياسات المعشبة الواقعة ما بين الصحراء الكبرى والغابات الاستوائية الغنية. سلعة التصدير الرئيسية من الجنوب، كانت الذهب من بامبوكو على ضفة نهر السنغال، التي ظلت لقرون عديدة المصدر الأول للذهب المصدر إلى المغرب

وغرب آسيا وأوروبا. وإلى جانب الذهب، كانت تجري مقايضة العبيد وجلود الحيوانات والعاج بالنحاس والفضة والمشغولات الحرفية والفاكهة المجففة والأقمشة. لكن ما هو أخطر شأناً من التجارة، كان بث الأفكار. فقد تغلغل الإسلام جنوباً بواسطة التجار والمعلمين والمتصوفة، الذين أسماهم الفرنسيون «مرايوط»، نسبة إلى

المرايطين العرب، وكان الأخيرون في الغالب من الأسر المشهورة بالتقوى والورع وتكتنفها هالة من القداسة، فكانوا يقومون بدور الوسيط والحكم المتوارث بين أبناء القبائل في الأرياف.

في القرن الحادي عشر، أقام المرابطون من قبيلة لمتونة البربرية مركزاً لهم في موريتانيا من أجل نشر الإسلام، ومن هناك خاضوا الجهاد ضد ملوك غانا، حكام أكبر وأعنى دول غرب إفريقيا على الإطلاق. والحاسة الإصلاحية الماثورة عن المرابطين، حملتهم شمالاً إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث أعادوا توحيد إمارات الأندلس الصغرى لتفادي خطر الفتح المسيحي المضاد. صحيح أنه جرت بعض عمليات «الأسلمة»

تفصل من خريطة كاتالونية يصور ملكاً متربعاً على العرش وحوله كل الرموز والشعارات الدالة على ملكوته، ربما يكون الرسم للملك مانسا موسى من مالي، الذي بهرت ثروته معاصريه حين سافر إلى مكة عام 1324-1325 لتأدية فريضة الحج.

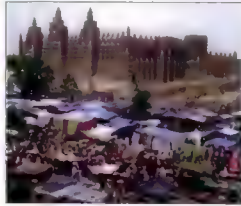


الدول الجهادية

دان فوديو (1754-1817)، الذي كان عالم دين من أسرة اشتهرت بوفرة العلماء والدارسين في مملكة غويبر الهوسية المستقلة. فبعد أن هاجم دان فوديو الملك لمزجه بين الشعائر الإسلامية والطقوس الوثنية، اتبع السيناريو الممعدى الكلاسيكي بأن هاجر إلى ما وراء حدود المملكة، قبل أن يعود ويشرن جهاداً ضد

ما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر، خرجت إلى الوجود سلسلة من الحركات الجهادية في غرب إفريقيا أدت إلى قيام عدد من الدول الإسلامية، وطرأت معها تحولات على وجود الإسلام ذاته في تلك المنطقة. وقد انطوت معظم هذه الحركات الجهادية على ثورات وتمردات قامت بها القبائل البدوية ضد حكامها المسلمين بالأسم فقط، ممن أثروا التمسك بالمفاهيم

مسجد في جنة بمالي، المسجد شُيّد على الطراز البلدي، أي من الطين المصهور، ولذلك، فهو بحاجة دائماً إلى الترميم باستخدام نفس المواد المتاحة في إنشائه.



الإفريقية التقليدية لجهة تأليه الملوك، ومزج الطقوس ذات المنشأ الوثني بمرمز مستقاة من الإسلام. أدت قيادة هذه الحركات، على جوي العادة، من طبقة العلماء المثقفة، أي من الدارسين والمعلمين والطلاب، الذين كانوا قد درسوا على مشايخ الصوفية المحليين أو اعتنقوا أفكارهم الإصلاحية في مكة والمدينة. أما أشباعهم فكانوا من رعاة الماشية من الغولاني المرتعلين جنوباً بحثاً عن الكلأ لقطعانهم، والمستائنين من الضرائب الباهظة التي يفرضها عليهم ملوك الهوسا، وقد التحق بهم فلاحون ساحلون وعبيد أبقون وسواهم من المبتدئين. واحد من هؤلاء، ويدعى إبراهيم موسى (ت 1751)، كان رجلاً متعلماً من الغولاني، انخرط في النضال ضد الحكام المحليين، وهذا ما آل إلى قيام دولة فوتا جالوني في مرتفعات سخاميبا. والحركة الجهادية، التي استغلها أبناء إبراهيم موسى للانقطاع العبيد بغرض تصديرهم إلى الخارج أو تشقيلمهم في المزارع، امتدت إلى فوتا تورو في وادي نهر السنغال. هناك أقام العلماء دولة إسلامية مستقلة، قبل أن تندمج مع النخب المحلية في الفترة التي سبقت مباشرة الغزو الفرنسي للمنطقة. وأشهر الزعماء الجهاديين في غرب إفريقيا، هو عثمان



الملك وغيره من حكام الهوسا باسم إسلام طاهر مطهر. وقد حملت دعوته في ثنائياها شحنة قوية من العدالة الاجتماعية على النسق الكلاسيكي المأثور عن النبي محمد، كما جمعت ما بين الهجوم العقائدي على الوثنية والتجديد الاجتماعي بالضرائب غير المشروعة ومصادرة الممتلكات وفرض التجنيد الإجباري واسترقاق المسلمين وبحلول عام 1808، كانت الحركة قد أطاحت بمعظم ملوك الهوسا. وفي غضون العقدين

التاليين، اتسع نطاقها لتشمل الشطر الأكبر من شمال نيجيريا وشمال الكاميرون في عام 1817، اعتزل دان فوديو العمل في الشأن العام كي يتفرغ للقراءة والكتابة والتأمل، تاركاً أمر تسيير دولته لابنه محمد بلو، الذي صار سلطاناً على سوكوتو، أقوى الإمارات الإسلامية على الإطلاق في ما أصبحت أخيراً مستعمرة نيجيريا البريطانية.

- دول الجهاد حوالي 1800
- توسع الإسلام حوالي 1800
- مركز تنظيم الإسلام
- مركز تجاري قديم
- مركز أرمنية بشهادة كهرمية
- قصر قس أسب الجهاد مع تواريقها



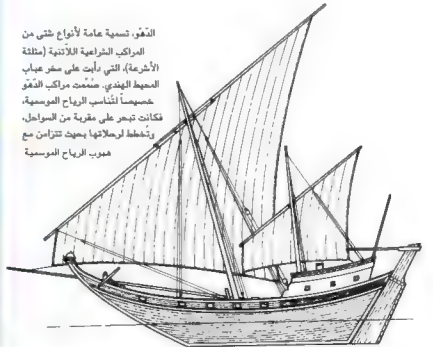
المحيط الهندي إلى العام 1499

ساحل شرق إفريقيا مروراً بموتولياس القريبة من جزيرة بمبا إلى أن يبلغ منتهاه في رايبا (التي لم يكتشف موقعها بعد، وإن كان يُظن أنها باغامويو على ساحل تنزانيا الحالية). أما الطريق الثاني، فكان ينحرف نحو السواحل الشمالية الغربية للمهند لهصل

قبل مجيء الإسلام، كان المحيط الهندي جزءاً من شبكة متداخلة ومتراكبة من طرق التجارة المحلية والإقليمية والدولية تمتد من الصين وجنوب شرقي آسيا إلى شرق إفريقيا والبحر المتوسط. كان ثمة دليل للتجارة والبحارة وُضع باللغة اليونانية في القرن الأول الميلادي بعنوان: «مسالك الإبحار في بحر إريتريا»، يصف اثنين من طرق التجارة البحرية ينطلقان من موانئ على البحر الأحمر [بحر القلزم]، مثل: مَيُوس، وفورموس، ولوك كوميه، ويرنيكه. على هذين المَطين التجاريين العائدين إلى العالم الإغريقي – الروماني القديم، كانت تُنقل سلع ومواد من قبيل الأقمشة والتوابل والعبيد إلى شركاء لهم في المناطق الساحلية في غرب المحيط الهندي. أحد هذين الطريقين كان يتجه نزولاً عبر البحر الأحمر إلى جنوب الجزيرة العربية، ماراً بموزا (المضا) وديوسكوريدس (سقطري)، نحو شمال شرقي إفريقيا (أوليس وأويوني في بلاد أقشوم بالحديثة)، ثم يحاذي



الدَّقْو، تسمية عامة لأنواع شتى من المراكب الشراعية اللاتينية (مظلة الأشعة)، التي دأبت على سفر عباب المحيط الهندي. صُنعت مراكب الدَّقْو عسباً لتناسب الرياح الموسمية، فكانت تبحر على مقربة من السواحل، وتُخطط لرحلاتها بحيث تتزامن مع هبوب الرياح الموسمية



بقوة المحركات، كانت الرياح الموسمية الشمالية الشرقية هذه تسمح لمراكب «الدھو» ذات الأشعة الضخمة المثقلة الشكل (الأشعة اللاتنية)، العربية والفارسية والهندية، بالإبحار من عدن إلى كوتشين مثلاً وقد نشرت أشعتها على نحو يضع المركب أدنى ما يمكن في اتجاه الريح، فكانت تتاجر وتتسوق على

إلى باريفازا (بروانش) ثم يتجه جنوباً نحو موزيريس كراغانور وكومار (رأس فميرين). كانت تحكم حركة تنقل البشر والبضائع دورة الرياح الموسمية المؤكدة في المحيط الهندي. تدوم الرياح الشمالية الشرقية المعتدلة، أو الرياح الموسمية الشتوية، قرابة نصف السنة (من شهر تشرين الأول/نوفمبر إلى آذار/مارس)، قبل عصر الملاحة



في القرن السابع، كانت العوالم التجارية التي جاء الدليل اليوناني، «مسالك الإبحار...» على وصفها قد اندثرت منذ أمد بعيد، ووقعت المرافئ وطُرق التجارة في غرب المحيط الهندي في حِماة التنافس المحتدم بين الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية (الفارسية).

امتداد ساحل مالبار الهندي في عكس اتجاه الريح، قيل أن تعود أدراجها وقد انتفخت أشعتها عن آخرها. أما الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التي تحمل معها الأمطار إلى غرب الهند، وتولد طقساً عاصفاً، فكان من المستحسن تجنبها قدر الإمكان.

أمور سلجوقي متربع على عرشه بحكم وجود السلاجقة عند نهاية الطرف الغربي من «طريق الحرير»، فقد أتبع لسلطانهم أن يذوقوا طعم الترف ويتنعموا بالكماليات من قوول أجود أنواع الحرير الصيني والمجوهرات من آسيا الوسطى مخطوط من القرن الثالث عشر

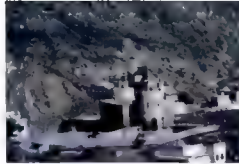


وقد استُكملت السيطرة السياسية والاقتصادية للسلالات الإسلامية الحاكمة في الشرق الأوسط على الطُّرُق التجارية في المحيط الهندي بتمامي الجاليات المسلمة وتكاثر المحطات التجارية وحتى قيام الدويلات المستقلة هنا وهناك على امتداد المناطق الساحلية. وثمة العديد منها تملك تواريخ معقدة ومتشعبة ما زالت بحاجة إلى درس وتمحيص. ف ساحل إفريقيا الشرقي بشعوبه الناطقة بالسواحلية، كانت له أواخر متعددة ومتنوعة بالجزيرة العربية والخليج والهند. فالمساجد والمقابر الإسلامية في شانتا تعود زمنياً إلى النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي، وهناك شواهد على وجود أسر حاكمة إسلامية محلية وإسكانها جيداً بالمستوطنات المسلمة على جُزُر بما وزنجبار ومافيا وكسوة في الفترة 1000-1650. والعديد من هذه المجتمعات كانت مزدهرة حين زار المنطقة الرحالة ابن بطوطة في العام 1331 من طريق مقديش.

كذلك يُعدّ ابن بطوطة مصدراً ثرياً للمعلومات بشأن وجود المسلمين على امتداد ساحل الصين الجنوبي، وصولاً إلى قوانزو (زيتون) التي وصلها عام 1347. في قوانزو توجد جبانة ومسجد (يعود تاريخه إلى العام 1009 تقريباً)، يدلّان على وجود جالية مسلمة في ذلك المرفأ التجاري. كما يُستدل على تواريخ الجاليات المسلمة في جنوب شرقي آسيا من بيانات التجارة عبر المحيطات. في القرن الخامس عشر، كان المركز التجاري في ملقا على ساحل الملايو قد برز كأهم محطة بحرية في شبكة التجارة الإسلامية الضخمة في المحيط الهندي، حتى إنه برز المراكز التجارية الأخرى في جاوه وسومطرة. كان عدد المسلمين في ملقا كبيراً جداً، وكانت لهم علاقات وارتباطات قوية بالتجار والمراعي في غرب الهند مثل كامباي (فوجارات). ومن سخرية الأقدار أن ابن ماجه، البحار الذي كان له الفضل الأكبر في إرشاد فاسكو داغاما عبر المحيط الهندي عام 1498، قدّم لنا وصفاً غير مستحب لملقا هذه. سقط المرفأ في أيدي البرتغاليين عام 1511، وذلك أرست أول قوة بحرية أوروبية دعائم وجودها المستتب في المحيط الهندي.

فقد ساند البهزنتيون الغارات الحبشية على جنوب الجزيرة العربية انطلاقاً من موانئ على البحر الأحمر، فهما ضمن الفرس سيطرتهم على الخليج (البحرين) والساحل الجنوبي للجزيرة العربية (من عدن إلى صُحار إلى دابا). وما بين هاتين الأمبراطوريتين، كانت هناك قريش، التي سكّون من أوائل المتعاطين بالتجارة البرية من المسلمين في ملائها بمكة. ابتعد المسار المبكر للفتوحات الإسلامية والتوسع الإسلامي عن المحيط الهندي واتجه أكثر نحو البحر المتوسط (بحر الروم). غير أن السلالات الحاكمة الإسلامية المتعاقبة بذلت جهودها للفوز بالهيمنة السياسية والاقتصادية على المحيط الهندي. وكان استيلاء الأمويين على ديول في بلاد السند عام 712، الخطوة الأولى في هذا السبيل. وفيما بعد، عندما أنشأ العبّاسيون عاصمتهم بقداد عام 762 على نهر دجلة وصار لها بواسطة مجراه منفذ إلى الفلوج عبر البصرة، اكتسبت التجارة البحرية الإسلامية زخماً مضاعفاً. وكذلك عمليات الاستيطان من سواحل شرق إفريقيا إلى جنوب الصين. ومشاهدات البحارة التي جُمعت في كتاب «أخبار السند والهند» (حوالي 850)، تعطينا لمحة عما كانت عليه رحلة تجارية بحرية نموذجية نهاباً وإياباً من سورا (جنوبي شيراز) إلى كانتون في الصين أيام العبّاسيين. ولنا شاهد حيّ على مجريات النشاط البحري آنذاك في الجنوب الغربي للمحيط الهندي، المستمد من الجزيرة العربية إلى شرق إفريقيا، في كتاب «مروج الذهب» للسعدي (ت 928). في عام 989، استولى الفاطميون على مصر وأسسوا مدينة القاهرة، فتكلّوا بذلك تحدياً سياسياً وتجارياً خطيراً للعبّاسيين. نجح الفاطميون في تحويل وجهة التجارة في غرب المحيط الهندي من بقداد والخليج إلى الفسطاط والبحر الأحمر. وقد صان من خلف الفاطميين، الأيوبيون أولاً ثم المماليك، الأهمية التجارية لمصر وحافظوا على الطريق التجاري الممتد من البحر الأحمر إلى غرب المحيط الهندي، هذا وتسوق لنا مجموعة «الجنيزة» القاهرة أدلةً بيّنة تظهر مدى تعدّد شبكة التّجار المتخّذين من الفسطاط قاعدة لهم، التي تصل شمال إفريقيا بالهند عبر المحيط الهندي، في الفترة الممتدة من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر.

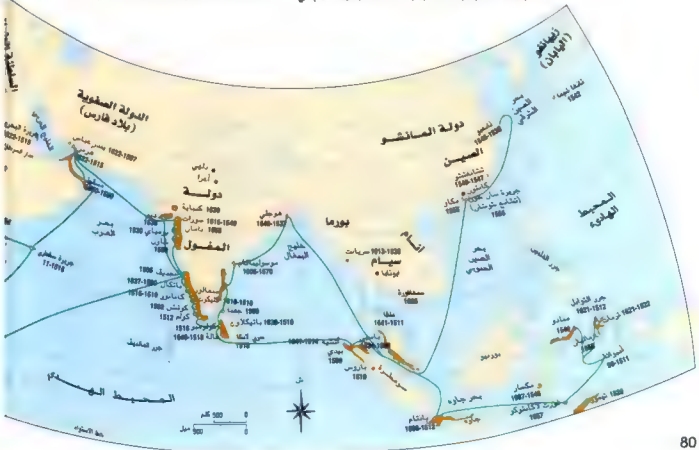
المحيط الهندي 1500 - 1900



المصن القائم عند مدخل المرفأ في مدينة مسقط، بناء في الأصل البرتغاليون خلال القرن السادس عشر في نفس الموقع لمصن أقدم عهدا استطاعت حامية الحصن البرتغالية أن تصمد في وجه هجمات الغنابيين، لكنها اضطرت إلى الاستسلام للإمام الشافعي سلطان بن سيف عام 1650

كانت رحلة فاسكو داغاما حول رأس الرجاء الصالح عام 1498 حدثاً فاتحاً لعصر جديد: حدثاً مدوياً وضع نهاية لاحتكار المسلمين التجارة في المحيط الهندي، وفتح الباب على مصراعيه لدخول الأمبراطوريتين البريطانية والهولندية إلى جنوب آسيا وجنر الهند الشرقية. وقد استهلكت حقبة الاستعمار الأوروبي بإنشاء التجار المغامرين محطات تجارية لهم في

الجوار الجنوبية، ومنها انطلقوا إلى مزيد من التوسع. كان البرتغاليون في الظليعة، فاستولوا على كلوة واستباحوا مومباسا عام 1605، قبل أن يقيموا قواعد لهم في زنجبار وعمبا. في العام 1609، هزم البرتغاليون أسطولاً مصرية - هندياً مشتركاً لاحتلال غوا على ساحل مالابار الهندي. وفي عام 1615، استولوا على ملقا، وفي العام نفسه انتزعوا هرمز المطلة على الخليج. فور أن الهيمنة البرتغالية ما لبثت أن انحسرت لصالح هيمنة الهولنديين، الذي سبق وأن حاول البرتغاليون استبعادهم من تجارة الفلفل والتوابل المربحة. تغلب الهولنديون على البرتغاليين في أمبوينا عام 1605، وهكذا انتزعوا منهم باندا عام 1621، وسيلان (سرانديب، أو سري لانكا حالياً) عام 1640، وملقا عام





المحيط الهندي، حوالي 1660

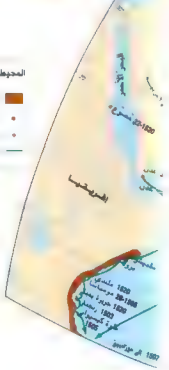
- مستعمرات هولندية
- مستعمرات برتغالية
- مستعمرات إسبانية
- مستعمرات برتغالية
- مستعمرات هولندية
- مملكة

1641. وقبل ذلك في العام 1619، تأسست باتافيا (جاكارتا الحالية)، لتصبح منذ ذلك الحين فصاعداً عاصمة جزر الهند الشرقية.

ولكن اتسم التدخل البرتغالي بالتدرج البطيء، إلا أنه تمخّص عن تحولات وتغيرات في أنماط التجارة السائدة، وكذلك في الاقتصاد السياسي للدول الإسلامية في المنطقة. ففي نهاية القرن السابع عشر كانت إنجلترا وهولندا، البلدان الصغيران القاهجان عند الطرف الغربي للقارة الأوراسية، قد صارتا (سوية مع فرنسا) القوى المهيمنة على مقدرات التجارة العالمية. فاختفت التجارة التقليدية بالسلع الكمالية لتحل محلها حمولات السفن من المواد الخام كالأخشاب والحبوب والأسماك والملح. وهذا التحول في طبيعة الحمولات أدّن حتى حدوث انقلاب أبعد أثراً انتقم العالم بوجهه إلى مستعمرات تنتج المواد الأولية، ومراكز صناعية وتجارية تنتج سلعاً وخدمات ذات قيمة عالية. وإذا ما نظرنا إليها من منظور القرن

المحيط الهندي حوالي 1580

- مستعمرات برتغالية ومملكة
- مستعمرات برتغالية
- مستعمرات برتغالية
- طريق بحري

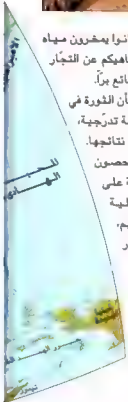




عندما أخذ البريطانيون يرشون
أقدامهم في الهند، شرعوا
باستحضار طرزهم المعمارية
العاصمة، كما نرى هنا هذه اللوحة
بالألوان المائية لإحدى الدور
المشيقة في شابرنا عام 1700.

تجّار البندقية وجنوى من كانوا يمحرون مياه
المتوسط الشرقية جيئةً وذهاباً، ناهيك عن التجّار
المسلمين الذين كانوا ينقلون البضائع برّاً.
أما ثورة البارود فكانت، شأن الثورة في
تقنيات الملاحة الشراعية، عملية تدرّجية،
وكانت مثلها بعيدة الأثر من حيث نتائجها.
فمع تطوير المدافع، لم تعد الحصون
الحجرية منيعة كفاية أو عصيّة على
السقوط. وهذا ما أعطى الأفضلية
العسكرية للقوى الحسنة التنظيم،
القادرة على تحمل أعباء الاستثمار
المكثف في مضمار المدفعية
والأسلحة الشارية. ومع استمرار
التقدّم في مجال التكنولوجيا
المسكّية، طرأ تحول على ميزان
القوى بين الطبقات المحاربة
التقليدية، التي تردّي البراعة
الحربية عندها رداء التلاحم
القبلي والشرف والسلمة

الحادي والعشرين، نستطيع القول إن رحلة فاسكو دا
غاما تمثل عملية بلغت ذروتها في «العولمة».
ثمة عاملان تقنيان دفعوا بقوة كل تلك التحوّلات،
وهما: أشرعة أفضل وملح البارود. إن وجود
البرتغاليين على الساحل الشرقي المحيط الأطلسي قد
حدا بهم إلى تطوير مراكب بحرية متينة بما يكفي
للمصود في وجه الأنواء الأطلسية العاتية، والإبحار
على مسافة أدنى من مهبط الرياح من مراكب الدفّ
العربية ذات الأشرعة اللاتنية. كانت السفن البرتغالية
أضخم بدنّاً وأكثر ثباتاً من مثيلاتها العربية أو
الفارسية، وهكذا تسوّى لها أن تنقل حمولات أكبر
وتبحر لمسافات أطول بعد. وقد جنّب المرور بالطريق
البيد الذي يدور حول جنوب إفريقيا قاصداً جزر
الهند، المرور بالمصالك التجارية المعهودة في غرب
آسيا. فكانت البضائع تُنقل من جنوب آسيا وجزر
الهند، بما فيها التوابل والأقمشة والسلع النفيسة، إلى
ليشبونة رأساً. وهذا ما عاد بالثراء على التجّار
البرتغاليين، نظراً لتقليصه عدد المستفيدين المباشرين
من التبادل التجاري بين أوروبا وآسيا. ومن هؤلاء



واليسالة (ألا وهي المناقب الكلاسيكية القديمة الماثورة عن الغزاة والفاتحين من البدو، وبين القوى الاقتصادية ذات المراكز الإدارية المعقدة القديمة بمسارية واقتناء أحدث التقنيات العسكرية. وتحت الضغط الأوروبي هذا، تكتلت الدول الإسلامية المتشرذمة التي جاءت في أعقاب الخلافة العربية والغزوات المغولية، ضمن وحدات أكبر تهيمن عليها «أميراطوريات البارود» الكبرى الثلاث، وهي: أوراسيا العثمانية، وإيران الشيعية، والهند المغولية.

المخطط الزمني: 1800-1900

مستعمرات أوروبية وأميركية
وباهية في آسيا

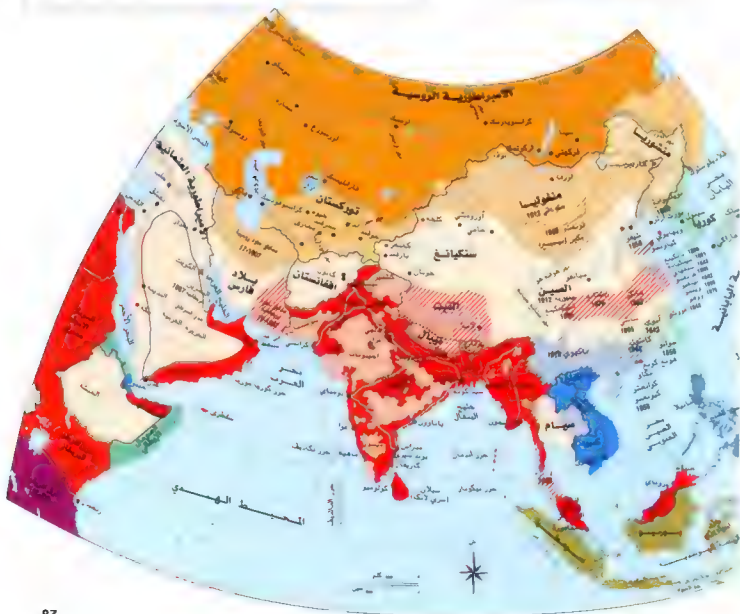
مناطق نفوذ حوالي 1907

- الامبراطورية الروسية 1865
- الامبراطورية النمساوية 1865
- الامبراطورية البريطانية 1865
- الامبراطورية الفرنسية 1865

مناطق نفوذ حوالي 1907

- بريطانية
- فرنسية
- ألمانية
- إيطالية
- ألمانية
- ألمانية
- ألمانية
- ألمانية
- ألمانية
- ألمانية

- بريطانية
- فرنسية
- ألمانية
- ألمانية
- ألمانية
- ألمانية
- ألمانية
- ألمانية
- ألمانية
- ألمانية



صمود العثمانيين حتى 1650

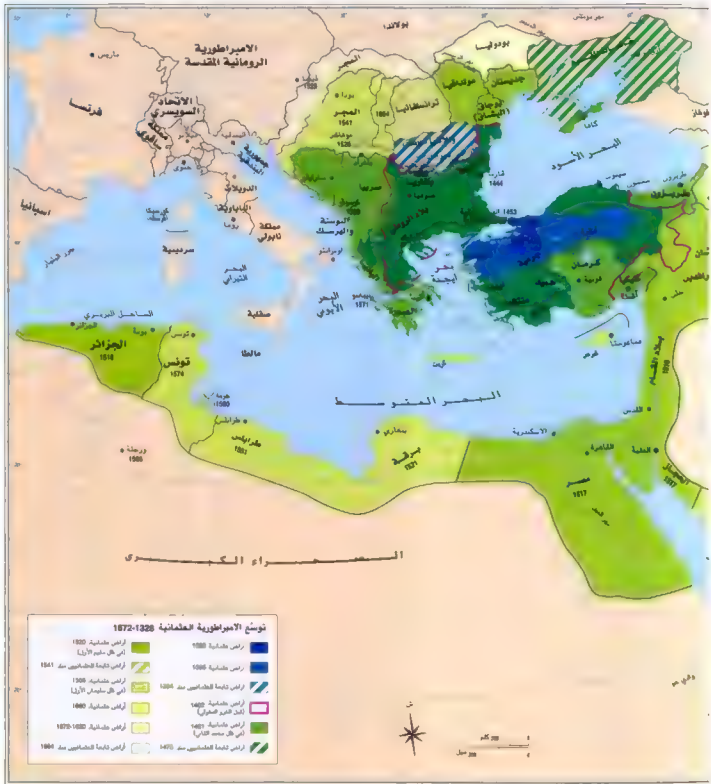
لا جدال في أن الأمبراطورية العثمانية كانت الأوسع نطاقاً والأبعد نفوذاً من بين سائر الدول الإسلامية جمعياً. فقد بدأت توسعها المذهل كإمارة حدودية تشن غارات على الأراضي البيزنطية من بلغيا بالقرب من بحر مرمرة في وقت مبكر من القرن الثالث عشر. في العام 1242-1243، أنزل المغول الهزيمة بالسلاجقة، وجعلوا منهم مقطعين تابعين لهم، وهذا ما دفع بأعداد متزايدة من البدو الأتراك إلى آسيا الصغرى بحثاً عن الكلأ والغنيمة. وأدى انهيار الدولة السلجوقية إلى نشوء عدة دويلات تحت سلطان المغول الفضفاض،

حدثت المفطرة الكبرى في التوسع العثماني إبان حكم السلطان سليمان الأول، الملقب بـ«العظيم» اللوحة أدناه تصور الأسطول البحري العثماني يُهاجم مدينة طولون الفرنسية عام 1545



ومن هنا دولة الأتراك العثمانيين، الذين انتقلوا بعد استيلائهم على بورصة واتخاذها عاصمة لهم في العام 1326، لابعين أساسيين في المباحثات الطائفية التي أملت بالأمبراطورية البيزنطية في آخر أيامها. فمقاتبتهم قوات أجنبية في خدمة الأطراف البيزنطية المختلفة، اجتاز العثمانيون المضائق بادية ذي بدء واحتلوا أراضي بيزنطة في أوروبا. وهكذا احتلوا اليونان، ومقدونيا، وبلغاريا، وأخيراً بسطوا سيطرتهم على غرب البلقان بعد أن كسروا شوكة الصرب في معركة كوسوفو في العام 1389. وقد فضلت حملات





لكنها شديدة التأثر بالثقافة اليونانية. أصبح أنها خلفت السلاجقة، إلا أنها كانت كذلك وريثة الأعراف والجنس العائدة إلى الأمبراطورية الرومانية - البيزنطية التي حلت محلها. وبحكم امتدادها بين البلقان المسيحي والتخوم الغربية لدار الإسلام، فقد عملت الدولة العثمانية كجسر بين حضارات متنافسة. ونظراً لقربها من القسطنطينية، التي طالما كانت هدفاً للفتح الإسلامي، اجتذبت السلطنة التي تحكمها أسرة «العثماني» العديد من الغزى (مفرداً غازي، وهم المحاربون الصالحاء) الساعين إلى المجد الساموي في جهاد النصارى. هؤلاء الوافدون والزعميون الأتراك اتصفوا بالتحامل على القرى والبلدات المسيحية في الأناضول، وربما يكون بعضها قد لجأ إلى الدخول في الدين الإسلامي تماشياً للاضطهاد. غير أنه كان من بين الوافدين أيضاً دراويش وأعضاء من الطوائف الصوفية من أسيا الداخلية، مثل حاجي بكطاش (ت 1297)، الذي كان ينادي بصيغة خاصة به من الإسلام تمول إلى مزج المعتقدات الإسلامية، السنية والشيعية كليهما، بالمعتقدات والممارسات المسيحية، مما سهّل على الشعوب الناطقة باليونانية والأرمنية عملية الدخول في الدين الإسلامي. وقد دعم الولاة العثمانيون هذه العملية بإبعادهم الأساقفة والمطارنة عن أبرشياتهم، الأمر الذي ترك المسيحيين بلا قادة عملياً، وكذلك باستبدالهم المؤسسات الأرثوذكسية من مستشفيات ومدارس ومهائم وأديرة بمؤسسات أخرى إسلامية يقوم على تسييرها علماء عرب وفرنس. ولم ينتقض القرن الخامس عشر إلا وكان أكثر من 90 بالمائة من سكّان الأناضول قد صاروا مسلمين، وإن بقيت ثمة أقلّيات لا بأس بها من النصارى واليهود في المدن. وإذا كان الفلاحون هم من تأسلم في الأغلب الأعم، فإن طبقة النبلاء والموظفين المدنيين المعانة إلى النظام الأمبراطوري القديم اندمجت في الجيوش والإدارات العثمانية، مما أضفى على الدولة طابعاً بهزناً مؤزراً. صحيح أن قدراً من الاستقلال الديني كان مسموحاً به عبر تطبيق النظام الملّي، الذي تحكم الأقلّيات الدينية بموجبه نفسها بنفسها. إلا أن الأمبراطورية العثمانية كانت على درجة فائقة من المركزية. وفي المناطق الإسلامية الأخرى (بما فيها بعض الولايات والسناجق

متعاقبة قامت بها أحلاف شتى بين دول لاتينية وأرثوذكسية، ومنها نابولي، والبندقية، وترانسلفانيا، وصربيا، وجنوى، في صدّ التقدم العثماني داخل أوروبا. في عام 1453، سقطت القسطنطينية في أيدي قوات محمد الفاتح، مما ألهم التطلّعات الأمبراطورية لدى العثمانيين ووفّر لهم الأرضية لمزيد من التوسّع. في عام 1521، انتزح العثمانيون بلغراد من المجرين، وبحلول عام 1529، كانوا قد وصلوا إلى أبواب فيينا، عاصمة آل هابسبورغ. ولدى وفاة سليمان العظيم (سليمان القانوني)، كان العثمانيون قد أحكموا قبضتهم على مساحة شاسعة من التراب الأوروبي تمتد من شبه جزيرة القرم إلى جنوب اليونان.

لكن انتصارات العثمانيين كانت أشدّ دويماً بعد في ديار الإسلام منها في أوروبا. فبعد أن هزموا الصفويين في كالديران عام 1514، عمداً إلى ضم شرق الأناضول وشمال بلاد الرافدين، مما أتاح لهم التحكم بطرق التجارة في آسيا الوسطى ما بين تبريز وبورصة. في العام 1516-1517، تمت للعثمانيين الغلبة على الدولة المملوكية في سورية ومصر، الأمر الذي منحهم مفاتيح السيطرة على الأماكن المقدسة في الحجاز. وبتطويرهم الفنون الملاحية اليونانية التي اكتسبوها من أسلافهم الروم، تنطّح العثمانيون لمقارعة قوة الجندقية في شرق المتوسط وتحدي سلطان إسبانيا الهابسبورغية في غرب المتوسط، واستولوا تباعاً على الجزائر (1529)، وتونس (1534-1535)، وجربة (1560)، وجزيرة مالطا الاستراتيجية. آخر معقل للصليبيين (1565)، فضلاً عن جزيرة قبرص (1570). هذه السلسلة من الانتصارات البحرية، أثارت في آخر الأمر هجوماً مضاداً ناجحاً. واستقبلت هزيمة العثمانيين البحرية في معركة ليبانت عام 1571 بحفارة بوصفها نصراً مؤزراً للعالم المسيحي. هذا ولئن أعاد العثمانيون تجديد أسطولهم البحري وانتزعوا تونس مجدداً عام 1574، إلا أن توازناً في القوى ساد المتوسط، ارتسمت معه الحدود التي بقيت تفصل الأراضي الإسلامية في الجنوب عن الأراضي المسيحية في الشمال.

ووجه المفارقة هنا أن السلطنة العثمانية في بواكير أيامها كانت إسلامية من الوجهة النضالية،



العربية التي كانت خاضعة لأشكال أقل إحكاماً من السيادة العثمانية، كان تطبيق الإسلام على صعيد القانون والمجتمع تطبيقاً ذاتياً في واقع الأمر. كان الولاة يُهيئون القضاة، لكنهم في معظم مناحي الحياة الأخرى، كانوا يدعون المؤسسات والمرافق الدينية تنمو وتزدهر على نحو مستقل، ومنها المساجد والمدارس حيث يتم إعداد رجال الدين، وشبكات الزوايا والتكايا الصوفية، ونقابات الحرفيين التي غالباً ما كانت على صلة وثيقة بها. على أية حال، إن العثمانيين، وخلافاً لأنظمة الحكم الإسلامية الأخرى، كانوا يشرفون على المجتمعات التي يحكمونها ويضبطونها ويقولون بها. فإذا كان السلاطين خاضعين نظرياً للشرعية الإسلامية، غير أنهم كانوا يُردفون الشرائع السماوية بالفروقات الهمايونية التي تتلاعب بمكانة وأجبات جميع الرعايا، بما في ذلك أحكام اللباس. لقد أخضعوا العلماء والزوايا الصوفية والنقابات الحرفية لسلطة الدولة بإملائهم التعيينات والتصنيفات والأدوات إملاءً. كان المجتمع ينقسم إلى طبقتين: طبقة الحكام وطبقة المحكومين، والفارق الرئيسي بينهما هو حق الحكام في استغلال ثروات المحكومين عبر فرض المكوس والضرائب عليهم. نظرياً، كانت الأرض كلها ملكاً شخصياً للسultan (جفتلك). والشُعب الحاكمة لم تكن محصورة فقط بالباشوات والبكوات والأعيان الذين يقبضون على مقاليد السلطة في الولايات، بل كانت تضم كذلك عائلات يونانية أرستقراطية، وسلطات كنسية، ورجال مصارف بارزين من اليهود والأرمن، فضلاً عن أسر أميرية من البلقان.

قُصد من هذا الرسم الشفهي للسultan سليمان، تقديمه إلى أتاده من ملوك أوروبا، إذ لم يفتح سلاطين بني عثمان أن يهرضوا رسومهم الشخصية على رعاياهم إلا في زمن متأخر من القرن التاسع عشر.

الأمبراطورية العثمانية 1650 - 1920

حين وصل النظام العثماني إلى أوجه في القرن السادس عشر، كان نظاماً فعالاً وغاية في النجاعة. إنما كانت تشوبه كذلك نقطة ضعف كبرى، ألا وهي نظام الوراثة. في المجتمعات التي تغلب عليها البدائية، يكون لغياب نمط محدد للوراثة منطقته الدارويني



عبد الحميد الثاني هو السلطان العثماني الأخير الذي تسنى له أن يمارس سلطة فعلية على الأمبراطورية. كان ملكاً مستبداً وعدوا للحريات السياسية، إلا أنه شجع مع ذلك الإصلاحات التعليمية والصناعية والاقتصادية

الثابت: بعد صراع بين الأنداد، يخرج زعيم يكون هو الأقدر والأصلح لقيادة القبيلة. لكن انتقال هذا المنطق إلى صلب نظام أمبراطوري معناه احتراقاً داخلياً وهكذا بعد سلسلة من التنازعات الدامية بين الإخوة، حسم العثمانيون معضلة الوراثة لديهم بأن قيّدوا حركة أقرباء السلطان من الذكور وجعلوهم حبيسي أفنية القصر الداخلية أو أجنحة الحرم، وهذا ما كان يحول دون السلطان العتيق واكتسابه أية دراية حيوية بالشؤون العسكرية والمدنية. وهكذا، بدءاً بالقرن السابع عشر، كان السلاطين العثمانيون ممن وصلوا إلى سدة السلطة عن طريق المناورات «البيرنطية» ومكائد الحرم، يستقرون إلى الخيرة في الميدان العسكري، وعلى غير دراية كافية بمقتائق السياسة وقد تعطلت سلطة الدولة والجيش لفترة وجيزة بوجود



وتمكن الروس بفضل جيشهم الذي جرى تحديثه مؤخراً في عهد بطرس الأكبر، من الاستيلاء على أزوف في شبه جزيرة القرم، ولئن استطاع العثمانيون استعادة بعض من هذه الأراضي المفقودة خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر، إلا أنهم كانوا عاجزين على المدى الأبعد عن إيقاف مد التقدم الروسي. في عام 1768، شرع الروس بحملة جديدة، فاحتلوا مولدافيا ولأشيا (شمال رومانيا) والقرم، وبموجب الشروط المهيمنة لمعاهدة «كوتشوك كينارك» المبرمة عام 1774، أُجبر العثمانيون على منح روسيا موطئ قدم على البحر الأسود، والسماح لها بحرية الملاحة والتجارة فيه مع إمكانية الوصول إلى البحر المتوسط، فضلاً عن فتح أبواب التجارة البرية أمامها في ولايات السلطنة جميعاً، الآسيوية منها والأوروبية. وفي حين ظلت مولدافيا ولأشيا تحت السلطة العثمانية من الناحية التقنية، إلا أن ما حازته من حكم ذاتي متزايد جعلها عرضة للتلاعب الروسي بهما. ولسوف يتحول بند شرطي أدخل تحت ضغط روسي يقضي ببناء كنيسة روسية في استنبول إلى حق عام في أن تتدخل روسيا لصالح جميع رعايا السلطان من المسيحيين الأرثوذكس.

بعد أن تدفق الأفكار الذي جاء في أعقاب الانتصارات الأوروبية كان، في حقيقة الأمر، أشد وقعاً وإعصاراً من الهزائم العربية. فاحتلال نابليون بوناپرت القصور الأمد لمصر عام 1798، جاء ليبدؤ بذور الفكر العلمي والتحول الجديد في أغني ولايات السلطنة، لكن أكثرها تعزساً للأهمال. لقد فتح نابليون بوناپرت الهزيمة في أمراء المصاليك الجدد، الذين يحكمون مصر تحت جناح السلطنة العثمانية، الطريق أمام تغلغل الأفكار الغربية في ظل أسرة حاكمة تأخذ بأسباب التحديث وطرائق العصرية، هي أسرة محمد علي (ح 1805-1848)، الضابط الألباني الذي استولى على السلطة عام 1805، جاعلاً من نفسه حاكماً مستقلاً في كل شيء إلا بالاسم. والطامع الاستعماري لفرنسا بعد عودة الملكية إليها، أفضى إلى خسارة العثمانيين الجزائر اعتباراً من عام 1830، وإنشاء محمية في تونس عام 1881. ورياح النزعة القومية التي عصفت بأوروبا غب الثورة الفرنسية، وصلت إلى الجاليات المسيحية في البلقان، بدءاً بثورة

وزراء اتحدت في قلوبهم الرحمة، أمثال محمد كوبرولو (ح 1656-1661)، وكان أيضاً لرجل نصراني من ألبانيا، وابنة أحمد (ح 1681-1678)، مما أتاح التوسع أكثر إلى الشمال من شبه جزيرة القرم، لا بل وضرب حصار ثائر (بعد موت أحمد) على فيينا عام 1683، لكن تبين أن سيورة الانسلاط عملية لا رجعة فيها. فتدفقت الفضة الإنسانية من الأمريكيتين خلق تضخماً هائلاً ألحق الأذى بالطبقات ذات العلاقة بالتجارة، وكذلك بقدرة الحكومة على الصرف على الجنود الذين كان سلاحهم الحديث من بنادق وبارود يتطلب مبالغ تقديراً لا غنائم حرب. وهكذا كسب ولاء المقاطعات والإيالات المحليون سلطات على حساب المركز. فاحتلوا جيوشاً خاصة لهم وضاعفوا الضرائب لجيوشهم. والإنكشارية الذين كانوا قد شكلوا كياناً يتمتع بالامتيازات داخل الدولة ذاتها، انقسموا من جانبهم في إساءة التصرف ومحاربة الأقارب على نطاق واسع، وتنازل الحكومة عن الأراضي الذي كان من المفروض أن ينشئ الزراعة، تحول إلى مزارع خراجية لا تعتمد الضرائب ليس إلا، مما دفع بالمزارعين إلى التخلي عن أراضيهم وتكوينهم عصابات من قطاع الطرق الريفيين أو من المهجرين إلى المدن المكتظة أصلاً بسكانها والمعرضة لتفشي المجاعة والأوبئة واضطراب حبل الأمن. وجاء تطبيع النظام المالي الذي يتيح للجالياتين المسيحية واليهودية (والمسيحية في العراق) درجة عالية من الاستقلال الإداري، ليقوض شرعية الدولة من خلال منحه التجار الغربيين امتيازات، وتشجيعه المسيحيين في اليونان والبلقان على التطلع نحو أعداء السلطنة - روسيا وأوروبا الغربية - طلباً للمساندة والحماية.

وبانحلال مركزيتها على الصعيد الداخلي، أثبتت السلطنة العثمانية أنها ليست صناعاً لدول أوروبا الصاعدة، التي كان نظامها العسكري والاقتصادي قد بدأ يجني الفوائد من الثورة في مضمار الفكر العلمي. وخلال العقدين الأخيرين من القرن السابع عشر، قطعت الدول الأوروبية أشواطاً بالغة الشأن على حساب الأمبراطورية العثمانية. فما بين عامي 1684 و1687، انتزعت أسرة هابسبورغ معظم أراضي المجر الواقعة شمالي الدانوب وأتبعها ببلاد الصرب عام 1689؛ واستولى البنادقة على الساحل الدالماسي وجنوب اليونان (المورية)؛ وغزت بولندا بروسيا؛

على البلقان في صورة حرب كوتية، اصطفت فيها السلطنة العثمانية إلى جانب النمسا وألمانيا في وجه بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وروسيا. وجاءت هزيمة دول المحور في العام 1918، وخلع السلطان عام 1922، وإلغاء الخلافة الإسلامية عام 1924، ناهيك عن تهاطل السكّان بين تركيا واليونان في العام 1921، لتسدل ستار النهاية على الأمبراطورية العثمانية.

قصر «هولمة بهجة» في إسطنبول. إن واجهة هذا القصر المبنى على الطراز البندقلي الكلاسيكي، شأن باقي القصور التي شُيّدت للسلطان العثمانيين في القرن التاسع عشر، لتمدّ عن حدوث تحوّل كبير في التوجّه الثقافي، إذ راحوا يتطلّون من مدّعتهم السابقة إلى المُثُلَة ويُجاهرون بما يملكون من جاه وسلطة على غرار ملوك أوروبا

الصرب (1804-1813)، فحرب الاستقلال اليونانية (1821-1829)، وبلغت ذروتها في معاهدة سان ستيفانو لعام 1878، التي أجبر العثمانيون بمقتضاها على منح الاستقلال لبُلغاريا وصربيا ورومانيا والجبل الأسود. ولم يتأجل الفصل الأخير من تقطيع أوصال السلطنة إلا بسبب التنافس بين القوى الأوروبية، وقهام بريطانيا وفرنسا بمساندة «رجل أوروبا المريض» ضد روسيا في القرم (1854-1856)، فيما راحت النمسا تتنافس وروسيا على البلقان. في عام 1911، غزت إيطاليا ولايتي طرابلس وبرقة، مكّرة العثمانيين على التنازل عنهما لها. وفي عام 1912، انتزعت القوى البلقانية مجتمعة، وهي صربيا وبلغاريا واليونان والجبل الأسود، ما تبقى من أراض عثمانية في أوروبا، باستثناء قطاع من الأرض حول إسطنبول، وذلك قبل أن يهدّب الخلاف بهتًا. وفي شهر آب/أغسطس 1914، انفجر النزاع بين الدول الأوروبية



إيران 1500 - 2000

اليهود والزرادشتيون لعمليات «أسلمة» قسرية. وجرى ثني الناس عن الحج إلى مكة والاستعاضة عنه بـ«زيارة» مزارات الأئمة الشيعة التي تُقدِّم عليها الأموال بلا حساب. وفي القرن الثامن عشر، وإثر تلك الدولة الصفوية، مرت إيران بفترة من الاضطرابات كان فيها العثمانيون والروس يسيطرون على الشمال، وعماء القبائل الأفغان والأفشار والزند والقاجار يتنافسون على السلطة في الجنوب. ولكن قام نادر شاه، الزعيم القبلي الأفشاري الذي أعلن نفسه شاهاً عام 1736، بكبح جماح العلماء الشيعة، إلا أن القلاقل التي عمت القرن التاسع عشر سمحت لأولئك العلماء بحياة قدر أكبر من الاستقلال المؤسسي بالمقارنة مع نظرائهم السنة.

وفي عهد السلالة القاجارية (1779-1925)، تعزّزت قدرات العلماء الشيعة بفضل الزكاة والشمس التي كانت تدفع إليهم مباشرة، في حين منحهم رعايتهم للمزارات والأوقاف عائداً إضافية من إيجار الأراضي والمساكن. إن وجود اثنين من أهم المزارات في كربلاء والنجف بالعراق الخاضع للسيطرة العثمانية، وفر لهم قاعدة لممارسة السلطة خارج نطاق الدولة. فشعائر الجداد التي تحيي ذكرى استشهاد الإمام الحسين في كربلاء ومجالس الغزاء المقترنة بها، أضحت معالم مُهمّة للتدين الشعبي، وجعلت من العقيدة الشيعية مكوناً أساسياً من مكونات الهوية القومية الإيرانية.

ولما بدأت الضغوط تشدّد على إيران من جانب روسيا وبريطانيا في القرن التاسع عشر، سارع العلماء إلى تصدّر الصفوف في المقاومة الوطنية. ففي العام 1873، أجبر العلماء الشاه على إلغاء امتيازات اقتصادية ومالية بعيدة الأثر كان قد منحها ل مواطن بريطاني يدعى البارون دو رويتر. وفي تسعينيات القرن التاسع عشر، قادوا حركة إضراب عمت البلاد بأسرها ضد منح بريطاني آخر، هو الميجور ثالهورث، حق احتكار التبغ. والزخم السياسي المتولد عن إضراب التبغ بلغ ذروته في الثورة الدستورية لعام 1906، حين أجبر تحالف من العلماء الليبراليين والتجار وأفراد من الشريحة المثقفة المتفردة الشاه على الدعوة لعقد جمعية وطنية والقبول بشكل من أشكال الحكم

بدأ تاريخ إيران الجديد مع السلالة الصفوية (1501-1722)، التي اتخذت من المذهب الشيعي الاثني عشري ديناً للدولة. ومؤسس الأسرة الصفوية هو الشيخ صفي الدين (1252-1334) الذي كان شيخاً صوفيّاً ومجيداً للولاء السنّي، وقد استهل حركة من الإصلاحات بين القبائل شرق الأناضول وشمال غربي إيران. أما خلفه الشاه إسماعيل (1487-1524)، فقد أحيا آمال الأخوية الشيعية في فترة الفوضى التي سادت عقب انهيار الدولة التيمورية بأن أعلن نفسه «الإمام المستور»، أو المخلص المنتظر لدى الشيعة. أتاحت هذه الحركة، وفي مقدمتها عصبة شريعية من المحاربين يعرفون بـ«القراباشي»، أي أصحاب الرؤوس الصهباء (نسبة إلى العمامة الحمراء التي كانوا يعضونها)، أتاحت للشاه إسماعيل، الذي كان أعلن نفسه ملكاً في تبريز عام 1501، بأن يخضع لأمره معظم الأراضي الإيرانية في غضون العقد التالي. بالرغم من أن سلطان الدولة الصفوية من عاصمتها الجديدة الراتنة أصفهان التي بناها الشاه عباس الأول (1588-1629)، لم يكن مطلقاً لاعتمادها في ممارسته على شبكة من «الأوقاف» (شيوخ القبائل الصغار)، وعلى نظام الإقطاع التقليدي في الزراعة الخارجية، فإن استراتيجية الاندماج الديني التي اعتمدها الصفويون منحت إيران طابعها الشيعي المميز الذي ما برحت تحتفظ به إلى يومنا هذا. ما إن أدى القراباشي المهمة المنوطة بهم حتى خفت نبرة التشديد على زعيم إسماعيل «المهدوية»، واستقدم فقهاء شيعة من العراق والبحرين والإحساء لإعلاء شأن الصيغة «الرسمية» من الشيعة الاثني عشرية، ومنذها أن عودة الإمام المهدي المنتظر متوجّلة إلى أجل غير مسمى. فقمع المذهب السنّي، ونُصّت أضرمحة الأولياء الصوفيّين، وأضردت الخانقانات لاستعمال الشباب الشيعة. كذلك تعرّض



الشاه سليمان وبعض عاصمته، فضلاً عن صفوف غربيين، يظهرون هنا على خلفية منظر طبيعي من النمط الأوروبي الشاعري. كان الحكام الصفويون يسنّون السجود والحبر إلى أوروبا، وكذلك الأتية الغربية من تصهم حرفيين مسييين إلى أسواق العرب لقد أفلخوا عن إبداء ذلك العباء الديني المعهود حيال تصوير الأشخاص بالزعم أن الإمام علي، الذي يهجه الشيعة، كان هو نفسه رسماً وعظماً أيضاً

البرلماني تلت ذلك فترة وجيزة من الحكم الدستوري، برزت خلالها إلى السطح حالة من التوتر بين العلماء المحافظين والعلماء الليبراليين، ولم تنتهِ إلا على أيدي الروس عام 1911 حين تدخلوا لإعادة حكم الشاه الأوتوقراطي ثانية.

في عام 1925، وصل إلى السلطة ضابط من كتيبة فرسان القوزاق، هو رضا خان بهلوي، وذلك بعد فترة من عدم الاستقرار أعقبت الثورة الروسية. أقام رضا شاه نظام حكم يتميز بنزعة التحديثية الجذرية، وقد سعى ذلك النظام إلى تحطيم سلطة زعماء القبائل والحد من استقلالية رجال الدين عن طريق إدخال التعليم المدني العلماني وفرض إشراف الدولة على المدارس الدينية. كذلك أقيمت المحاكم المدنية التي جردت العلماء من احتكاراتهم للشؤون القضائية، بما في ذلك معاملات تسجيل وانتقال ملكية الأراضي التي كانت تدّر عليهم أموالاً طائلة. وخلال الحرب العالمية الثانية، احتاجت بريطانيا وروسيا إلى حكومة إيرانية طيعة لتسهيل أمر وصول الإمدادات الحربية إلى الجبهة الشرقية، فأجبرتها رضا شاه على التنحي ونصبته مكانه ابنه الشاب محمد رضا بهلوي.

وبعد الحرب العالمية الثانية، صار النفط، الذي اكتشف لأول مرة في العام 1908، وتمّ تسأجيره للبريطانيين بموجب الامتيازات السخية الممنوحة لهم، محل نزاع وتنافس حين حاول رئيس وزراء إيران الوطني، محمد مصدق، تأميم شركة النفط الإنجليز - الإيرانية. وفي خضم الأزمة الناجمة عن مقاطعة شركات النفط الغربية للبترول الإيراني، تدخلت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية (سي آي إيه) لمساعدة الجيش في إعادة أسرة بهلوي إلى سدة الحكم الأوتوقراطي من جديد.

كان انهيار نظام حكم الشاه في العام 1979 وقهام الثورة الإسلامية بعيد ذلك، حصيلة مجموعة مركبة ومعقدة من العوامل الاقتصادية والثقافية والسياسية. فبدلاً من أن يعود برنامج الإصلاح الزراعي الطموح الذي نفذ الشاه في ستينيات القرن العشرين بالفائدة على صغار الفلاحين ممن يستأجرون الأرض أو ممن لا يملكون أية أرض بالمرّة، جاء محابياً للشركات الكبرى ومشاعراً الأعمال في قطاع الزراعة التي كان للعائلة المالكة مصالح أكيدة فيها. زد على ذلك أن البرنامج

المذكور عمل على تغفير رجال الدين، والعديد منهم كانوا هم أنفسهم ملاك أراضٍ ثرياء أو قِيعين على مساحات شاسعة من أراضي الوقف. والارتفاع المفاجيء في أسعار النفط بعد عام 1973، ضاعف من ثروة القطاع الاقتصادي الحضري الصغير، إنما أثر سلباً على قطاع الأعمال الصغيرة المتركة في مجتمع «ال بازار»، الوثيق الصلة برجال الدين. كذلك، فإن فساد أسرة بهلوي والقمع الوحشي الذي كان يُمارسه البوليس السري (السافاك)، أسهما في تعميق اغتراب الطبقة الوسطى المتعلّمة، ولا سيما جهل الطلاب الشباب المتأثرين بالماركسية أو بالنسخة اليسارية من الأيديولوجية الإسلامية كما كان برّج لها الدكتور علي شريعتي، ورجال علي أحمد صاحب الكراس بالغ التأثير الذي يحمل عنوان: «التقسيم الغربي». لقد شكّل النازحون من الريف إلى المدن مادة لثورة سريعة الانتشار.

بمقتضى صفة توصّل إليها الشاه مع صدّام حسين، طرد العراق رجل الدين المنقذ آية الله روح الله الخميني من الحوزة الشيعية في النجف، حيث كان يدعو في دروسه إلى إحياء الحكم الإسلامي تحت إشراف العلماء، فتلقى محاضراته أذاناً صاغية من رجال الدين والطلاب على حد سواء. ومن منفاه في إحدى ضواحي باريس، وجد الخميني منفذاً إلى وسائل الإعلام العالمية، فيما كانت الأشرطة المسجلة بصوته لقائيه وخطبه المنددة بالشاه تُورّب إلى داخل إيران. في مستهل عام 1979، وقعت سلسلة من المظاهرات الحاشدة تزامنت مع إحياء ذكرى عاشوراء، اضطّر معها الشاه إلى مغادرة البلاد إلى المنفى، فعاد عندهنّ الخميني إلى دياره ليستقبل استقبالاً صاعقاً. ولمدة عشر سنوات، أي إلى حين وفاته عام 1989، حكم الخميني الجمهورية الإسلامية بوصفه المرشد الديني الأعلى. وإنّما كان آية الله الخميني، خلف الخميني كأعلى سلطة دينية في البلاد، يعتقد إلى الجاذبية الزعامية التي كان يتمتع بها سلفه، فإن الحق المغول إلى «مجمع تشخيص مصلحة النظام» الذي يسيطر عليه في فحص واختيار المرشحين لعضوية البرلمان، قد أعاق إلى حد بعيد قدرة هذا الأخير على إدخال إصلاحات تحترمها المؤسسة الدينية منافية لمصالحها.

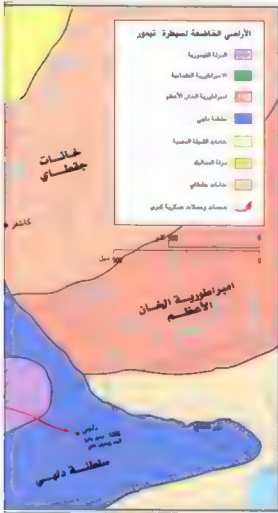
آسيا الوسطى إلى العام 1700

بذلك أمبراطورية سوف تمتد في أوجها من غرب الهند (بما في ذلك دلهي) إلى سواحل البحر الأسود. وقد طبقت شهرته الآفاق في أوروبا عندما هزم العثمانيين في أنقرة عام 1402، حيث أسر السلطان بايزيد الأول (ح 1389-1402). وهذا الظل الذي اعتسره قوة العثمانيين في الأناضول خفف من الضغط على القسطنطينية، التي ستستمر لمدة نصف قرن آخر، وأعاد فتح طريق التجارة إلى الصين. في حين ساعدت الهزيمة التي أنزلها تيمورلنك بالقبيلة الذهبية في صعود نجم روسيا المسيحية في عهد تيمورلنك وخلفه أولج بك (ح 1404-

على غرار تاريخ الهلال الخصيب حيث ظهر الإسلام، حكمت تاريخ آسيا الداخلية العلاقة ما بين الأقوام الرعوية البدوية والأقوام الحضرية المستقرة. في تلك السهوب الرحلة شبه القاحلة، الواقعة إلى الشمال من البحر الأسود وبحر قزوين، عاشت شعوب تعتمد في معاشها بالدرجة الأولى على الأبقار والغنم والماعز والغنم والإبل والياك. كانت تلك الشعوب منتظمة في جماعات قروابية أبوية أساسها العوامل والأفخاذ والبطون والعشائر وما ينجم عن اتحاديها من قبائل، كتلك التي انضوت أكبرها تحت لواء جنكيزخان وخلفائه. فبقادة ابن جنكيزخان، باتو (ح 1227-1255)، انحلت «القبيلة الذهبية»، المشكلة من أقوام مغولية - تركية عرفت بالتتار في روسيا، قاعدة لها من سراييتين (مقردها سراي، وتعني مقر البلاط) على نهر الفولغا، ومن هناك فتحت أوكرانيا وجنوب بولندا والمجر وبيلاروسيا وروسيا، حيث أقامت أمبراطورية مترامية الأطراف كان فيها الحاكم في موسكو بمثابة دافع الجزية الرئيسي. دخلت الأسر التتارية البارزة في الإسلام منذ منتصف القرن الثالث عشر بعد اتصالاتها بالشعوب المستقرة في إيران وخوارزم وبلاد ما وراء النهر، والإسلام الذي حملته التجار والدرابيش الصوفيون المتنقلون على طريق الحرير إلى مناطق آسيا الداخلية، اكتسب هناك طابعاً غريباً وتعديداً بفعل احتكاكه بالزرادشتية واليهودية والمسيحية النسطورية والديانات الشامانية الأقدم عهداً. كان لدخول ترمارشويين في الإسلام، وهو الذي حكم مدة ثماني سنوات (1326-1334) بلاد ما وراء النهر التي كان أورثها جنكيزخان لابنه جغتاي، عاقبة تمثلت بانشقاق أصاب عشيرته. وقد عرف تيمورلنك، وهو فرد حاز على احترام عشيرة التركمان الفقيرة، كيف يستثمر هذا الانشقاق بنكا. بالرغم من أنه ولد أخرج، فقد كان تيمور (أو تيمورلنك كما يُعرف في الغرب) استراتيجياً سياسياً أليماً وقائداً عسكرياً قذا طوال فترة حكمه (1370-1405). فبتوحيده بلاد ما وراء النهر وإيران (التي كانت محكومة فيما سلف من قبل الإيلخانيين، أحفاد هولاكو)، أعاد تيمورلنك السلطة التركية - المغولية إلى آسيا الوسطى، خالفاً

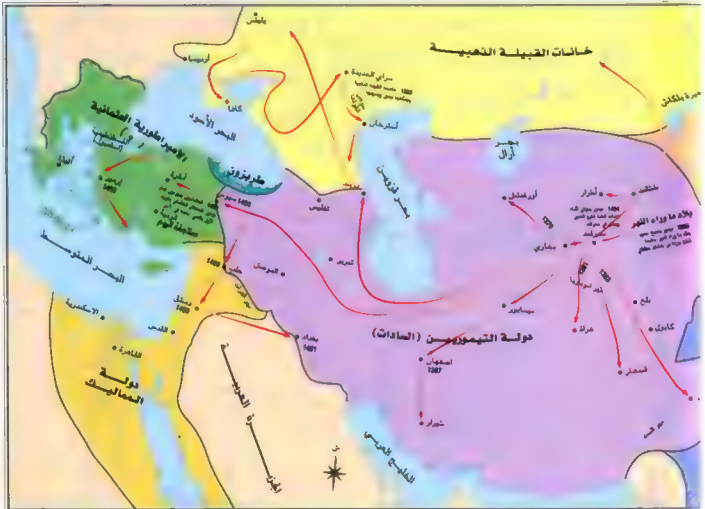


مسجد الشاه (مسجد الإمام حالياً) في أسفهان بإيران، وقد حملت منذئذته اسمي «الله» و«محمد» بأحرف هندسية بارزة. كان بناء المسجد في الفترة 1812-1830، وتلخص زخرفته الرائعة بالقبضاني الأزرق في حد ذاتها أسلوب الشاه عباس والأبهة التي كان عليها.



العالية الإسلامية، تلك الثقافة العنصرية التي سبقتها من جاء بعده وإن بمزيد من الصقل والإتقان. كما عُرف عنه تسامحه وسعة صدره في الأمور الدينية. صحيح أنه كان مسلماً سنياً قام بفتحاته باسم الشريعة ويذريعه أن أعداءه زنادقة ومرددون عن الإسلام، غير أنه حمى الشيعة من كل أنى. كما كان مشايخ الصوفية يُسدونه النصائح الروحية. وفي تلك الفترة بالذات، خرجت إلى حيز الوجود الطريقة الصوفية النقشبندية، التي سُميت كذلك نسبةً إلى بهاء الدين النقشبندى المتوفى عام 1389، والمدفون بالقرب من مدينة بخارى، لتعزب من ثم جذورها عميقاً في عموم آسيا الداخلية.

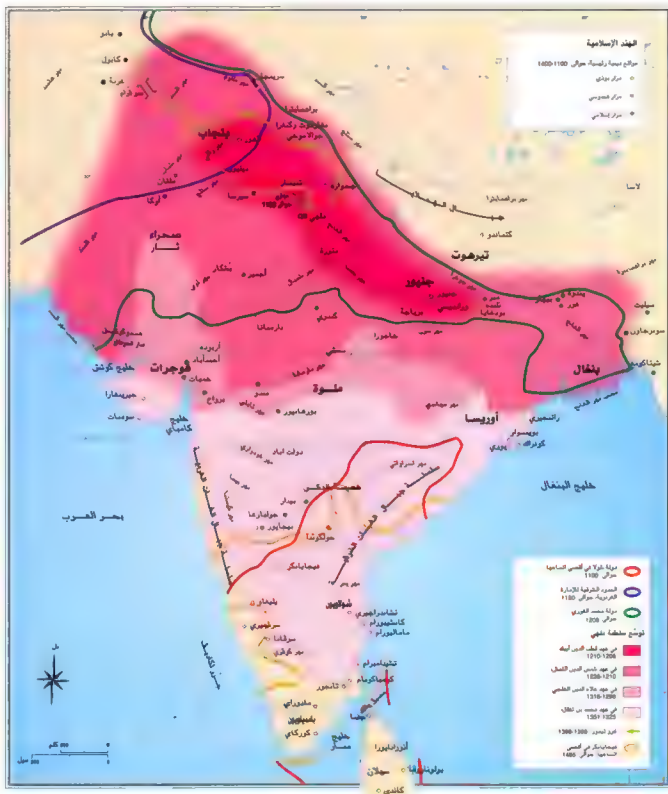
1449)، وتمت حُكم الشهبانيين الأوزبك (1500 - 1700) الذين ورثوا سلطة التيموريين في آسيا الداخلية، تحولت مدن هراة وسمرقند وبخارى إلى حواضر من الطبقة العالمية. فقد ازدهرت تلك المدن بالفنانات ويأروع ما أبدعه الحرفيون والفنانون الذين استقدمهم تيمورلنك وخلفاؤه من بلاد فارس والهند والعراق وسورية. لكن تيمورلنك، وبالرغم مما عُرف عنه من قسوة ووحشية فائقة (حتى إنه أمر بقل استسلام دلهي له بالإجهاز على آلاف الأسرى الذكور كي لا يتسنى لهم الالتحاق بأعدائه)، لم يكن بذلك المهمل الجاهل البتة. فقد كان يجيد الفارسية، ويحيط نفسه بكوكبة من أئمة العلماء والفقهاء والفنانيين والمؤرخين والشعراء في عصره؛ واضعاً المواصفات للثقافة

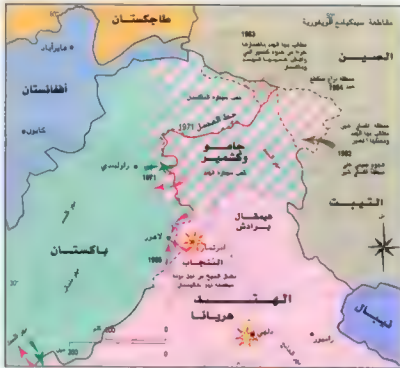


الهند 711 - 1971

المسلمين في المناصب العسكرية والإدارية، وشارك شخصياً في المهرجانات والاحتفالات المحلية، كما سمح بتشييد المعابد، وإذا كانت هناك فترة أولى تميّزت بهجرة إسلامية واسعة إلى الهند من أفغانستان وآسيا الوسطى عقب الفتوحات، إلا أن دخول السكان المحليين في الإسلام كان بطيئاً ومحدوداً نوعاً ما. فمن المشكوك فيه أن يكون أكثر من 20-25 بالمائة من سكان الهند تحولوا إلى الإسلام، مع تركّز تجمعات المسلمين في وادي السند ومنطقة الحدود الشمالية الغربية والبنغال. وفي حين كانت الطبقات الحاكمة من أصفاد المحاربين القادمين من أفغانستان وإيران وآسيا الداخلية، كان المسلمون في معظمهم من الطبقات الهندوسية الدنيا أو من الفئات القبلية والريفية التي شهدت حياتها تحسّناً بانضمامها إلى طائفة الحكّام الدينية، هذا وقد انعكس التنوّع الخصب في العقائد والعبادات والتقاليد الإسلامية بين المسلمين الهنود، سُنّة وشيعية ومتصوفة، وبعد وافر من الأشكال المختلفة، فالطابع التقندي للإسلام الهندي انعكس في التراث المعماري المهيّب حيث امتزجت «الموتيفات» البلدية، الإسلامية والهندوسية، معاً في توليفة جديدة خلّاقة. وحتى الأدب التقوي الإسلامي، بما فيه الشعر، كنّت تجده في عذر كبير من اللغات الهندية، بالإضافة إلى العربية والفارسية، وهما اللغتان اللتان كانت تُدرّسان في معاهد التعليم العالي إلى جانب علوم الشريعة وعلم العقائد والتصوف. وفي حين غلب على الطبقات الحاكمة النمط المدني من الحياة الإسلامية، الذي لا يختلف كثيراً عن الثقافة الكوزموبوليتانية في المناطق الإسلامية الأخرى كإيران وآسيا الوسطى، احتفظ المسلمون في الأرياف بتراث بلدي قوي، كثيراً ما كانت تغتفل فيه الطوقس الهندوسية بالمعتقدات والعبادات الإسلامية. وقد اضطلت الطرُق الصوفية ومشايخها بدور بالغ الأهمية على وجه الخصوص في نشر الإسلام في جنوب آسيا. ومن بين أعظم هذه الطرُق شأنًا، نذكر: الطريقة السهروردية والطريقة الششتية. وإذا كانت هاتان الطريقتان تقيمان في نظميهما تراتبية تتماشى وطبيعة المجتمع الهندي، إلا أن أدوارهما الاجتماعية لم تكن متماثلة على الإطلاق. ففي حين أبقي السهرورديون على صلات وثيقة لهم بسلاطين

ظهر الإسلام أول ما ظهر في شبه القارة الهندية مع فتح العرب لبلاد السند في الفترة 711-713. وفي القرن العاشر، تمكّن النعاة الفاطميون الآتون من القاهرة من إقناع أمراء محليين في مَلتان باعتراف المذهب الإسماعيلي. غير أن هؤلاء استبدلوا بولاة من السُنّة عيّنهم الغوريون في أعقاب اكتساح البنجاب من قبل محمود الغزنوي الذي انتهب لاهور وعاث في شمال الهند خراباً ودماراً في العام 1030. بدأت عملية الاستيلاء المنتظم على شبه القارة الهندية مع الغوريين الذين احتلوا مَلتان ولاهور ودلهي في الفترة 1175-1192، قبل أن يعمد أحد قوايهم، قطب الدين أيبك، إلى تأسيس أول سلطنة من عدة سلطات مستقلة في دلهي. وقد دامت هذه السلطنات من عام 1206 إلى عام 1526، في ظل سلسلة متعاقبة من مختلف السلالات الحاكمة. أسهمت سلطنات دلهي في إرساء الطابع المميّز للإسلام الهندي، وهو إرث تعهّدته بالرعاية إمبراطورية المغول التيموريين التي تأسست على يد حفيد تيمورلنك، بابر، عام 1526. وقد امتد الزمن بهذه الأخيرة ما يتوفى على ثلاثة قرون، إلى أن حلّها الإنجليز عقب «الثمرة أو العصيان الكبير الذي اندلع عام 1858. اشتملت إمبراطورية المغول (أو المغل) في الهند على عدد من السلالات الحاكمة الإسلامية المستقلة التي قامت في البنغال (1356-1576)، وكشمير (1346-1589)، وقوجارات (1407-1572)، والدكن (1347-1601). وكان أقصى اتساع لهذه الإمبراطورية في عهد أورانجزيب (ح 1658-1707)، حيث كان اسم هذا الإمبراطور يتردد من على منابر المساجد من كابول وحتى ميسور البعض من أوائل الحكّام المسلمين كان يتعلّظي حماسة ضد «عبدة الأوثان» ومهوساً بتحطيم التماثيل الدينية، فدمّر المعابد الهندوسية. مستبدلاً إياها بمساجد بالغة الضخامة يراود منها أن ترمز إلى السيطرة الإسلامية. غير أن سلالة آل تغلق (1320-1413) استعادت نمطاً من التسامح ساهم في إرساء رؤية تعددية للإسلام في الهند تختلف عن الأنماط الأشد صرامة وتزمتاً التي عرفتھا الأئمة الأولى. فلكي يحذ من التفوّذ السياسي للأسر الإسلامية المستتبّة، عمد مؤسس السلالة الحاكمة التغلقية، السلطان محمد تغلق (ح 1325-1351) إلى توظيف أناس من غير





النزاع على كشمير
1971-1949

باكستان

هند

باكستان

باكستان

موقع يعود إلى معبد إله الأبطال رامنا، وأقدم المتعصبين الهندوس على هدمه عام 1991، ما برح مثار تنازع وخصاص شديدين بين الهندوس والمسلمين في الهند. وهلال الاضطرابات الطائفية التي أعقبت هدم المسجد، قُتل آلاف المسلمين. ثم عادت وتكررت القصة بصورة مأساوية عام 2003، عندما هاجم مسلمون في قوجرات حُجَّاجاً هنوداً كانوا عائدتين من أيوديا، مما تسبب باندلاع نزاع طائفي واسع النطاق في المنطقة.



تاج محل في أgra بالهند (أكمل بناؤه عام 1693). يُعتبر تاج محل واحداً من أشهر الصروح المعمارية في العالم قاطبة، وهو بمثابة الرمز الحاكم للحكم المغولي في الهند بماء الأميرطور شاه جهاان تشليداً لذكرى زوجته ممتاز محل وشاه جهاان الذي كُلف عن العرش على يد ابنه أورنجزيب، مدفون فيه هو الآخر.

أعلنت الهند استقلالها عام 1947، من تشكيلة متباينة ومتفاوتة من التجمعات السكانية المسلمة المتواجدة في السند، وبلوشستان، والمقاطعة الحدودية الشمالية الغربية، والنصف الغربي من البنجاب، وشطر من البنغال: وهذا الأخير منطقة إسلامية بالأساس، ويقع على بُعد ألف ميل أو أكثر إلى الشرق، وتفصله عن سائر المناطق الباكستانية أراضي الهند. في باكستان الغربية، أكثر من نصف سكانها كانوا من أهالي البنجاب، وزهاء 20 بالمئة من أهالي السند، و13 بالمئة من البشتون، و3-4 بالمئة من البلوش، والبقية من «المهاجرين»، أي النازحين من الهند، دع عنك أقليةتين صغيرتين، إحداهما هندوسية والأخرى مسيحية. وقد نجم عن تبادل السكان الذي تلا التقسيم، حمام دم مروع قتل فيه مئات الألوف في أعمال شغب طائفية وعرقية. وتسبب النزاع العالق حول كشمير، التي احتار حاكمها الهندي الانضمام إلى الاتحاد الهندي خلافاً لرغبة السكان المسلمين، في شوب ثلاث حروب بين الهند وباكستان في الأعوام 1949 و 1965 و 1971، ناهيك عن حلقة لا تنتهي من التمرد والقمع. هذا وقد تجلّت هشاشة باكستان السياسية في تناوب سلسلة متعاقبة من الحكومات العسكرية مع فترات من الحكم الديمقراطي المتقلقل تتولاها أحزاب متهمّة بالفساد وفقدان الشرعية الإسلامية. وفي النهاية، تبين أن الجيش، الذي تمسك بزمامه طبقة من الضباط البنجابيين المدربين على أيدي البريطانيين، هو المؤسسة الوحيدة القمينة بالحفاظ على وحدة البلاد. في عام 1971، وبمساعدة عسكرية من الهند، انفصلت باكستان الشرقية عن نظيرتها الغربية لتشكل دولة بنغلاديش الإسلامية المستقلة. والعلاقة القائمة على المناكفة والمشاكسة بين الهند وباكستان، وكلتاهما الآن دولتان نوويزتان، ما برحت تنتظر التسوية والحل. إن تآكل الثقافة العلمانية في الهند من جراء الانبعاث السياسي الهندوسي والرهاب الرسمي من الإسلام الذي تتسامح به من وقت لآخر بعض الولايات، وبالأخص ولاية قوجرات، قد جعل وضعها الأقلية المسلمة المتبقية في الهند - ويبلغ تعدادها زهاء 120 مليون نسمة، أي حوالي 10 بالمئة من مجموع السكان - وضعية شديدة العطب أكثر من أي وقت مضى منذ التقسيم. إلى الآن، واللوعي الشعبي الهندي لم يستوعب تماماً الإرث الثقيل للفتوحات الإسلامية. ومصادق كلامنا أن مسجداً في أيوديا، يُقال إن مابر بنده في

التوسُّع الروسي في ما وراء القوقاز وآسيا الوسطى

القتار. ففي خمسينيات القرن السادس عشر، تأتَّى لموسكو أن تستوعب دولتي قازان وأستراخان الإسلاميتين المتمتعين بالحكم الذاتي، الأمر الذي منحها السيطرة على حوض الفولغا والسواحل الشمالية لبحر قزوين، وفتح أمامها السبيل إلى اكتساح السهوب الكازاخية. كان الكازاخيون قد خرجوا من اتحاد القبائل التركية - المغولية الذي أوجد الدولة التيمورية والدول اللاحقة، وبقي «القازاق» (أي الطغافون بحرية) سادة للسهوب. فأقام الروس سلسلة من الحصون ما بين نهري أورال وإرطيش. وهكذا تسنى لهم أن يخضعوا المنطقة بكاملها للسيطرة الروسية؛ ومن أبرز معالم هذه العملية، إلغاء خانات الكازاخيين في عشرينيات القرن التاسع عشر، إلّا أن المقاومة الكازاخية المدفوعة إسلامياً سوف تتواصل حتى العقد السادس من القرن عينه.

اتسم الحكم الروسي للسكان المسلمين في مراحله الأولى بمنتهى القسوة والبطش. فقد تعرّضت طبقة الأشراف الثقيرة للتخفيض القسري، وحرّدت من المدن المهمة، وسُحّمت أراضيها إلى التبلاء الروس والأديرة الروسية، الذين قاموا على استغلالها بواسطة الأقنان والرهبان الأرثوذكس. وقد جرى تلطيف هذه السياسة شيئاً ما في عهد الإمبراطورة كاترين الثانية (الكبيرة)، التي نظرت إلى الإسلام على أنه ذو أثر تمدني أكبر من المسيحية. فكفّلت للمسلمين حريةهم الدينية، وشيّدت المساجد برعاية الدولة، وأنشئت المؤسسات التي تتمتع بسلطات واسعة على السكان المسلمين. غير أن هذا الوضع ما كان ليدوم طويلاً. ففي شبه جزيرة القرم، التي انتزعتها روسيا من قبضة العثمانيين في العام 1783، وضع الروس أيديهم على أراضي القتار وصادروا الأوقاف لصالح المستوطنين الأوروبيين. وإلى مسافة أبعد شرقاً، سقطت الشعوب الرعوية بالأساس في أسيا الداخلية فريسة الأطماع الاستيعابية للجبرلات الروس ورغبة القيصرية في تأمين المصالح التجارية مع إيران والهند والصين، ردةً لأي تنافس بريطاني محتمل. احتكّت طشقند عام

إن التوسُّع الروسي في بلاد ما وراء النهر والقوقاز، هذا الذي سيبلغ ذروته بإدماج ما يربو على خمسين مليون مسلم ضمن الاتحاد السوفييتي، إنما بدأ أول الأمر في القرن الخامس عشر حين تخلص حكام موسكو من نهر



رسم بصور الإمام شامل الداغستاني (حوالي 1797-1871) محتلياً صورة جواده؛ من مسطورة روسية تعود إلى العام 1860. خاض شامل غمار حربٍ بطولية ضد الروس ما بين عامي 1834 و 1860، مشغولاً برعاية حميه الروسي، شيخ الطريقة النقشبندية. صحيح أنه هُزم في نهاية المطاف ونفي خارج بلاده، إلّا أن ذكره بقيت حيّة في داغستان والشيشان، تلهب العواطف وتثير سلسلة لا تنقطع من الثورات ضد روسيا وشد السوفييت حتى يومنا هذا

1885، وسمرقند عام 1888، وأجبرت بخارى على فتح حدودها للمتجار الروس. وفي شمال القوقاز، أخذ الروس نهران المقاومة التي أنهتها الطريقتان الصوفيتان النقشبندية والقادرية، فأطاحوا بالدولة الإسلامية التي أعلنها الإمام شامل عام 1859. ولم يوزع فجر القرن العشرين إلا وكان الفتح القيصري لما وراء القوقاز وآسيا الوسطى قد اكتمل عملياً.

وبدلاً من أن تؤذي الثورة البلشفية (1917-1918) إلى تفكيك الأمبراطورية القيصريّة، عملت بالأحرى على توسيعها وزيادة تماسكها. وأثر المثقفون المتأيدون بالإصلاح الإسلامي، الذين عرفوا باسم «التجديدين»، الانضمام إلى الحزب الشيوعي في نضالهم ضد المؤسسة الدينية المحافظة، يحدوهم في ذلك الأمل في أن يتمكنوا من تعديل السياسة الروسية بما يلبي حاجات السكّان المسلمين، وبطريقة صليقة من القومية الإسلامية من خلال التحالف مع روسيا السوفييتية. لكن ستالين ودعاة المركزية في الحزب أحبطوا مساعيهم هذا بمناروتهم ومكائدهم. فألقى القبض على الشخصية البارزة بينهم، وهو مير سعيد سلطان غاليف (م 1880)، في العام 1928 واحتقت آثاره بعد ذلك بفترة وجيزة. مهما يكن من أمر، فإن الشعور بوجود قيم مشتركة بين الإسلام والشوعية، كالعندلة الاجتماعية، وتقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة وأولوية المجتمع على الفرد... الخ، حدث بهم إلى العمل من أجل قضيتهم ضمن صفوف الحزب باتباع أسلوب «التيقّة». لكن سرعان ما تمّ الانفضاض على الإسلام الرسمي إبّان الثلاثينيات من القرن العشرين عندما أطلق ستالين «ثورته الثانية» من فوق. فسُكّلت المساجد إلى «اتحاد الملحدين» كي يُصار إلى تحويلها إلى متاحف أو إلى مقاصف للهو، فيها طال التحريم الفعلي ركّنين من أركان الدين الإسلامي، وهما: الحجّ والزكاة. أما حظر استعمال الحروف العربية واستبدالها بالحروف اللاتينية، ولاحقاً بالحروف السيريلية، فقد ضمناً صعوبة وصول الأجيال السوفييتية في المستقبل، قياساً بما كانت عليه الحال في الماضي، إلى تصوّر الإسلام المتعارف عليها.

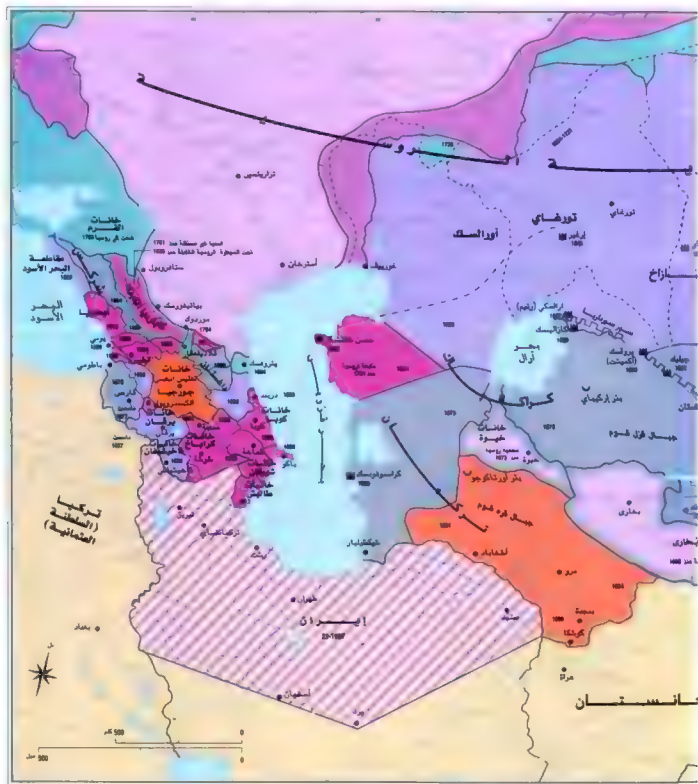
لقد جرى التصدي لأية إمكانية بقيام تضامن سياسي بين المسلمين السوفييت باتباع سياسة «فرق تسد» عن سابق تصوّر وتصميم. ودول آسيا الوسطى الحالية إنما تدّين بحدودها الإقليمية لستالين؛ فقد ردّ على خطر القومية التركية الشاملة والقومية الإسلامية الجامعة بتقسيم أراضي تركستان الروسية إلى خمس جمهوريات هي: أوزبكستان، وتركمانستان، وكازاخستان، وقيرغيزستان، وطاجيكستان، وقسم وادي فرغانة المزدهر، الواقع في قلب المنطقة والذي طالما شكّل وحدة اقتصادية واحدة، ما بين الأوزبك والطاجيك والقرغيزين وقد استلزمت السياسة التي انتهجها ستالين أن يُصار إلى التشديد على الفوارق الطيفية في اللغة والتاريخ والثقافة بين هذه الشعوب التركية في غالبيتها. وذلك بغية الوفاء بالمعيار اللينيني للقومية الذي ينصّ على وجوب أن تكون هناك لغة واحدة، وأرض موحدة، وحياة اقتصادية وثقافية مشتركة. وعلاوة على الترتيبات الجديدة المتخذة في تقسيم الأراضي بين الجمهوريات، جاء تطبيق مبادئ الصراعية والزراعة الأحادية ليقبّد حركتها إلى أبعد الحدود. فتمقتضى مخطط خروتشيف الخاص بالأراضي البكر، جرى تخصيص مساحات شاسعة من كازاخستان لإنتاج الحبوب. وحين قاوم الكازاخيون - وغالبيتهم من الرعاة - هذا المشروع، جيء بالسلافيين وأقوام أخرى للقيام بالعمل. وفي أوزبكستان، أصبحت حصة القطن من إجمالي الناتج المحلي أكثر من 60 بالمئة، وهذا ما خدم مصالح النخب العزبية الصاكمة، التي صار بعض من أفرادها ضالعين في عمليات احتيال ضخمة أساسها التزوير المتعمّد والمنظم لأرقام الإنتاج. كما ترك ذلك ذبولاً بيئية وخيمة لأنه حرم المعاصيل غير القطنية من مياه الري، وجفف الأنهار والبحيرات، بما فيها بحيرة آرال.

وبداعي الارتباك بولاء المسلمين خلال الحرب العالمية الثانية، لأن البعض منهم أبدى تعاوناً مع الألمان، قام ستالين بترحيل سكّان الشيشان وأنغوشا عن بكرة أبيهم، ومعهم جميع التتار القاطنين في القرم، إلى آسيا الوسطى.



لا شك في أن منافع كثيرة نجمت عن التصنيع والقضاء التام على الأمية. إلا أن تفهيم القوة السوفيتية بعد الجهاد الذي جوبهت به في أفغانستان، تلازم لا محالة مع انبثاق للأفكار غير الشيوعية، من قبيل النزعات القومية المحلية، والوحدة التركية الشاملة، وأشكال نشأت من الإسلام المناضل. لكن هذه الطفرة من النشاط الإسلامي في الفترة التالية لعام 1989، وبعد نصف قرن من الكبت أو يزيد، ربما تعزى جزئياً إلى التقاليد الصوفية الخفية. وحيث إن هذه التقاليد نشأت في آسيا الوسطى أساساً، فقد احتفظت بهجور لها هناك، وتمكنت الطريقة النقشبندية بالأخص من البقاء حية بالرغم من كل ما تعرضت له من حملات اضطهاد وملاحقة، إذ إن طقوسها «الصامدة» أتاحت عقد الاجتماعات تحت مسميات أخرى. أضف إلى ذلك أن شبكات الأسر القديمة، القائمة على عصبية المجموعات القرابية الممتدة، لم تندثر بل بالعكس ازدهرت من خلال الإمساك المحكم بالمؤسسات الشيوعية. وفي الشهبان حيث خاضت روسيا حربيين وحشيتين في الأعوام 1994-1996 و1999-2002، بهدف قطع دابر الحركات الاستقلالية المحلية، أرى أن في بقاء الشبكات والولاءات الصوفية بعد سبعة عقود من الحكم السوفيتي تفسيراً للنشاط المناهض للروس أكثر إقناعاً من كل ما قيل ويقال في الكرملين عن المقاتلين الإسلاميين أو «الواهابين» الذين يؤملون من الخارج.

الحاصل في آسيا الوسطى اليوم، أنه بالرغم من التراجع الروسي، وخبية الأمل العامة بالحكم السوفيتي، وانهيار الاقتصادات المحلية، استطاعت الفئات المتغذدة الشيوعية القديمة، الطفيلية والمستأثرة بالامتيازات، من التشبث بالسلطة تحت بافطة جديدة، بافطة ديمقراطية مزعومة تخفي حقيقة حكمها الديكتاتوري والبيروقراطي.



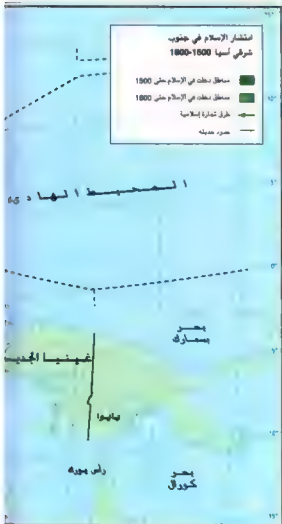
انتشار الإسلام في جنوب شرقي آسيا 1500 - 1800

فالهولندية، وأخيراً تفاوتت درجات المقاومة الناشئة عنها... إن كل ذلك قد أنتج أساليب إسلامية متغايرة وأحياناً متناقضة في أرجاء شبه جزيرة الملايو والأرخبيل الإندونيسي. ثمة قاسم مشترك بينهما، ألا وهو غزارة الأمطار الهاطلة وخصوبة التربة الاستوائية، جعل تلك الأرض أرضاً عالية الإنتاجية، مما فتح شهية المستعمرين على المحاصيل النقدية كالبنّ ولحاء المطاط. في جنوب شرقي آسيا، واجه الإسلام مجتمعات من المزارعين المستقرين، وأنظمة حكم عتيقة يتناقض تجذرها في المكان على نحو صارخ مع انسيابية وحراكية الأقوام الرعوية التي تسم

كما في سائر المناطق الطرفية بالنسبة إلى قلب العالم الإسلامي، قديم الإسلام إلى جنوب شرقي آسيا بواسطة التجارة وليس بالفتح العسكري. في بعض الحالات، كان التجار المسلمون، المتسربلون بالهالة الألفة للثقافة الإسلامية العالية، يُمَاهرون الأسر الحاكمة المحلية، فيفقدون عليها المال، ويؤدونها بالمهارات الدبلوماسية، ويعرفونها على العالم الأرحب. وقد سهّلت عملية اعتناق الإسلام على زعماء المناطق الساحلية مقاومة سلطة الأمراء الهنودس الحكيمين قبضتهم على أواسط جباوه. كما استطاع مشايخ الصوفية، القادمون من الجزيرة العربية والهند، والبعض منهم كان يتعاطى التجارة أيضاً، أن يسيطروا على التحالف الإسلامي على نحو يتسنى معه لمن نشأ وترعرع على التحالف الهنودسي أن يفهمها ويقنع بها. وطردوا مع توسع نطاق التجارة، أتاح اعتناق الإسلام للساحلات الصغيرة أن تصبح جزءاً من مجتمعات أكبر، وهذا ما انعكس بدوره إيجاباً على تطور التجارة أكثر فأكثر.

غير أن تنامي الإسلام على هذا النسق السلمي والعضوي إلى حد بعيد، اختلّ وإن لم يتراجع بظهور البرتغاليين، الذين فرضوا أنفسهم قوة بحرية كبرى اعتباراً من القرن السادس عشر. فبعد استيلائهم على غوا عام 1509، اكتسحوا ملقا في شبه جزيرة الملايو عام 1511. ومن المفارقة بمكان، أن ذلك الاحتلال ساعد في انتشار الإسلام لا العكس، بدفعه المعلمين والدعاة المسلمين إلى التقاطر على قصور الحكام في أتشيه وجاوه، التي غدت بمثابة مراكز لمقاومة البرتغاليين. كما أن ظهور الهولنديين، الذين أسسوا باتافيا (جاكارتا الحالية) عام 1619، يحدّثنا عن الفلفل وكيش القرفل وجوزة الطيب، وإن عقد المشهد بعض الشيء، إلا أنه لم يحدّث دون انتشار الإسلام أو يقلل من جاذبيته في المنطقة. لا بل إن الصراع مع الهولنديين والبرتغاليين، جنباً إلى جنب مع استمرار التوسع التجاري، كانت له نتائج عكسية. إذ حمل في طياته اتصالات بالأمبراطورية العثمانية، ووفقاً من الفقهاء والمتصوفة، أتين من الهند المغولية، ولاسيما على أتشيه.

إن الفوارق ما بين المناطق الساحلية والمناطق الداخلية، وتركة الأنظمة الملكية الهنودسية والبوذية، والمؤثرات المتباينة لمسيطرة البرتغالية فالحولندية



القول، بوجه عام، أن التراث الإسلامي في أندونيسيا متبلور في تيارين عريضين: التيار «الأينغاتي» الريفى، الذي يتيح قدرًا من التصاميم مع الأعراف المتضاربة وأحكام الشريعة الإسلامية، كإنشاط التوريت الأمومية الطابع مثلًا؛ والتيار «السانتري» الأكثر تزمًا القائم في المدن. هذا وإن كان الإسلاميون المحدثون في ماليزيا وأندونيسيا يعارضون على الصوم التقليدية والتمازج الثقافي، إلا أن الحقيقة تبقى ماثلة أمامنا، وهي أن كلا البلدين قد عرفا الثورة الصناعية التي وضعتهما في موقع متقدم بأشواط بعيدة على إيران وباكستان والبلدان العربية - الإسلامية من حيث التنمية الاقتصادية على الأقل.

التاريخ الإسلامي في آسيا الوسطى والغربية، في بعض الحالات، كانت موجات المد الإسلامي الآتية من الهند أو الجزيرة العربية تخلف وراءها بقية من طقوسات وعبادات تدخل فيها تقاليد أقدم زمنيًا. في جاوه على سبيل المثال، كان القرويون يصفون أنفسهم بالمسلمين، لكن لثقافتهم الفعلية كانت خليطًا من العناصر الإسلامية والهندوسية والإرواحية. وفي أماكن أخرى، كما في مينانغبو مثلًا، حدث بعد فترة من الانتعاش الاقتصادي في القرن الثاني عشر، أن سيطرت تيارات إصلاحية تدعو إلى المزيد من التمسك بالشريعة الإسلامية، نجت عنها مشاحنات ومنازعات اجتماعية انتهت بتوسط الهولنديين فيها ومن ثم وضع يدهم على المنطقة (1839-1845). يمكن



الأمبراطوريات البريطانية والفرنسية والهولندية والروسية

كانت التجربة الجديدة سريعة بصورة استثنائية إذ لم يحل عام 1920، حتى كانت القوى الأوروبية قد طوّقت كوكب الأرض عملياً من أقصاه إلى أقصاه، فيما خلا تلك المناطق التي عُدَّت غير مأهولة، أو فقيرة، أو نائية أكثر من اللازم بحيث لا تستأهل إدراجها ضمن المآرب الامبريالية.

وقب قساة المسلمين، ورجلين وزميتين على السواء، في صدارة الصفوف المقاومة للاحتصاح الأوروبي للعالم، ففي جابه، تَزَمَّ الأمير دهبانغارا، وكان ينتمي إلى إحدى الأعر الشاكمة التي استكانت للنفوذ الهولندي وأذعنت لضغوط المزارعين الأوروبيين، ثورة ضَمَّت فلاحين مهجرين وزعماء دينيين دامت من عام 1825 إلى عام 1830. وفي البنغال، حيث كانت شركة الهند الشرقية البريطانية تتعاطى التجارة منذ أوائل القرن السابع عشر، فحلت الهزيمة التي نزلت بحاكم محلي، هو نواب سراج الدولة، حاول تصحيح الشركة الملتوية، في معركة بلاسي عام 1757، الباب واسعاً للغزو البريطاني. وإثر هزيمة أخرى في بوكسار عام 1764، انتقلت المقاومة الإسلامية إلى مملكة ميسور الهندوسية سابقاً، المترامية الأطراف، حيث نظم حيدر علي، وهو جندي من البنجاب، قوة مقاتلة منضبطة على النسق الأوروبي بمساعدة فرنسية، وقد تمكن ابنه وريثه، تيبو سلطان (1750-1799) من إحراز انتصار باهر على الجيش البريطاني في معركة كونيغرام، بالقرب من مدراس، قبل أن يلقى حتفه في آخر المطاف عام 1799 في سرينغابام، وفي المعركة التي أنهت فعلياً كل مقاومة للحكم البريطاني في جنوب الهند. وبعد ذلك انتقل مسرح المقاومة إلى منطقة الحدود الشمالية الغربية، أو إلى داخل صفوف الجيش الهندي ذي القيادة البريطانية. ففي أواخر العشرينيات من القرن التاسع عشر، حاول سيد أحمد بارلوي (1786-1831)، الواعظ والمبشر بالتعاليم التبشيرية الإصلاحية، وكان أمضى قرابة ثلاث سنوات في مكة، أن يبعثه البشتون «الغوسفزاي» في مقاطعة الحدود الشمالية الغربية كجزء من حملة أوسع نطاقاً لإصلاح الإسلام الهندي، لكن هدفه المتمثل بإقامة دولة إسلامية على

إن الزيادة الهائلة في قُدرة واقتدار البلدان الأوروبية التي أخذت تتم لها القفلة على العالم الإسلامي منذ بدايات القرن التاسع عشر، إنما تعود بأسبابها إلى الثورة العلمية التي شهدها القرن السابع عشر، وإلى الثورة الصناعية المتولدة عنها. قبل منتصف القرن السابع عشر، كانت الحضارتان الغربية والإسلامية على قدم المساواة نسبياً، عسكرياً واقتصادياً. لكن بحلول العام 1800، كان الميزان قد مال على نحو حاسم ودائم لصالح ما صار يُنظر إليه على أنه «الغرب». إن حملة نابليون المشؤمة على مصر، لم يوقفها الممالوك الجدد الذين أدانهم طعم الهزيمة في معركة الهرامات، بل أنهاهما الأدميرال البريطاني تلسون، الذي حطَّم الأسطول الفرنسي في خليج أبو قير. ومنذ ذلك الحين فصاعداً، سيكون التفافس، العسكري والاقتصادي، بين دول أوروبا نفسها، وليس النزاع بين العالم الإسلامي والغرب، هو من سيَقَرُّ الأجندة التاريخية للشعوب المسلمة.

عديدة هي التفسيرات التي سبقت للأسباب الكامنة وراء ذلك التعاطف التصاعدي في قوة أوروبا ومنعتها. وهي تتراوح ما بين روح الرأسمالية المتأنتة عن الإصلاح الديني البروتستانتي، إلى المطالبة عن غير انتظام للثروات المجلوبة من الأميركيتين، إلى المنهجية الجزئية في إخضاع كل شيء دونما استثناء للمساءلة، تلك التي نادى بها الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت، السلف الأكبر للثورة العلمية. وأياً تكن الأسباب، فإن النتائج كانت بعيدة الأثر حقاً، وغير قابلة للرجعة. فقد راحت الرسائل الأوروبية تستلزم بانتظام، والمرتة تلو الأخرى، في تمويل الابتكارات والتجديدات التقنية في طُرُق الإنتاج الصناعية، كغزل القطن مثلاً، التي من شأنها أن تقضي بالمنافسة على طُرُق الإنتاج التقليدية. هذا بينما نشرت القوة العسكرية الأوروبية، المستفيدة من التحسينات التقنية المتواصلة، لحماية الأسواق المعدة لتصرف المنتجات المصنَّعة وتوسيعها بكل السبل الممكنة، الأمر الذي أفضى إلى انهيار الاقتصادات المحلية، وتداعي قُدرة البلدان غير الأوروبية على المقاومة. ومن منظور التجارب السابقة، تجربة الدويلات الصليبية مثلاً، وتجربة فقدان الأنطلس تدريجياً لصالح المسيحيين،

من جهة أخرى، واجه البريطانيون والفرنسيون بدورهم حركات مقاومة مشابهة في جميع أرجاء إفريقيا المسلمة. فقد قاد الأمير عبد القادر أحد مشايخ الطريقة القادرية، المقاومة ضد الحكم الفرنسي بعد استيلائه على الجزائر في العام 1830. وليس ذلك فحسب، بل إنه أقام دولة إسلامية في غرب الصحراء الكبرى، وقد دامت حتى عام 1847، حين تغلب الفرنسيون عليها آخر الأمر، وأرسلوا عبد القادر إلى المنفى. وفي العام 1881، أعلن محمد أحمد، وهو من مشايخ الفرقة السنانية من الطريقة الصوفية الخلوتية، أنه المهدي المنتظر في منطقة أعالي النيل،

تراب حُر من كل سيطرة بريطانية، أجهض على أيدي السيخ الذين هزموه في موقعة بالاكوت عام 1831. بيد أن منطقة الحدود الشمالية الغربية بقيت بؤرة لمقاومة الحكم البريطاني زمنًا طويلًا بعد رحيل بارلوي. فما بين عامي 1847 و 1908، اندلع ما لا يقل عن 60 تمردًا ضد البريطانيين. والكثير منها كان ذا نبرة «ألفية» واضحة، وجميعها تقريباً اكتسبت شرعية دينية بوصفها جهاداً ضد حكم الكفار. إن العديد من هذه الحركات المناهضة للإمبريالية الأوروبية قادها رجالٌ نشأوا وتمرسوا ضمن قواعد سلوك الطرق الصوفية وتراثيتها الهرمية. ففي

أمبراطوريات القارة الأوراسية،
حوالي 1700

- مستعمرات إسبانية
- مستعمرات برغالية
- مستعمرات بريطانية
- مستعمرات فرنسية
- مستعمرات هولندية
- مستعمرات ديمركية
- مستعمرات روسية



وشرَّ جهاداً ضد الحكومة المصرية ومن يدعمها من الأجانب، بعدما دأبت على التغلغل في المنطقة بإمرة ضباط عسكريين أوروبيين. هذا وقد لقيت الهزيمة التي حلت بخليفة المهدي في أم درمان عام 1898، تهليلاً وترحيباً من ونستون تشرشل، الذي شهد المعركة، بوصفها «أروع انتصار يُحرَّزه في أيما وقت سلاح العلم على البرابرة». «وسلاح العلم» في تلك المناسبة كان المدافع الرشاشة البريطانية. لقد كانت هذه أسلحة مألوفة استخدمت في الحملات التآديبية الصغيرة في معظم أنحاء إفريقيا خلال تسعينيات القرن التاسع عشر، غير أنها استعملت هنا لأول مرة ضد جيش يريو على خمسين ألف رجل.

القوقاز، مثلاً، خاض الإمام شامل، وكان من زعماء الطريقة النقشبندية، نصلاً مسلحاً ضد التغلغل الروسي في بلاده دام من عام 1834 إلى عام 1839. وإذا كانت الدولة الإسلامية التي أقامها شامل قد ضُمت في النهاية إلى حظيرة الأمبراطورية القيصرية، فإن ذكرها بقيت حية في وجدان أهالي داغستان والشيشان، الذين قاموا بثورات متعاقبة ضد الروس في الأعوام 1863، 1877، 1917-1919، وكذلك إبَّان الحرب العالمية الثانية، ثم ضد إدارتي بوريس يلتسين وفلاديمير بوتين ما بعد الحقبة الشيوعية. وفي ولاية برقة، أضحت الطريقة السنوسية التي تبنت سلطان العثمانيين، مصدراً للمقاومة المنظمة عقب الغزو الإيطالي لليبيا عام 1911.

الحركات الإصلاحية في القرن التاسع عشر

أريد للإسلام أن يحيا ويزدهر في أحوال عصرنا هذا، فعلى المسلمين لزماً أن يعتقدوا العلم الحديث ويأخذوا بأسباب التعليم المصري. وهكذا، أسس السيد أحمد خان (1817-1898) جامعة في علكرة، الغرض منها بناء جيش عصري من الموظفين والمعلمين والصحافيين المسلمين - ومن هؤلاء من سيقترع عندما يحين الوقت الحركة الباكستانية. وثمة مجموعة أكثر محافظة من العلماء الهنود أنشأت أكاديمية في ديوبياند عام 1867، جمعت ما بين تدريس العلوم الدينية من قرآن وحديث نبوي وشريعة إسلامية، والعلوم العقلية كالمنطق والفلسفة والعلم. وقد استطاع الديوبانديون هؤلاء من الوصول إلى كل ركن وزاوية من الهند الإسلامية، عن طريق الإفادة من شبكة السكك الحديدية الوليدة لتوزيع المطبوعات باللغة الأردية. وهذا ما جعل من ديوبياند مركزاً لمنهج جديد من الوعي الإسلامي الذي سرعان ما امتد إلى سائر البلدان، مع تقاطر العديد من الطلاب عليها آتين من أفغانستان وآسيا الوسطى واليمن، وحتى من الجزيرة العربية. وفي عام 1827، قام أحد رهباني أكاديمية ديوبياند، ويدعى مولانا محمد إلهاس، بتأسيس «جماعة التبليغ» الإصلاحية. أريد من الجماعة في الأصل أن تدلي بسهمها في هداية المواطنين، وهم جالية فلاحية تظن بالقرب من دلهي، إلى شعيرة إسلامية شديدة التزمّت تجمع ما بين الالتزام بالإسلامية والتأمل الصوفي في روح النبي محمد كما تمارس الطريقة الششتية التي ينتسب إليها إلهاس نفسه. وتعتبر «جماعة التبليغ» التي تتحاشى رسماً للتعاطي بأمور السياسة، واحدة من أسرع الحركات الإسلامية نمواً في العالم، حيث تتواجد لها فروع في أكثر من تسعين بلداً. ولعلّ أوسع المصلحين نفوذاً وأعظمهم تأثيراً في مصر، هو الشيخ محمد عبده (1849-1905)، الذي كان في الأصل من أتباع داعية الوحدة الإسلامية الجامعة المعادي لبريطانيا، السيد جمال الدين الأفغاني (1839-1897). لقد رافق عبده الأفغاني إلى منفاه في باريس بعد الاحتلال البريطاني لمصر، حيث أصدر أصدراً سوية مجلة «العروة الوثقى» باللغة العربية، التي وإن لم تتمتع طويلاً إلا أنها كانت ذات نفوذ لا يُنكر في عام 1885، تحلّ عبده من عداء مرشده للأمبريالية، وقرّر لدى عودته إلى مصر عن طريق سورية، العمل على

كان لحركات التجديد، أو الإصلاح، التي هيمنت على الفكر الإسلامي والممارسة الإسلامية منذ القرن الثامن عشر، بُعْدان: داخلي وخارجي. داخلياً، إن مثال النبي محمد في مهاجمة عبدة الأوثان في مكة باسم دين التوحيد «الأصلي» الذي علّمه الله لأدم، ومن ثم لإبراهيم وإسماعيل، وما تلا ذلك من هجرته إلى المدينة وبناؤه مجتمعاً جديداً، وتطهيره مكة من كل مظاهر الكفر والشرك يُعيد عودته مظفراً إليها، لُبّد بعد ذاته نموذجاً إرشادياً وإطاراً مرجعياً للإصلاح الديني المنشود. وقد ألهبها، على امتداد التاريخ الإسلامي، أناساً يتحمسون بالعلم والصالح يتبنون هذا النمط النبوي، فيتصدّون لحكام فاسدين أو يستبدلونهم باسم العودة إلى الإسلام الحقّ، إسلام محمد وأبنائه جيله. لقد ظهرت العديد من هذه الحركات في بحر القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: بعضها كان بمثابة ردّة فعل دينية على ممارسات مطيعة، من قبيل عادة زيارة أضرحة الأولياء ومشايخ الصوفية التي أدانها الوهابيون العرب؛ وثمة غيرها، كالحركات الإصلاحية في منطقة السنغال - غامبيا في غرب إفريقيا، اشتملت على مقاومة محلية ضدّ الشّعب السياسية غير المسلمة. فيها كانت الكثرة منها، كالحركات الجهادية في منطقة الحدود الشمالية الغربية للهند أو المهديّة في السودان النيلي، مجرد ردّة فعل ضدّ التخلّف الأوروبي.

بعد أن معظم الحركات التنصالية للمقاومة والإصلاح أبصرت النور بين أقوام قبلية تعيش على أطراف العالم الإسلامي. وحتى لو كان على رأسها رجال علم من أمثال المهدي محمد أحمد أو عثمان دان فودي، ما كان ليكتب لها النجاح ما لم تستند قوة عسكرية - قبلية. وما إن انتضح أنّ الطول العسكرية مألّفها الفضل بسبب القدرة الكاسحة التي يتمتع بها الغرب، حتى بدأ المفكّرون المسلمون بمقاربة السيناريو الإمبراطوري بطريقة عقلانية. ففهموا كانت الحركات ذات القاعدة القبلية تميّز ما بين الممارسات الدينية السلمية والبدع غير المقبولة بالمرّة، كان المصلحون العقلانيون يعملون على تجديد الإسلام من خلال التمييز بين «أصول» الإسلام التي لا تقدر بزمن معيّن وقابلة للتكيّف في كل آنّ، وبين «الفروع» التي تنطوق على ظروف بعينها. لقد أدرك المصلحون جميعاً أنّه إذا



قارطة بخارية تجر ورامها عربات
القطار المكتظة بالركاب على سكة
دارجيلنغ الضيقة (حوالي العام
1900). استغلت حركة ديوباندي
الإصلاحية شبكة السكك الحديدية
لنشر أدبيات الإسلام في أرجاء
الهلال، مما عزز شعور المسلمين
بكونهم جالية متميزة في الهند

هذا المصلح الكبير من خلال أحكامه الشرعية وكتابات ومحاضراته، وبعد وفاته من خلال دورية «النار» لنشرها مريد السوري محمد رشيد رضا، المنتمي إلى الطريقة النقشبندية الإصلاحية، التي استمرت في الصدور من عام 1897 إلى عام 1935. إن تأثير محمد عبده كمجدد للإسلام الحديث، لا يمكن الاستهانة به على الإطلاق. لنأخذ على سبيل المثال، حركة «المحمدية» التبشيرية التي تأسست على يد أحمد دحلان وتتخذ من جاوه في جنوب شرقي آسيا قاعدة لها، والتي تضم حالياً ملايين المنتسبين من كلا الجنسين؛ إنها تدين بالكثير الكثير لأفكار محمد عبده بالذات. في العالم العربي، يُعد دحلان، إلى جانب الأفغاني، المؤسس للحركة السلفية التي تستلهم مثال «السلف الصالح»، المتعارف عليه كلاسيكياً بأنه الأجيال الثلاثة الأولى من المسلمين الذين تلقوا رسالة الإسلام في سياقها الأصلي. والسلفيون المحدثون الذين يستطيعون الادّعاء بأنهم جزء من تراث عبده الفكري، يراوون ما بين الشّطاء المكافحين لإقامة دول إسلامية حديثة بوسائل العنف إذا لزم الأمر. والقوميين العلمانيين الذين يفسرون أفكار عبده بأنها تتطلب فصلاً تاماً بين المجالين السياسي والديني.

وفاق مع السلطات البريطانية، التي رأى فيها قوة ضرورية لعملية التحديث. ويعد ما ترقى في مدارج القضاء ليصبح المفتي الأكبر لمصر، سعى عبده إلى تحديث الشرع الإسلامي، وإلى إدراج مواد تعليمية مثل التاريخ الحديث والجغرافيا في مناهج الأزهر، أبرز مؤسسة تعليمية للإسلام السنّي. وقد أبدى عبده عناية استثنائية بمبدأ «المصلحة» كي يتسنى له تعديل القوانين بما يتماشى واحتياجات العصر، قائلاً بما معناه: «إذا أصبح حكم من الأحكام مهتماً لمفسدة أو ضرر لم يكن له في السابق، فحق علينا أن نهدّكه تبعاً للظروف الراهنة». آمن عبده بأن الوحي، إذا ما فهم على الوجه الصحيح، لا يتضارب أبداً مع العقل، لأن الإسلام «دين طبيعي»، خلقه الله ليلائم الشرط الإنساني. وعلى غرار أحمد خان، سعى عبده إلى التمييز بين ما هو جوهري وما هو غير جوهري في الوحي، بحيث تُصان الجوانب الجوهرية، وتنبذ الجوانب التي كانت من الوجهة التاريخية عارضة أو محدّدة بزمان معين. فعارض دونما كلل ما كان يرى فيها ترعة مُحافضة ضيقة الأفق لدى رجال الدين والعلماء التقليديين. ومثل أحمد خان كذلك، شدّد عبده على الحاجة الماسة إلى تطبيقات جديدة لمبدأ الاجتهاد بما يشجع وظروف العصر الراهن. هذا وقد انتشرت آراء

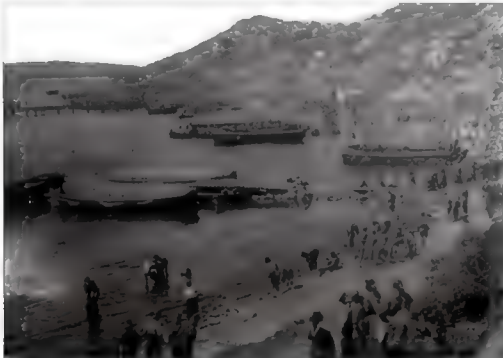
تحديث تركيا

ساندة في فرنسا أو بروسيا ما قبل الثورة، وإصلها خلفاؤه في سلسلة من البرامج عُرفت بـ «تنظيماتي خيرية» (أي التنظيمات الميمونة) وبامت قرابة أربعة عقود من عام 1839 إلى 1876. فأدخلت بمقتضاها الخدمات البريدية والبرقية الحديثة، وكذلك السفن البخارية والسكك الحديدية، إلى جانب إصلاح النظام القضائي إصلاحاً جذرياً من خلال استحداث محاكم على النمط الغربي ونشر المدونات الحقوقية. كذلك اعتُمدت مدونة جديدة للحقوق المدنية، عُرفت بـ «المجلة»، التي وإن أخذت بأحكام الشريعة الإسلامية من حيث المضمون، إلا أنها اختلفت عن العُرف المتبع بأنها كانت تطبّق من قبل محاكم الدولة.

وفي عام 1855، جرى استبدال «الجزية»، وهي الضريبة الرسمية على أتباع الأديان الأخرى، بضريبة تُستوفى مُقابل الإعفاء من الخدمة العسكرية. وهكذا قامت الحكومة المركزية الجديدة، التي كانت في طور التكوّن آنذاك، على قاعدة اجتماعية قوامها موظفون بهروقراطيون جُدد مدربين تدريباً مهنياً رفيعاً. فتمتعت الطبقة الوسطى الدينية الصغيرة بوضع اقتصادي ناهض، أتاح لها أن تتحدّى البنية السلطوية

يعود تحديث تركيا إلى قرنين من الزمن خلتها، حين حاول السلطان العثماني سليم الثالث (1789-1807) إدخال سلسلة من الإصلاحات التعليمية والعسكرية في البلاد. وقد هدّدت مساعيه هذه بالخطر مصالح رجال الدين والإنكشارية، فأقدموا على عزله. لكن بعد مزايم متكررة مُنيت بها السلطنة في القوقاز واليونان، بذل خلفه محمود الثاني (1807-1839) جهوداً متجدّدة للإصلاح بإشغاله مدارس جديدة ذات توجه غربي، وقضائه على الإنكشارية، وحلّه الطريقة الصوفية البكتاشية المرتبطة بهم. وقد ضعفت استقلالية العلماء كثيراً بوضع الدولة يدها على الأوقاف والمحاكم الشرعية والمدارس الدينية. وحدث انفصال رمزي ما بين الدين والدولة بصدر مرسوم يحظر بموجبه اعتماد العمارة: هذه العمارة التي غالباً ما كانت علامة فارقة تدل على انتساب صاحبها إلى إحدى الطُرق الصوفية. ففجعا عدا تلك التي يعتمرها العلماء الرسميون، جرى استبدال العمارة بالطربوش، تلك القبعة الأسطوانية الشكل المصنوعة من المخمل الأحمر والمستوردة من المغرب وتطلّعات محمود إلى خلق دولة ذات حكم مطلق ومركز، على النهج الذي كان

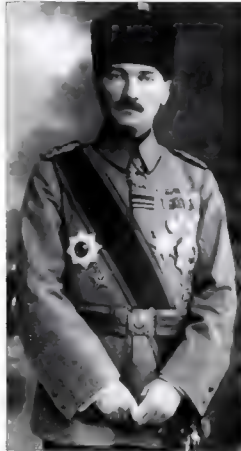
صورة اللقطات للقوات البريطانية التي نُزلت، سوية مع قوات الحلفاء الأخرى، في شبه جزيرة غاليبولي ما بين 25 نيسان/أبريل 1915 و9 كانون الثاني/يناير 1916. كان الهدف من تلك الحملة تهديد إستنبول، وفتح طريق للإمدادات المرسل إلى روسيا عبر البحر الأسود. أما القوات للتركية، فكانت يومئذ بقيادة المقدم مصطفى كمال، الذي أجهض بجرأته وحيويته خطة الحلفاء وكان لنجاحه هذا أكبر الأثر في وصوله إلى سدة الرئاسة فيما بعد



بموجبه إصلاحات «شيخ الإسلام» (المرجع الديني الأكبر في البلاد)، وفرض الإشراف الحكومي على المحاكم الشرعية والمعاهد الإسلامية. وعلى الرغم من التوجه القومي الذي صبغ حركة «تركيا الفتاة»، إلا أن هدفها كان الاحتفاظ بالنشطر الشرقي من الأمبراطورية العثمانية. وهكذا بمساعدة ألمانيا، التي كان مستشاروها العسكريون يقومون بتنفيذ جملة إصلاحات داخل القوات المسلحة، مدَّ خط سكة حديد برلين - بغداد. كذلك شهد العقد الأول من القرن العشرين بناء «خط الحجاز» الشهير الذي يربط دمشق بالمدينة، علماً بأن وصلة الخط إلى مكة لم تُنجز قط. لقد أريد من شبكة السكك الحديدية، علاوة على تسهيلها حركة انتقال الحجاج إلى الديار المقدسة الإسلامية، أن تضمن كذلك سرعة وصول القوات والإمدادات إلى داخل البلاد لإخماد التمردات القبلية في سورية والجزيرة العربية. ومع ذلك، فقد تواصل خروج المناطق من أيدي العثمانيين خلال العقد الثاني من القرن العشرين، بفقدانهم لليبيا وألبانيا ومعظم ممتلكاتهم الأوروبية في حروب البلقان، وجاءت الضربة القاصمة مع الحرب العالمية الأولى (1914-1918): فبانضمامها إلى دول المحور (ألمانيا وأustria) ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا، خسرت الأمبراطورية العثمانية ما تبقى لها من ولايات عربية أمام هجوم مثلث الشعب شنَّته بريطانيا في العراق وفلسطين، وأمام هجوم القبائل العربية بقيادة الأمير فيصل، ابن شريف مكة، وبمعاونة المغامر الإنجليزي توماس إدوارد لورانس، الشهير بـ«لورانس العرب».

لكن تركيا، وبالرغم من خسارتها ولاياتها العربية، احتفظت باستقلالها كبلد مسلم بعد الحرب العالمية الأولى بفضل جهود مصطفى كمال (لقب فيما بعد بـ«أتاتورك»، أي أبو الأتراك). كان مصطفى كمال، الضابط المنتمي إلى «تركيا الفتاة»، قد أنقذ استنبول بدفاعه المستميت عن شبه جزيرة غاليبولي في وجه إنزال القوات الأمبراطورية البريطانية في العام 1915، وبعد تشكيله حكومة قومية مؤقتة، حشد أتاتورك الشعب التركي ضد سلع قلب الأناضول عن البلاد، أو التنازل عن أية مناطق لسورية المسيطر عليها من قبل الفرنسيين، وكذلك الأمر بالنسبة إلى اليونان والأكراد والأرمن (الذين قُسمت دولتهم المقترحة في الشمال الشرقي من السلطنة عملياً ما بين تركيا والجمهورية السوفيتية الناشئة حديثاً). وبعدما هزم اليونانيين، الذين سبق وكوّنوا بمنحهم المنطقة ذات الغالبية اليونانية حول إزمير بموجب شروط معاهدة سيفر

ذات الأساس الديني للجماعات المتسربة برداء الدين. لقد غيّرت الإصلاحات التي جاءت بها «التنظيمات» الأساس السابق للمجتمع العثماني بتجريدتها المؤسسات التعليمية والقضائية الإسلامية من استقلاليتها ووضعها تحت إشراف الدولة المباشر. وكانت هذه الإصلاحات حافزاً على ظهور حركة «تركيا الفتاة» في أوساط المثقفين الراغبين في السير على النهج الأوروبي، وبالفعل، وصلت طلعة هذه الحركة، وهي «لجنة الاتحاد والترقي»، التي سبق لها أن لندست في صفوف الجيش، إلى سدة السلطة عبر



مصطفى كمال أتاتورك (1881-1938)، مؤسس دولة تركيا العلمانية الحديثة

انقلاب عسكري قامت به عام 1908. فأجبر السلطان على إعادة العمل بالدستور، الذي كان قد عُلّق عام 1876. صحيح أنه كانت هناك بعد الانقلاب حكومة برلمانية، لكنها كانت بمثابة وجهة فقط، إذ بقيت السلطة الفعلية في يد الجيش و«لجنة الاتحاد والترقي» التي شرعت بتطبيق برنامج للعلمنة الجذرية، خفّضت

عن المحاكم الشرعية، واستُبدلت أحكام الشرع الإسلامي بمدونة سويسرية للحقوق المدنية تتناسب والحاجات التركية. واعتمدت الأجدية اللاتينية للغة التركية، بعدما كانت تكتب فيما سبق بالحروف العربية، وذلك بقصد سلب تركيا عن ماضيها الإسلامي، وجعل مكافحة الأمة أسهل مثلاً. وفرض حظر تام على الطرق الصوفية، فلم تجد هذه الأخيرة منافساً من اللواذ بالسرية. كذلك حرم ارتداء الطربوش، الذي كان - ويا لسخرية الأقدار! - قد تكسر غطاء «إسلامياً» للرأس، واستُعيض عنه بالقبعة القماشية المستدقة الرأس التي كان يعتمرها العمال الأوروبيون في ذلك الحين

المدة لعام 1920، نال أتاتورك اعترافاً دولياً بسيادة تركيا التامة والناجزة على الأناضول، وأدريانوبل (أدرنة)، وتراقيا الشرقية (تركيا الأوروبية)، وذلك بحسب معاهدة لوزان الموقعة عام 1923. وقد سوى أتاتورك مشاكله مع اليونان بالجوء إلى وسيلة قاسية إنما فعالة هي تبادل السكان بين البلدين. وإن وطّد أتاتورك دعائم سلطته بوصفه «الغازي» أو المحارب المنتصر على أعداء تركيا، انكبّ بكليته على وضع برنامجيه للتحديث الجذري موضع التنفيذ. ففي عام 1923، فصلت السلطنة عن الخلافة، وأُلغيت الأولى. وفي السنة التالية، أبطلت الخلافة أيضاً، فضلاً



العالم الإسلامي تحت السيطرة الاستعمارية حوالى العام 1920

أعقاب نجاح كيتشر في القضاء على الدولة الإسلامية التي أنشأها المهدي محمد أحمد عام 1898، بسطت بريطانيا سيطرتها على السودان الأنجلو - مصري، الذي يمتد مجاله الترابي في الوقت الحاضر عميقاً داخل إفريقيا الاستوائية. وسانتراجها تنجانيقا من أمانها، أصبحت بريطانيا تتحكم بمعظم الساحل السواحلي فيما عدا ذلك القسم الذي يشكل جزءاً من الصومال الإيطالي. ومن عدن، دخلت بريطانيا في صراع مع إيطاليا المتحمكة بإريتريا للسيطرة على باب المندب - البوابة الاستراتيجية للبحر الأحمر - مع إحكام قبضتها في الوقت نفسه على المنطقة الساحلية من الجزيرة العربية الممتدة من عدن إلى البصرة؛ هذا بعدما قوّت المشيخات القائمة في جنوب الجزيرة العربية والخليج بمعاهدات قاطعة مانعة تضمن لبريطانيا الإشراف المطلق على سياساتها الدفاعية وسياساتها الخارجية.

ألت الهزيمة التي حلت بالأمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى، إلى وقوع الغالبية العظمى من المجتمعات الإسلامية تحت السيطرة المباشرة أو غير المباشرة لقوى الاستعمار الغربية. فلم يبقَ مستقلاً من الأقطار الإسلامية بحلول عام 1920 سوى تركيا، التي أعاد إليها كمال أتاتورك الحياة من جديد؛ وبلاد فارس (إيران)، التي سحتل فيها أسرة بهلوي محل السلالة القاجارية (1923)؛ وأفغانستان، الشاعمة بنظام الحكم العصري للملك أمان الله (1919-1929)؛ وشمال اليمن، الذي أحكم الإمام الزيدي يحى سطرته عليه بعد انكسار العثمانيين؛ ونجد، قلب الجزيرة العربية؛ والحجاز، أو الديار المقدسة الإسلامية التي تضم مكة والمدينة، وكان لا يزال تحت حكم الأسرة الهاشمية. أما ما تبقى من «دار الإسلام»، فكان إما خاضعاً للشكك الاستعماري المباشر أو رازحاً تحت شكل من أشكال «الحماية» الأوروبية المعترف بها دولياً. هذا وقد تم إرساء مبدئين جديدين أدخلت بموجبهما المستعمرات أو أشباه المستعمرات السابقة حظيرة النظام الدولي: الأول، ترسيم الحدود، بينها، وهذا ما كان يُصار إليه في العادة بما يلائم مصالح الدول الأوروبية؛ والثاني، يتعلق بالمشيخات المرتبطة ببريطانيا بمعاهدات ملزمة، ويقضي بـ «تجميد» الأسر الحاكمة لضمان استمرارية الحكم، وإن ليس بالضرورة على النسخ الأوروبي، أي حق الابن البكر في الوراثة. فمن شأن شرعية للوراثة أن تحول دون نشوب منازعات تمزقة ككله التي كثيراً ما تلي موت حاكم تقليدي، وأن تزد من بخلقه، كائناً ما كان، ببنود المعاهدة سارية المفعول.

لم يتقضى العقد الثاني من القرن العشرين إلا وكانت فرنسا قد أحكمت قبضتها على إفريقيا برمتها، فيما عدا قطاعات ساحلية من الصحراء الإسبانية وركن من الإسبانية. كذلك كانت إيطاليا آنذاك ماضية قدماً في توسيع نطاق سيطرتها إلى ما وراء مقاطعتي طرابلس وورقة الساحليتين، وإن لم تحقق ذلك إلا في عام 1934. أما بريطانيا، التي احتلت مصر، المركز النقابي للعالم الإسلامي، منذ العام 1882، فقد سمحت للدولة العثمانية السابقة بأن تمارس استقلالاً صورياً في ظل ملكية دستورية، إلا أنها احتفظت لنفسها بالإشراف الاستراتيجي العام عليها. وهذا ما خلق لاحقاً مفارقة صارخة: بلد محايد من الناحية الرسمية يستضيف على أرضه آلاف الجنود من بريطانيا وتوابع الأمبراطورية الأخرى خلال الحرب العالمية الثانية؛ في



| الامبريويات الأوروبية في العالم الإسلامي | |
|---|----------------------------------|
| | دولة إسلامية مستقلة، 1920 |
| | مناطق تحت حكم الاستعماري 1920 |
| | استعمار بريطاني |
| | استعمار فرنسي |
| | استعمار إيطالي |
| | استعمار برتغالي |
| | استعمار إسباني |
| | استعمار هولندي |
| | استعمار أمريكي |
| | استعمار روسي |
| | دولاد عربية تابعة |
| | مناطق ضمن نفوذ بريطاني |
| | مناطق ضمن نفوذ الفرنسي 1920-1907 |
| | مناطق إسلامية مستقلة |
| | مناطق ضمن نفوذ بريطاني |

سورية ولبنان. لقد أراد الأمير فيصل، ابن الحسين شريف مكة، الذي حرّر دمشق من تركيا العثمانية بدعم بريطاني، أن يجعل من سورية دولة عربية مستقلة وفقاً لتعهد غامض نوعاً ما كان قد تلقاه من السير هنري كيمهون، المفوض السامي البريطاني في مصر، عام 1915. لكن تبهين حالهما وضعت الحرب أوزارهما أن المصالح الإمبريالية سوف تنسج حق الأمم في تقرير مصيرها الذي أعلنه الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون كأساس للتصوية ما بعد الحرب في أوروبا. والاحتجاج على هذه المعايير المزدوجة التي سمحت بالاعتراف مجدداً بالحقوق القومية لرعايا الدول المسيحية في أوروبا (بمن فيهم التشيك والسلوفاك والمجريون واليهود والإيرلنديون، ناهيك عن رعايا الدولة العثمانية السابقين في البلقان)، وإنكار تلك الحقوق على المسلمين دون سواهم في الوقت عينه، كان لا بد من أن يلهب ويؤجج مشاعر النسخ على الاستعمار التي سرعان ما ستخرج إلى العلن في سائر ممتلكات السلطنة العثمانية السابقة.

وفي شبه القارة الهندية، احتبس البريطانيون زهاء 580 حاكماً أميرياً - بعضهم مسلمون - داخل فسيفساء من المعاهدات والاتفاقيات المختلفة التي وضعتها ورعاياهم المسلمين تحت مظلة العرش البريطاني. وفي جنوب شرق آسيا، سيطرت بريطانيا على دولات الملايو، فيما وسّعت هولندا نطاق سيطرتها إلى ما وراء مستعمراتها الأصلية في جاوه وسومطرة. وفي آسيا الوسطى المسلمة ومنطقة القوقاز، عملت الثورة الشيوعية والحرب الأهلية التي تلتها على ترسيخ أقدام موسكو هناك، في إطار نظام إقليمي جديد.

وفي قلب المشرق بالذات، شرّعت فلسطين أمام الاستيطان اليهودي بموجب شروط الانتداب الذي منح لبريطانيا من قبل عصبة الأمم. وتبعاً لنبوءات انتفاخية سايكس - بيكو السرية التي توصلت إليها بريطانيا مع فرنسا عام 1916، بسطت الأولى انتدابها (وهذا تعبير ملطّف عن الاستعمار) على شرقي الأردن والعراق، فيما فازت الثانية بالانتداب على كل من



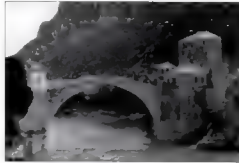
البلقان، وقبرص، وكريت 1500 - 2000

السود الأعظم من السكّان في البلقان بفضل الدعم العثماني الرسمي للمذهب الأرثوذكسي، هو ما سيجعلهم قبل غيرهم، وأكثر من رعاية السلطنة المسلمين، عرضة لمؤثرات الأفكار القومية والأفكار القومية التي اكتسحت غرب أوروبا في القرن التاسع عشر. طبقاً لإحصاء أجري ما بين عامي 1520 و1530، كان 19 بالمئة من سكّان البلقان مسلمين، و81 بالمئة مسيحيين، وكان ثمة أقلية يهودية صغيرة جداً. كان أكبر تركز للمسلمين في البوسنة (حوالي 45 بالمئة من السكان): ومعظم المسلمين كانوا يعيشون في المدن. فصولها (عاصمة بلغاريا الحالية) مثلاً، كانت تغطيها أغلبية مسلمة تناهز الـ 86,4 بالمئة.

ومع انحسار مدّ الفتوحات عن بلاد المجر الكاثوليكية، وتضاعف النزعات القومية الأرثوذكسية في كل من اليونان وصربيا ورومانيا وبلغاريا، وتقطع أوصال الأمبراطورية العثمانية في أوروبا، فقد المسلمون حمايتهم السياسية. فالعديد من فاتهم الانسحاب مع الجيوش العثمانية، تعرّضوا للمذابح أو أجبروا على اعتناق الديانة المسيحية. كما أنهم نزحوا بأعداد غفيرة بعد الحرب الروسية - التركية عام 1878، وحروب البلقان في الأعوام 1912-1914، وبُعد الحرب العالمية الأولى عندما جرى تبادل رسمي للسكّان ما بين الأتراك المسلمين القاطنين في اليونان (بما في ذلك جزيرة كريت وجُزر الدوديكانيز)، واليونانيين المتواجدين على بر الأناضول. أما قبرص التي انتزعتها العثمانيون مثل جزيرة كريت من الجنادقة في العام 1571، فقد صارت جزءاً من الأمبراطورية البريطانية بعد مؤتمر برلين عام 1878، وهذا ما حال دون الأغلبية الأرثوذكسية فيها واختيار الاتحاد مع اليونان (مطلما فعلت كريت عام 1913)، وهكذا استبعدت من عملية تبادل السكان التي تمت في العام 1920. إن الجزيرة منقسمة إلى شطرين منذ عام 1972، حين تدخلت تركيا عسكرياً لحلحلة دون حكومة عسكرية ذات مهول قومية وتوحيد الجزيرة مع اليونان.

لا تزال ألبانيا بلداً مسلماً إلى حد بعيد (70 بالمئة من سكانها مسلمون)، إنما هي كذلك بفعل الثقافة. قُبِعَ حملة طويلة الأمد لمكافحة الدين شتتها الحكومة

خلف الفتح السلجوقي، ولاحقاً الفتوحات العثمانية في البلقان، بقية من جبالها مسلمة في أوروبا. ممّن وصل أفرادها إلى هناك كمستوطنين أو ممّن اعتنقوا الإسلام عن طريق الهداية. ويعكس ما حصل عند غزو الأناضول حيث جرى التشكيل بالمؤسسات الكنسية



البيزنطية باعتبارها مزاحماً إمبراطورياً. مُنحت الكنيسة الأرثوذكسية في البلقان سلطات حقيقية وفعّالة على الجاليات المسيحية هناك. وبسبب هذا العامل متعدد، ربما لم تجر سوى عمليات «أسلمة» محدودة في البلقان المسيحية مقارنةً بما تمّ في بلاد الأناضول.

يعود تأسيس الوجود الإسلامي الدائم في أوروبا إلى المهاجرين الأتراك الذين قصدوا شمال اليونان وبلغاريا وألبانيا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ولعبت الدور الرئيسي في ذلك «التكايا» التي أقامها مشايخ من الصوفية، والتي صارت في حالات كثيرة نواة لتشكيل المجتمعات القروية. وقد سهّلت الطُرق الصوفية، كالمولوية والبكتاشية، على الناس في المناطق الريفية اعتناقهم الدين الإسلامي. إذ وجدت السبل الآيلة إلى إيصال الأفكار الإسلامية إلى عقول الفلاحين من ذوي المعتقدات المسيحية أو «الهرطوقية»، كذلك التي كان يحملها البوغوميليون، وهم أصحاب بدعة غنوصية بدائية عمّ تأثيرها الجنوب الأوروبي الكاثوليكي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. كان اعتناق الإسلام أكبر ما يكون في ألبانيا والبوسنة والهرسك وبلغاريا، ولاسيما بين البوماكيون في جبال ريديوس، الذين تمتد أراضيهم الجبلية إلى داخل دولتي اليونان ومقدونيا الحاليين. دح عنك جزيرة كريت. لكن بغاء المسيحيين يشكلون

جسر «ستاري موس» في موستار بالبوسنة والهرسك. قول أن تدمره نهراً مدغمية كروات البوسنة عام 1993. كان الجسرية من أروع آيات الهندسة المعمارية العثمانية التي كُتبت لها البقاء. اكتمل بناءه الجسر عام 1566 على يد خير الدين، تلميذ المعماري العثماني العظيم سنان. يبلغ باح الجسر 30 متراً ويرتفع 27 متراً فوق مياه نهر نرغا. وقد صان بناء الجسر من جديد رمزاً لفرص العلاقات المميّزة بين طوائف البوسنة المختلفة

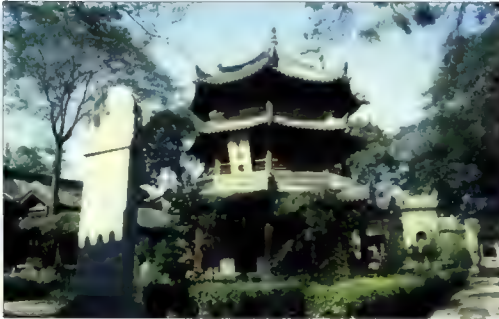
في البوسنة، يُشكّل المسلمون قُراية الـ 45 بالمئة من مجمل عدد السكّان. وقد أدّت الحرب الأهلية بين الصرب وتحالف المسلمين - الكروات، التي استمرت من عام 1991 إلى عام 1995، إلى وقوع سلسلة من الأعمال الوحشية، ليس أقلّها المذابح المنظّمة ومحاولات «التطهير العرقي»، مما حمل القوات الجوية التابعة لحلف شمالي الأطلسي على التدخل، وعجل بتوقيع اتفاقية دايتون لعام 1995 التي قُسمت البوسنة بموجبها إلى دولتين منفصلتين، واحدة مسلمة - كرواتية والأخرى صربية.

الشيعية، تلك التي أعلنت البلاد رسمياً الدولة الملحدة الأولى في العالم، تشهد المعتقدات والعبادات الإسلامية في الوقت الحاضر انتعاشاً ملحوظاً. كما بقيت هناك أقلية مسلمة كبيرة إلى حدٍ ما في بلغاريا (13 بالمئة من السكّان) حتى بعدما اضطّر الأتراك البلغاريون، الذين يُناهض عددهم الـ 800 ألف نسمة، إلى اللجوء بأعداد غير قليلة إلى تركيا من جراء حملة لا هوادة فيها قامت بها الحكومات الشيوعية وما بعد الشيوعية لـ«بلغريتهم»، بما في ذلك شطب وتغيير أسمائهم وكنائهم الإسلامية.





الأقليات المسلمة في الصين



هذه المئذنة الصينية مثال حي على قابلية العمارة الإسلامية للتكيف مع الأشكال المحلية المحلية. وخلافا لما هي عليه الحال بالنسبة للكاتدرائية أو الكنيسة، ليس هناك شكل معماري مفروض دينياً للمسجد سوى المحراب، الذي يُحدّد اتجاه القبلة أو وجهة الصلاة

حياة مميّزة لهم كإقلية مسلمة تعيش خارج حدود «دار الإسلام»، إلا أنهم ليسوا بأي حال معزولين عن التيارات الروحية التي تهبّ من قلب العالم الإسلامي. فالصوفية، مثلاً، وجدت منافذ لها إلى داخل الصين مع مشايخ الطُرُق النقشبندية والقادرية والكرامية، التي أنشأت شبكات لها من الفروع والجمعيات في كل أنحاء البر الصيني. وخلال فترات الاضطراب التي دامت من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر، ساهمت الطُرُق الصوفية آنفة الذكر في تنظيم سلسلة من الثورات والعصيان التي تزعمها مسلمون في مناطق يونان وشانغشي وكانسو وسينكيانغ. ومعظم هذه الاضطرابات كان وليد غفّر بين المسلمين أنفسهم سببه وقع الأفكار الإصلاحية الوافدة من الجزيرة العربية على مجتمعات «هوي» المحلية. ففي عام 1781، مثلاً، سبق أحد مشايخ الطريقة النقشبندية، ويدعى ما مينغشين (م 1719)، وكان قد درس في الجزيرة العربية واليمن طوال ست عشرة سنة، إلى متصّة الإعدام لتزعّمه حركة عُرفت بال«مذهب الجديد» أو «الطائفة الجديدة». وتصدّت في ذلك الوقت لبعثة تقديس الأولياء. وخلال الستينيات والسبعينيات من

تحدّرت الجاليات الإسلامية الموجودة في الصين من التجّار العرب والفرس والآسيويين (من آسيا الوسطى تحديدًا) والمغول، الذين تزوجوا من صينيات وعاشوا في الأغلب ضمن جاليات صغيرة متجمّعة حول مسجد مركزي. وأحفاد هؤلاء، بالإضافة إلى الوافدين الآخرين من منغوليا وآسيا الوسطى على مر الزمن، يُعرفون في الصين بأبناء قومية «هوي». يُشكّل «الهوي» نصف مسلمي الصين تقريباً البالغ عددهم عشرين مليون نسمة. وخلافاً للمجموعات الإسلامية الأخرى التي تميل إلى التمرّكز في مناطق محاذية لجمهوريات آسيا الوسطى، ينتشر أبناء قومية «هوي» في كل أرجاء الصين، وإن كان هناك تركّز خاص لهم في منطقة «نينغشيا هوي» ذات الحكم الذاتي. تتخرف الدولة بال«هوي» كإقلية قومية، وهي ثالث أكبر أقلية في الصين، ولها الأقلية الوحيدة التي تتحدّد بمعامل الانتماء الديني. والأقليات الإسلامية الأخرى المعترف بها رسمياً تشمل الـويغور في منطقة سينكيانغ، والـقازاق والـقيرغيز والأوزبك والتتار والطاجيك الذين تقع أوطانهم الأصلية في أراضي الاتحاد السوفييتي السابق.

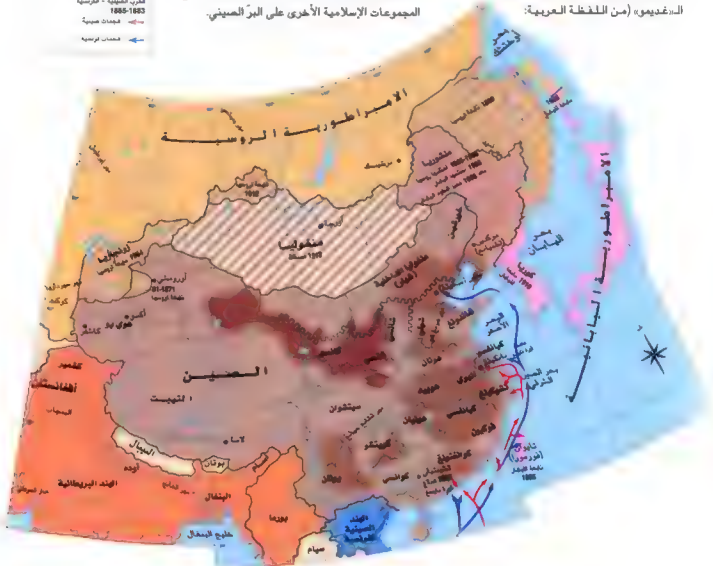
صحيح أن أبناء قومية «الهوي» استنّوا طريقة

قديم) الممثلة للأحزاب الأكثر تقليدية. غير أن هذه الجماعات الإسلامية تعرضت جميعاً للاضطهاد والقمع إبان الثورة الثقافية التي أعلنها ماوتسي تونغ (1966-1976)، ووقعت مذبحه كبرى واحدة على الأقل بحق أبناء قومية هوي في أعقاب انتفاضة لهم في مقاطعة يونان، إلا أن رعاية الدولة لحركة «إيهوان» استمرت في ظل الأجواء المريحة التي تلت وصول دنغ شياو بنغ إلى السلطة.

ويعد عودة مستعمرة هونغ كونغ إلى كنف الوطن الأم، جمهورية الصين الشعبية، نسجت الجالية المسلمة الصغيرة الموجودة فيها علاقات لها أيضاً مع المجموعات الإسلامية الأخرى على البر الصيني.

القرن التاسع عشر، قام شيخ نقشبندي آخر، ويدعى ماهوالبونغ، بتمرد ضخم عزل به إمبراطورية تشينغ (مانشو) عن شمالها الغربي، ومهد السبيل لاندلاع ثورة الويغور في سينكيانغ. وفي أزمنة قريبة منا، نشطت عند منتصف القرن العشرين حركة إصلاحية ذات توجه «هأبي» عُرفت باسمها الصيني «إيهوان» (من اللفظة العربية: إخوان)، وقد عارضت بعض الممارسات التي اعتبرت «وثنية»، من قبيل تبجيل أولياء الصوفية أو ارتداء ملابس الجداد الصينية. وقد لقيت حركة «إيهوان» في ظل الحكم الشيوعي، قدراً أكبر من الرعاية الحكومية من نظيرتها (الدغدغيمو) (من اللفظة العربية:

- الصين في ظل
سلالة مانشو
1912-1949
- سلالة عابرة
- عصر اسلامي
1673-1683
- عصر بريطاني
1841-1842
- عصر امبراطوري - روسية
1860-1880
- عصر الشيوعية - روسية
1949-1989
- عصر شيوعية
1989-1999
- عصر امبراطوري



مشاهير الرحالة المسلمين

الذي ارتحل إلى القاهرة عن طريق نيسابور والري وبحيرة وان وحلب والقدس. ومن القاهرة قام برحلتَي حجٍّ إلى مكة قبل أن يقفل راجعاً إلى آسيا الوسطى بصفته الداعي الإسماعيلي الأكبر للخليفة والإمام الفاطمي المستنصر بالله (ح 1036-1094). ولما هُوجِم خسرو على دعوته هذه من جانب جمهرة من المسلمين السنة في مدينة بلخ، بتحريرهم من الأمراء السلاجقة على أرجح الظن، لجأ إلى بدخشان في غرب جبال البامير، حيث عاش بقية حياته في حماية أمير إسماعيلي هناك. والإسماعيليون في البامير، التي تقع في شرق أفغانستان وأراضي جمهورية طاجيكستان السوفيتية السابقة، يُعظمون شأنه ويحيطونه بالتهجيل بوصفه ولهم المؤسس. وفي الأساطير المطبوعة أنه لم يهرب الناس إلى العقيدة الإسماعيلية فحسب، بل هو من أعطى قراهم وبلدانهم جميعاً أسماءها أيضاً. وفي حين تعكس أشعار ناصري خسرو حالة الوحشة التي كان يعيشها في المنفى، فإن السجية العقلانية التي تسم كتاباته الفلسفية جعلته مقبولا لدى الشيوعيين الذين استولوا على المنطقة في العام 1920، فاستبقوه معزّزاً مكرماً باعتباره بطل طاجيكستان القومي.

والقاهرة بحسب وصف خسرو لها في كتابه أنف الذكر، تعدّ قوة تحظى في الإدارة الحكيمه والعدالة. فالهرفيون هناك يتقاضون أجوراً مقبولة، الأمر الذي يحدوهم إلى تحسين نوعية منتجاتهم باستمرار. والجنود يتسلمون معاشهم بانتظام، وهذا ما يجعلهم أقل ميلا إلى التمرد بالفلاحين ومضايقتهم. والقضاة يحصلون على رواتب عالية، وبذلك تضمن نزاهتهم ويوفرون على الرعية عاقبة الفساد والخور. وإذا ما ضبط تاجر يفتن زبونا، فإنه «يوضع على ظهر جمل ويهد جرس، فيدار به في طرقات المدينة وهو يرن الجرس صائحا: اقترفتُ إثمًا كبيرا وها أنذا ألقى جزاء ما صنعت». وكل من يستغوبه الغش، يُجله العار على رؤوس الأشهاد.

الصيغة العربية من رواية الحج أو التسفار تُعرف

كان الحج إلى مكة باعثاً على ولادة جنس أدبي غني، هو أدب الرحلات. فقد كان بعض الحجاج يدونون يوميات عن رحلاتهم أو يملكون مروياتهم على كتبه مختصين، آتين على ذكر تفاصيل مذهشة تتناول كل شيء تقريباً، من أصناف الطعام إلى صروح العساة. ولعل أكثر الروايات استدعاءً للعجب والإعجاب في هذا النوع من الأدب، كتاب «سفرنامه» للشاعر والفيلسوف الفارسي ناصري خسرو (1003-1088)،

أمضى الرحالة ابن بطوطة سنة كاملة أو أكثر في جزر المالديف، حيث قبل بعد شيء من التردد منصب قاضي القضاة المعروف عليه. كان رأيُه في الناس هناك أنهم يتصفون بالانقياد والورع، لكنه استهجن خروج النساء على الملاء عاريات الصدور



والوقوف على الظروف السياسية والاجتماعية السائدة في ذلك العصر. إنها بحق نموذج حيّ للعديد من الروايات الأخرى، لعل أهمها طراً الرحلة التي قام بها أعظم الرحالة المسلمين على الإطلاق، المغربي ابن بطوطة (1304- ن 1370)، وأخذته من موطنه طنجة إلى الصين، فبالى إفريقيا جنوبى الصحراء الكبرى (بلاد الزنج)، أدّى ابن بطوطة فريضة الحج ست مرّات على الأقل في سياق رحلاته وأسفاره، والفصول الأولى مما حكاه عنها يستوفي تماماً مواصفات أدب الرحلات. لكن حيث إن رحلاته أخذت تستطيل بشكل مطّرد سواء في الزمن أم في المدى، فقد صارت روايته أكثر شمولاً وأوسع إحاطة، فجاء كتابه متضمناً وصفاً منقطع النظير للعالم المعروف آنذاك، وعلى غرار رواية

«الرحلة»، وهذا الجنس الأوسع هو من ابتداع ابن جبير الأندلسي (1145-1217)، الذي دوّن وقائع رحلة شهيرة له دامت سنتين، انطلق فيها من غرناطة في شهر شباط/فبراير 1183 قاصداً مكة. وهناك أقام ابن جبير تسعة أشهر قبل أن يعود من الديار المقدسة الإسلامية عن طريق العراق وعكا، حيث صعد على متن سفينة جنوبية متجهة إلى صقلية. وبعد أن كتبت له النجاة إثر غرق السفينة في مضائق مسينا، استقلّ مركباً آخر في تراباني ووصل سالماً إلى غرناطة في نيسان/إبريل 1185. تسوق لنا رواية ابن جبير فيضاً من المعلومات والحقائق عن الأقطار والأمصار التي مرّ بها، وتُشكل مرجعاً لا يُقدّر بثمن لمعرفة أحوال الصليبيين ووضع الملاحة في البحر المتوسط.



يُمكّنها أن تتأل من سبعة ابن بطوطة بوصفه واحداً من أعظم الرحّالة في كل العصور. إنّ الثروة من المعلومات التي تركها للأجيال القادمة جميعاً عن العالم في عصره، ليس لها نظير في الواقع. فمثل الرحّالة العظيم كافة، تُخبرنا ملاحظاته ومشاهداته الشيء الكثير عن عالمه الاجتماعي بقدر ما تُخبرنا عن البلاد التي زارها وطاف في أرجائها. كانت له عين حاذقة تلتقط أدق التفاصيل. وقصوده يأخذ قارئه إلى ما وراء مظاهر الحياة المألوفة؛ وكل جملة من جملة تنطوي على قدر غير يسير من التساؤل والاستفهام كهذه الجملة: «وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبهجونها في أسواقهم، وهم أهل رفاهة وسعة عيش. إلّا أنهم لا يحتفلون في مطعم ولا مجلس، وترى التاجر الكبير منهم الذي لا تحصى أمواله كثرة عليه جبة قطن خشنة». والتباين هنا تام مع ما كان

ماركو بولو الذي لا تقل عن روايته شهرة، لم يدونها ابن بطوطة بقلمه هو، بل أملاه على معاونه. هو الكاتب والدارس الغرناطي ابن جزي (1321-1356). فقد سجل ابن جزي مرويّات ابن بطوطة في كتاب بنّاه على إيعاز من أمير فاس، أبو عيّن (ح) 1349-1358. وفي الوقت الذي كان فيه الكتاب قيد التدوين، كان الجنس الأدبي، أدب الرحلات، قد استتبّ فعلاً بين صفوف المتعلمين، فنارت التساؤلات هنا، كما بشأن سجل روايات الأسفار الأخرى، حول بعض ما جاء في وصف ابن بطوطة، وهل يُمكن الركون إليه. يلمّح باحث عصري إلى أن ابن جزي ربما يكون قد «اشتط كثيراً في الميل إلى الغرائبية، بهنما العمل الأصلي كان بالتأكيد أكثر اعتدالاً». فتصرّف من عنده في بعض ما حكاه ابن بطوطة لأسباب ربما لها علاقة بالأسلوب. غير أن مراوغات الكتبة والأعييب لا



بريطانيا في مصر والسودان خلال القرن التاسع عشر



لقي الجنرال تشارلز جورج غوردون، الملقب بـ«السنوي» (1833-1885)، حتفه على أيدي قوات المهدي فوق الدرج المؤدي إلى مقر الحاكم في الخرطوم بعد حصار دام خمسة أشهر اعتبره الجمهور البريطاني شهيداً مسيحياً، ولذلك ناز كيتشنر لمقتله بأن أعاد إرضاع السودان عام 1898. هذا الرسم بريشة الرسّام الفكتوري لويس ديكينسون يحمل عنوان «مناوئة غوردون الأخيرة»

إقامة السدود وخزانات المياه لتحكّم بغضبان النيل، وتوسيع شبكة السكك الحديدية. فقتضت كميات القطن الخام المزروع لأغراض التصدير، لكن البريطانيين حرصوا على تقييد عملية التصنيع خوفاً من تشجيع المنافسة.

بدأ الاختراق المصري للسودان في عشرينيات القرن التاسع عشر، حين أطاح محمد علي بسلطنة الفنج كجزء من رهنه على إقامة إمبراطورية مصرية في إفريقيا. في عام 1830، أنشئت الخرطوم على النيل الأبيض كعاصمة مصنّعة جديدة، وباستخدامهم ضباطاً أوروبيين لقيادة القوات المجنّدة المحلية والقوات المصرية، تمكن خلفاء محمد علي من توسيع نطاق سيطرتهم إلى أعالي النيل والأقاليم الاستوائية. وعملًا بمبادئ الإصلاح الإداري التي كانت رهن التطبيق آنذاك في مصر والأمبراطورية العثمانية، فرض المصريون نظام احتكار الدولة للتجارة - حتى الغارات لاصطياد العبيد صارت من أعمال الدولة - في الوقت الذي وحدوا فيه معايير الإجراءات القضائية وفقاً للمذهب الشافعي المصنّف المصنوع به رسمياً في الأمبراطورية العثمانية. وهذا ما انتقص من سلطة العلماء المحليين، وهم من المذهب المالكي، كما أضعف من جهة أخرى كافة البدع الصوفية المحلية. ومن المفارقة بمكان، إن هذا التدبير جاء مُساعدًا في نشر الطُرق ذات التوجّه الإصلاح، كالطريقة السُنيّة والطريقة الختية، اللتين طلع بهما حُجّاج عائدون من الحجاز، حيث كانت الروح الإصلاحية على أشدها منذ القرن الثامن عشر. وحين ألغيت احتكارات الدولة المصرية في الخمسينيات من القرن التاسع عشر، شرع الأوروبيون بدخول السودان لتسلم قدرات التجارة في مواد مثل الصمغ العربي وريش النعام والعاج، الأمر الذي ألحق ضرراً فادحاً بمشاريع الأعمال المحلية. وبضغط من بريطانيا، وقعت الحكومة عام 1877 ميثاقاً تحظر بموجبه كل أشكال المنافسة. وقد تفجّرت مشاعر الاستياء من هذا الإجراء في ثورة كبرى أشعل قتلها وتولى زمامها محمد أحمد. كان هذا الأخير شيخاً من مشايخ الطريقة السُنيّة، وكان يتمتع بسمعة عظيمة تشهد له بالنقوى والصلاح في تشريع الثاني/نوفمبر 1882،

بدأت هيمنة بريطانيا على مصر مع النظام التحديثي لمحمد علي، الذي كان بالاسم واليا عثمانياً على مصر، بينما هو في الواقع حاكم مستقلّ فعلاً؛ وكذلك مع سليله الخديوي إسماعيل (ح 1863-1879)، الذي كان مفتوناً إلى حد الهوس بأوروبا. فمخططات إسماعيل باشا الطموحة للتنمية الاقتصادية، ومن ضمنها مد السكك الحديدية وخطوط البرق وشق قناة السويس (افتتحت عام 1869)، أدّت إلى إفلاس البلاد وفرض إدارة مالية أجنبية عليها. فاعلنت مجموعة من ضباط الجيش المصري من أبناء البلاد الأصليين، يُساندها رجال الدين وملوك الأراضى والصحفيون ودعاة الوحدة الإسلامية الجامعة جمال الدين الأفغاني، عن معارضتها لنظام إدارة الدين، واستولت على وزارة الحرية حيث شكلت حكومة برلمانية برئاسة الوزير «الثاني» عُرابي باشا، عندئذٍ عمد ولهايم غلادستون، رئيس الوزراء البريطاني، إلى قصف الإسكندرية، وقام بإبزال قوات على الأراضي المصرية، فألحقت الهزيمة بجيش عُرابي في معركة «التل الكبير». وفي ظل المقيم البريطاني، السير إيفلين بارينغ (لاحقاً: اللورد كرومر)، الذي تولى الشؤون المالية في الحكومة، جرت إدارة الاقتصاد المصري بخناسة، إنما لما فيه مصلحة الأمبراطورية. وشهد الإنتاج الزراعي تحسّناً من جراء



مما فتح الباب لمجيء الحكم العسكري، أولاً بقيادة اللواء إبراهيم عبود (ح 1954-1964)، ولاحقاً بقيادة الفريق جعفر النميري (ح 1969-1985). حاول النميري في البدء رأب الصدع ما بين الشمال المسلم والجنوب غير المسلم بمعظمه (غالبية من المسيحيين والإرواحيين)، وذلك بمنح حكم ذاتي محدود لمديرية بحر الغزال والمديرية الاستوائية ومديرية أعالي النيل. غير أن النميري بذل اتجاهه على نحو جذري في العام 1983، وشن حملة لأسلمة البلاد أسلمة تامة. وقد ساندته في ذلك حسن الترابي، زعيم الجبهة القومية الإسلامية (النسخة السودانية من حركة الإخوان المسلمين) في مصر). صمّح أنه جرت الإطاحة بالنميري في عام 1985 بعدما أضفى شخصاً غريب الأطوار وغير متزن على نحو متزايد، إلا أن عمر البشير الذي استولى على مقاليد السلطة بمساعدة الترابي في انقلاب عسكري عام 1989، مضى قدماً في تطبيق برنامج الأسلمة إياه. أثار إصرار الترابي على تعريب وأسلمة السكان من غير المسلمين، إلى حد تطبيق العقوبات الإسلامية عليهم، أثار مقاومة متعاطفة في صفوف أبناء الجنوب. فاضم عدد غير منهم، أو قدّموا المساعدة، إلى الحركة الشعبية لتحرير السودان بقيادة العقيد جون قرنق. وهذا الصراع ما بين الشمال والجنوب، وهو بالمناسبة أطول حرب أهلية متواصلة في إفريقيا، يصفه أحد المؤرخين المرموقين بأنه «حرب أهلية ذات أبعاد تقارب الإبادة الجماعية... يكباً فيها إلى استخدام تكتيكات من ضمنها تجويع السكان المدنيين وإجبارهم قسراً على التزويج من بناتهم». إن الأقوام التي تعتقد الديانات الإفريقية، مثل النوير والدينكا، تعرّضت وتزال لمحاولات إبادة في الدين الإسلامي عنوة. وقد استقدم عمر البشير برنامج الجبهة القومية الإسلامية، القاضي بتطهير صفوف الجيش العلنيا ودوائر الخدمة المدنية من غير الإسلاميين لا بل وإعدامهم، للقضاء على قوة الأحزاب السياسية التقليدية التي تهيم عليها الجماعات الصوفية. وبعد مضي عشرين سنة على الحكم الديكتاتوري، كان الترابي قد أدّى «خلافها كل ما هو مطلوب منه، قام اللواء البشير بانقلاب «داخلي» عزل فيه الترابي عن الحكم في كانون الأول/ديسمبر 1999.

أعلن محمد أحمد على الملاً أنه هو المهدي (أي «المسيح» المسلم الذي كان ظهوره منتظراً على نطاق واسع في نهاية القرن الثالث عشر للهجرة). ومن ثم استنهض قبائل البقارة الرعوية للتمرد على الحكومة التركية - المصرية «الكافرة». وبعد أن أباد قوة من ثمانمائة ألف مجنّد محلي بقيادة هيكس باشا في شيخان، انتقل المهدي للاستيلاء على أم درمان والخرطوم. وهناك لقي الجنرال غوردون مصرعه على درج دار الحاكم بعدما رفض الامتثال للتعطيمات المعطاة له بوجوب إخلاء الحامية. وهذا ما أورت الجمهور الفيكوري في بريطانيا عطشاً شديداً للنار. وقد مات المهدي بعد ذلك بستة أشهر (بحسب التفتيش على الأوجع) إثر دخوله الخرطوم دخول الظافرين. وقيادة خليفة عبدالله الطايشي، الذي خلفه في زعامة الحركة، استمرت تلك الحركة في الازدياد والتوسع جنوباً نحو جبال النوبة ومنطقة بحر الغزال. وهذا ما أبخل العديد من أقوام الإرواحيين غير المسلمين، ومنهم النوير والدينكا وسواهما، في مدارها مما بذر البذور لنزاعات وصراعات ستتفجر مستقبلاً. لقد كان قدر الدولة المهدية الهلاك، لأنها تعدت وأبذلت قوة بريطانيا في منطقة حساسة استراتيجياً لفرنسا فيها. هي الأخرى، أطعها وأمرها الأميرالية. ففي عام 1898، تعرّض جيش خليفة البالغ تعدادة 50 ألف رجل لمذبحة مروعة على يد قوة إنجليزية - مصرية مشتركة بقيادة الجنرال هربرت هوراثيو كيتشر. فما كانت حرب خليفة ولا بنادقه العتيقة لتضاهي بأي حال رشاشات «غاتلينغ» الحديثة التي كان أضرها كيتشر عبر مجرى النيل في أسطوله الصغير من المراكب البخارية المصنّعة. أتت هزيمة المهدي إلى نصف قرن أو أكثر من الحكم البريطاني في ظل السلطة الإنجليزية - المصرية المشتركة. وهذا اعتمد أتباع المهدي السابقون - وكانوا يعرفون بد «الأمناء» تيمناً بأمناء الرسول محمد في المدينة - مبدأ الجهاد «السلعي»، موسعين نطاق نفوذهم ليشمل المناطق المدنية. في عام 1944، شكّل زعيمهم سيد عبد الرحمن، ابن المهدي، «حزب الأمة»، الذي أبقى على تعاونته مع البريطانيين حتى وهو يعمل من أجل الاستقلال. في حين شكّل أتباع الختمية «حزب الاتحاد الوطني»، المحيّد للاتحاد مع مصر، لمواجهة نفوذ الأمناء. ولئن لقيت فكرة الاتحاد هذه رفضاً باتاً بعد الثورة المصرية عام 1952، فإن المنافسة المريرة بين الحزبين الدينيين ظلت قائمة.

فرنسا في شمال إفريقيا وغربها

استمر استيطان الأراضي المنتجة في الشريط الساحلي الجزائري حتى إلى ما بعد حلول القرن العشرين. ففي عام 1940، كان المستوطنون الأوروبيون يملكون زهاء 2,7 مليون هكتار، أي ما يُعادل 35 إلى 40 بالمئة من الأراضي الصالحة للزراعة، تشكل الأبنية (المحرم شريها على المسلمين) أهم صادراتها.

والتخريب الثقافي كان هاتلاً هو الآخر، فقد حظرت المعاهد الإسلامية التقليدية أُوحيّزت مواردها المالية. وكان من المفترض أن تُستبدل بمدارس فرنسية، إلا أن أقلية صغيرة جداً من المسلمين الجزائريين استفادت من ذلك، وعلى عكس بريطانيا التي كانت تؤثر حكم أمبراطوريتها من خلال وكلاء مطوعين لها، رأت فرنسا أن تنتج سياسة الاستيعاب، ولئن كان تطبيقها لهذه السياسة محدوداً، إلا أنها خلقت نخبة فرانكفونية صغيرة تنتمى مع الحضارة الفرنسية. في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، برزت حركة قومية تضم مصلحين إسلاميين يتحلقون حول عبد المصطفى باديس، وقوميين عرباً يستلهمون أفكار مصالي الحاج، وقد أصابت تلك الحركة نبضها بذورها البذور لقيام حرب استقلالية ناجحة الشروط، وهي التي اندلعت فعلاً في أواخر الخمسينيات من ذلك القرن بدعم من الكتلة السوفييتية ومصر والبلدان العربية الأخرى. في عام 1958، استطاعت حركة مضادة قام بها مستوطنون فرنسيون بمباركون استقلال الجزائر، أن تطيح بحكومة الجمهورية الرابعة وتأتي بالجنرال ديغول إلى الحكم في فرنسا. لكن ديغول، وخلافاً لتوقعات المستوطنين، أقر باستقلال الجزائر. وبعد مفاوضات مديدة في إيفيان، اعترفت فرنسا بالسيادة الجزائرية في عام 1962. مهما يكن من أمر، فقد بقيت الروابط الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بين فرنسا والجزائر وثيقة للغاية، حتى بعدما حلت جبهة التحرير الوطني - الحزب القومي الذي فاض على الاستقلال - محل الإدارة الفرنسية، تلك الأقلية الفرانكفونية شبه الاستعمارية التي كانت تسيطر على الأغلبية من المناطقين بالغتين العربية والبربرية (الأمازيغية). وفي كانون الأول/ديسمبر 1991، تدخل الجيش لمنع الجبهة الإسلامية للإنقاذ من الوصول إلى السلطة عبر انتخابات وطنية. وقد فقد أكثر من مئة ألف جزائري أرواحهم في غمرة الحرب الأهلية التي تلت ذلك، تلك الحرب التي عكست في جزء

الفتح الفرنسي لشمال غربي إفريقيا لم يبدأ جدياً إلا في العام 1930، حين أقدمت حكومة الملك البوربوني المستعبد عرشه، شارل العاشر، مستنوبة من تجار مارسيليا، أصحاب المصالح القديمة في تجارة الصوف، على غزو الجزائر. وفي حين احتل الفرنسيون مدينة الجزائر وغيرها من المدن الساحلية، أثار حلول الأوروبيين محل العثمانيين في المناطق الداخلية من البلاد حركة

مقاومة تزعمها الأمير عبد القادر الجزائري، ابن شيخ مشايخ الطريقة القادرية، بالتحالف مع

سلطان المغرب. وبعد انكسار الجيش المغربي على يد الجنرال توسا - روبير

بوغو في معركة إيسلي عام 1844، زالت كل الحواجز من أمام الاستيطان الفرنسي هناك. أقدم بوغو على تخريب الهساتين والمحاصيل الزراعية، وعلى تدمير قرى بأكملها، مهزقاً أرواح أعداد غفيرة من الناس، وتاركاً عشرات الآلاف منهم يموتون جوعاً. تمت مصارعة مساحات شاسعة من الأراضي، وجرى تهجير عشائر برمتها، عربية وبربرية على السواء، إفساحاً في المجال أمام توطئتين المستوطنين الفرنسيين والأوروبيين. شهد القرن الثامن عشر قيام حركات تمرد وعصيان عديدة ضد الفرنسيين، بلغت ذروتها في انتفاضة كبرى سرعان ما سُحقت في عام 1871. وقد



«إزدواجية السيادة». وأثر وقوع مظاهرات حاشدة وأعمال عنف، سمح الفرنسيون للملك بالعودة، مسلمين باستقلال المغرب في عام 1956. وما زالت الأسرة الحاكمة في السلطة إلى يومنا هذا، ممثلة بحفيد محمد الخامس، الملك محمد السادس.

وهذا النموذج من الفتح الاستعماري الذي تتبعه ثورة وطنية، عاد وتكرر، وإن بوضوح وشدة أقل، في أجزاء أخرى من الإمبراطورية الفرنسية في إفريقيا، حيث كانت للفرنسيين مطامع اقتصادية لكن مصلحة

قليلة في الاستيطان.

تمثلت مصلحةهم

الاقتصادية الأولى في

تعزيز إنتاج المعاصيل

التصديرية، مثل الفول

السوداني والأخشاب وزيت

النخيل. عمل الفرنسيون

على جباية الضرائب نقداً،

واستخدموا الأيدي العاملة

بالسخرة في مزارع العوز

والسكك والبن. ومندو

خطوط السكك الحديدية

لنقل البضائع من مناطق

الداخل إلى المحيط

الأطلسي، فدمروا بذلك

أسلوب النقل بواسطة

الجمال القديم والحريك.

وتفوّضت أسس التجارة الإفريقية باستيلاء العرب المشاركة واليونانيين والأسبوعين من جنوب القارة على تجارة العفّر في المستعمرات الفرنسية وأعمل التعليم الإفريقي، بحيث لم يتح سوى لـ 3 بالمئة فقط من الأفارقة في الإمبراطورية الفرنسية أن يمالوا نصيباً من التعليم المدرسي. مع ذلك، فقد نبتت نخبة فرانتقونية صغيرة هي من سيرتقي سدة الحكم بعد الاستقلال. وفي عام 1956، عرض ديغول على مستعمرات فرنسا في إفريقيا الاختيار بين الاستقلال الفوري أو الحكم الذاتي ضمن الأسرة الاقتصادية الفرنسية. وحدها غينيا اختارت الاستقلال الفوري، وكان اختيارها هذا مكلفاً إذ أضّر ضرراً مادحاً بإقتصادها الاقتصادي. أما ما تبقى من بلدان تابعة لفرنسا في غرب إفريقيا، فقد نالت استقلالها الناجم في غضون الستينيات من القرن العشرين.

منها صراعاً بين النخبة الفرانكفونية الملزمة بالغربية وبين الإسلاميين الذين يعتقدون بأنهم يمتلكون شرعية ثقافية أرفع شأنًا.

ولم تقف المطامع الاستعمارية الفرنسية عند حدود الجزائر فقط بل تعدتها إلى جارتها تونس أيضاً. كانت تونس ولاية عثمانية ذات حكم ذاتي، فأخذت فرنسا بالاستيلاء عليها تدريجياً اعتباراً من العام 1881، وبحلول عام 1945، كان نحو من 144 ألف مستوطن أوروبي يحتلون خمس مساحة الأراضي القابلة للزراعة. إلا أن هؤلاء المستوطنين لم يشكلوا في أي يوم مجموعة ضغط مطية قوية كتنظرائهم في الجزائر. لذلك ما إن منعت فرنسا بالهزيمة في الهند الصينية بعد الحرب العالمية الثانية، حتى سلمت باستقلال تونس في العام 1956. والنسق عينه من التخلخل الاقتصادي الفرنسي المستتبع بالسيطرة الإدارية والاستيطان الأوروبي حصل في المغرب أيضاً، إنما مع فارق رئيسي هو أن البلد احتفظ بوضعته ككيان مسلم في ظل الأسرة الشريفة (المستعمرة من سلالة الرسول) التي وصلت إلى السلطة في القرن السابع عشر. كان سلطان المغرب، مثل حكام إيران في زمانه، يفتقر إلى الأموال اللازمة لدفع رواتب جنوده. وكان هذا وضعه بنوع أحسن بعدما انتقل إنتاج السلعة الأعلى قيمة مالمية لديه، ألا وهي السكر، إلى أيدي الأوروبيين ولاسيما مع تطور زراعة السكر في جزر الكناري والأميركيتين.

وبغية الحفاظ على هيمنته على القبايل العاصية، رهن السلطان عائداته الجمرية واستلّف دولاً حساب من المصارف الفرنسية. وحين أثار ذلك ثورة في صفوف العلماء، تدخل الفرنسيون بصورة مباشرة، فأرضين الحماية على البلاد (إلى جانب محمية أصغر حجماً أعطيت لإسبانيا) في العام 1912. وهكذا طرحت أراضي المغرب للبيع على الأوروبيين، الذين بلغت ممتلكاتهم منها بحلول عام 1953 زهاء مليون هكتار، أو ما يوازي 10 بالمئة من مساحة الأراضي التي تفلّ محاصيل زراعية، فضلاً عن 25 بالمئة من مجموع بصائين الفاكهة وكروم العنب، مع أن الأوروبيين عد بالبلاد كانوا يشكلون واحداً بالمئة من مجمل عدد السكان. غير أن الأسرة الشريفة استطاعت على عكس الحال في الجزائر وتونس، أن تضع نفسها في مقدمة الحركة المطالبة بالاستقلال. ففي عام 1953، جعل الفرنسيون من الملك محمد الخامس بطلاً قومياً وذلك عندما نفوه من البلاد بعدما رفض الموافقة على نظام



شمال غربي إفريقيا حتى 1914

- ممتلكات فرنسية
- ممتلكات ألمانية
- ممتلكات بريطانية
- ممتلكات إيطالية
- ممتلكات إسبانية
- ممتلكات هولندية
- ممتلكات دنماركية
- ممتلكات سويدية
- ممتلكات أخرى

نمو الحجّ وتطوّر المشاعر المقدسة

تدوير الحجّ في الجزيرة العربية



داخل المملكة العربية السعودية من المواطنين السعوديين والمقيمين الأجانب على حد سواء.

قبل وفاة النبي محمد في العام 932 م، تناول شعائر الحج التي كانت سارية قبلًا داخل مكة وما حولها وعمل على إصلاحها. وهذه الشعائر المصلّحة التي تستغرق تأديتها عدة أيام، تشتمل على الطواف حول الكعبة، البناء المكعب الشكل القائم وسط المشعر الحرام في مكة؛ والسعي أثناء التلبية بين الصفا والمروة؛ والوقوف يومًا كاملًا على جبل عرفات؛ والنفرة (وهي اليوم سيل هائل من البشر والمركبات) عبر المزدلفة؛ ورمي الجمرات (وهي كناية عن أعمدة ترمز إلى إبلوس) في منى. إن الحجر الأسود «هجر سماوي» تكتنفه الأسرار إنه مصمود في الركن الجنوبي الغربي للكعبة، وموجه نحو عبادة الله دون سواه كما تجلّى لأبي الأنبياء إبراهيم وابنه إسماعيل، الجد القديم للعرب. والفصل الأخير من الحجّ، ألا وهو تقديم الأضاحي إحياء لذكرى الشاة التي تقبلها الله بدلًا من ولد إبراهيم، يحتفل فيه في جميع أنحاء العالم الإسلامي تحت اسم «عيد الأضحية»، حينما يذبح المسلمون بضعة رؤوس من ماشيتهم أو يتناولون لحوم حيوانات ذبحت في منازلهم. أما العمرة، أو «الحج الأصغر»، فهي مقصورة على الحرم المكي المحيط بالكعبة، وباستطاعة المرء أن يؤديها في أي وقت من السنة، أو في التزامن مع الحجّ نفسه.

فيما قبل الأزمنة الحديثة، كان يمكن لرحلة الحجّ أن تكون شاقة للغاية، ولاسيما للقادمين من مناطق الأطراف القصية، كان من الجائز جدًا أن تستغرق

الحجّ أحد أركان الإسلام الخمسة، وهو فريضة دينية يتوجب على كل مسلم أن يؤديها مرة واحدة على الأقل في حياته. وهذه الفريضة صارت اليوم سهلة يسيرة نسبيًا بفضل النقل الجوي الذي في طاقة المرء تمكّن نفقاته. إن محطة الحجاج في مطار جدة - وهي عبارة عن مبنى على شكل خيمة عملاقة يمتد على مساحة بضع عشرات الآلاف من الأمتار المربعة - تستوعب في وقت واحد عددًا أكبر من المسافرين مما يستوعبه أي مطار في العالم. إن الحجّ يجمع بالمعنى المادي للكلمة، المسلمين من كل أرجاء الأرض بعضهم ببعض، وهو يجتذب نحوًا من مليون حاج من الخارج كل سنة، وحوالي العدد نفسه من

خريطة مكة

- 1 حي حرام
- 2 حي البكة
- 3 حي الشوكية
- 4 حي السوق الصغير
- 5 حي السمكة
- 6 حي بيت الصوم
- 7 الشاذلية
- 8 حي الصوفة
- 9 حي القزرة
- 10 أكواخ
- 11 حي الزكية
- 12 حي النبع
- 13 حي السليمانية
- 14 حي بني عامر
- 15 درب النصارين
- 16 درب المعلقة
- 17 حي مرة
- 18 قصر شريف الأشراف، عين الرقيق (1905-1982) بناء والده محمد بن عبد
- 19 قصر شريف الأشراف عبدالله الأخ الأكبر لعون الرقيق
- 20 حي بني العود
- 21 حي سوق آل
- 22 حي الدمنى
- 23 الديرة
- 24 القصير
- 25 زقاق الحصر
- 26 مولد سنانة
- 27 حي القشبية
- 28 الصفا
- 29 حي أجناد (يوجد في هذا الحي مبنى مؤسسة للتكايا المصرية وسواي الحكومة الجديدة)
- 30 مقر العرس الرئيسي (الشرقة)
- 31 بركة والي الصبيان، مطبخ الشرقة، إلخ
- 32 مدرسة (مستخدمة حالياً مقرًا للجنة إدارات ربيعة ومكة) أدونيس المزدحمي
- 33 بركة سابع، بئر كبيرة لل مياه موصولة بالقطار
- 34 دار القضاء وسكن القاضي
- 35 غير أبى طالب (بم الرواد)
- 36 أبرام ميهام موصولة بالقطار
- 37 قبر سيد علي
- 38 قبر ابن أبي عمير
- 39 قبر قهقريان
- 40 حي السمكة (القصير)
- 41 أبرام ميهام موصولة بالقطار (مثل هذه الأبرام موجودة حالياً في الدروب الرسمية كاتبة)



عبرها سلسلة من الردفات والذهاب. في القرن التاسع عشر، تضاعف ظهور الملاحة البخارية برعاية القوى الاستعمارية مع استحداث نواب خاصة لتوفير نفقات الحج، لجعل رحلة الحج في متناول الآلاف من الفلاحين وأبناء المدن العاديين من مناطق نائية جداً كالبنغال والملايو وبجزر الهند الشرقية الهولندية، الذين ما كانوا ليأملوا على الإطلاق في أداء تلك الفريضة الدينية في عصور ما قبل الصناعة.

الرحلة سنوات عديدة من عمر الإنسان - أو حتى عمره بكامله - كي يتم «الركن الخامس» من أركان الإسلام. في تلك الرحلة، كان ثمة «مدن/قوافل» تتحرك بسرعة تحت إمرة «أمير الحج» بعد أن تنطلق من سورية ومصر والعراق وكان أمرو القوافل بمثابة قادة عسكريين في الميدان. واجههم الأولي، في واقع الأمر، كان حماية الحجاج من قطاع الطرق البدو. ابن جبير، الذي أدى فريضة الحج عام 1184، يصف خيمة أمير القافلة العراقية بـ«مدينة مسورة» أو «قلعة منيعة» لها «أربع بوابات شامخة»، يلج للمره

ينقضى شهر تشرين الثاني / نوفمبر إلا وكان الوباء قد بلغ أماكن قصية جداً كمدينة نيويورك. وإذا كانت إجراءات الحجر الصحي (الكارنتينا) التي اتخذتها السلطات العثمانية والحكومات الاستعمارية قد حمت مصر وأوروبا من عواقب العدوى، إلا أن الكوليرا استمرت بالتفشي في الشرق وفي الحجاز، حيث وقعت ثماني حالات وبائية بين عامي 1885 و1892. وكان أسوأها على الإطلاق تلك التي شهدها عام 1893،

وكانت لهذه الزيادة الكبيرة في عدد المشاركين في الحج نتيجة جانبية وخيمة تمثلت في حالات من تفشي وباء الكوليرا على نحو مدّمر. ففي عام 1885، قضى وباء مصدره جاوه وستغافورة على ما يُقدَّر بـ 15 ألفاً من أصل 90 ألف حاج، وذلك قبل أن ينتهي الحج الذي صادف وقوعه في شهر أيار / مايو من ذلك العام. ولم يلبث أن امتد الوباء في الشهر التالي إلى الإسكندرية، حيث لقي 60 ألف مصري حتفهم. ولم



2000 في عرقات، تبدو غير ذات أهمية تقريباً. إن العديد من الحجاج، إن لم يكن معظمهم، يَتَمَوَّن مناسك الحج بزيارة مسجد الرسول في المدينة، حيث مدفون أهل البيت وأزواج النبي والصفوة البارزة من صحابته. في عام 1925، أقدمت المملكة العربية السعودية على إزالة كل المعالم التي تدلّ على تلك القبور وسوّتها بالأرض، وقرضت جهوداً صارمة على زيارتها والصلاة عندها.

حين قضى 33 ألفاً من أصل 200 ألف حاج نصيبهم في جدة ومكة والمدينة. وتواصل مسلسل الأوبئة حتى عام 1912، أي إلى حين أعطت إجراءات الحجر الصحي الصارمة مفعولها. وبالمقارنة مع أهوال أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، فإن الكوارث التي شهدتها مواسم الحج في الآونة الأخيرة، من قبيل مصرع ما يزيد عن 400 شخص، معظمهم من الحجاج الإندونيسيين، في الحريق الذي اندلع عام



مَدُن متمدّنة

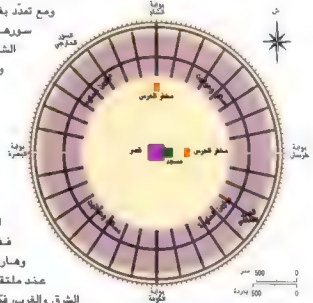
بغداد:

مدينة أسّسها في العام 672 بعد الميلاد أبو جعفر المنصور، ثاني خلفاء بني العبّاس، وإن كانت المدينة قد بُنيت في الأصل على الضفة الغربية لنهر دجلة. كان اسمها الأصلي «مدينة السلام»، لكن بغداد عُرِفَت بين الشعب بـ«المدينة المودّرة»، نسبة إلى الجدران الدائرية التي كانت تحيط بها. كان قصر الخليفة والمسجد الجامع يقومان في نقطة المركز منها تماماً، ومنهما تنشعب أربعة طرقات باتجاه الخارج. وكانت تعلو القصر تبة خضراء يبلغ ارتفاعها زهاء 185 قدماً ويعتليها خيال على سهوة فرسه. ومع تمدّد بغداد تدريجياً إلى ما وراء سورها الأصلي باتجاه الضفة الشرقية لنهر دجلة، جرى وصل شطريّ المدينة بجسر من القوارب، وسُمّي الشطر الشرقي منها بالرصافة. بلغت بغداد أوجها من حيث الازدهار التجاري والتأثير الثقافي في القرنين الثامن والتاسع للميلاد. فُني ظل خلافة المهدي وهارون الرشيد، وقفت بغداد عند ملتقى طرق التجارة ما بين الشرق والغرب، فكانت تربط آسيا بأوروبا وبالعكس. وبسبب من صروحها العمرانية المهيبة وحداثتها الفخاء، طارت شهرتها بوصفها أغنى وأجمل مدينة في العالم.

في النصف الثاني من القرن التاسع، كانت سلطة الخليفة العبّاسي قد ضعفت من جراء المضاححات والمنازعات الداخلية التي كانت تصل أحياناً إلى حد الاحتراق الداخلي. وعندما غزا المغول بغداد في القرن الثالث عشر، قُتل الخليفة ومعه الآلاف من أبناء رعيته. وبعدها دُمّرت أحياء عن بكرة أبيها بعدما انتهت وأُحرقت فيها الثيران. ولحق تخريب واسع بشبكة الري التي كانت تعتمد عليها المدينة وبساتينها، الأمر

الذي عجل بصورة دراماتيكية في انحطاط المدينة ومن ثم اضمحلالها. وحين صارت بغداد جزءاً من الأُمُراتورية العثمانية عام 1534، كانت قد عرفت طمع الإهمال وخمول الذكر رديحاً طويلاً من الزمن. أُجريت على بغداد تحسينات، وإن على نطاق متواضع، في مستهل القرن العشرين، مع بناء المدارس والمستشفيات فيها. وحملت إليها الطفرة النفطية التي شهدتها سنوات السبعينيات من القرن العشرين الغنى المتزايد، وبفضله شرعت المدينة تتطور على نطاق مُذهل، ولاسيما مع إنشاء مناطق سكنية لأبناء الطبقة الوسطى. فمُنّت خطوط جديدة من قسائل المياه ومجاري الصرف الصحي، كما بُنيت فوق الأرض شبكة من الطرقات السريعة، فضلاً عن بناء مطار جديد للعاصمة. ثمة أحد عشر جسراً تربط ما بين شطريّ المدينة، وقد دُمّر العديد منها لاحقاً بفعل القصف الجوي الأميركي في عام 2003. هذا وتُمثل ساحة التحرير حالياً، القائمة على الضفة اليسرى للنهر عند أحد طرفي جسر الجمهورية، قلب المدينة الذي تشع منه شوارعها الرئيسية.

وفي ظل حكم صدام حسين الديكتاتوري، أُقيمت مجموعة من النُصب التذكارية الضخمة، ومن أبرزها «قوس النصر»، وهو كناية عن كتلة هائلة من البرونز على شكل ساعدين يمتشقان سيفين فضين. وهناك مثل آخر مفاهيم تماماً لهُ أدعى إلى الإعجاب عن الفن النُصبي الحديث: ذلك هو «نصب الشهيد» الذي أُقيم تخليداً لذكرى القتلى في الحرب الإيرانية - العراقية (1980-1988). صنم النصب إسماعيل فتّاح، وهو كناية عن قبة ضخمة بصلبية الشكل مُدّت نصفيين وأُكسيت غطاءً لامعاً بالأجر الغزفي الأزرق التقليدي. وبصرف النظر عن كل هذه النُصب التذكارية، فإن معظم شوارع التحسينات المركّسة لبغداد قد توقفت لدى اندلاع الحرب مع إيران في بداية الثمانينيات من القرن العشرين، ثم حرب الخليج التي تلت غزو العراق للكويت والعقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة على العراق إثر ذلك. لكن الاستثناء الأبرز الوحيد في هذه القصة من الانحطاط المتجدّد، كان القصور الرئاسية، وهي في حقيقة الأمر كناية عن مجمعات شاسعة من المباني تحيط بها الأسوار العالية، وتضم مقرات بأذعة





القاهرة في عهد السلطان
الناصر (محمد بن قلاوون)

مدينة مسورة مستطيلة بكتلة
مخاضة بأصولها جبالاً خارج
الأحواز
القلعة لشدتها بعد
الاستيلاء عليها
طرق ورواق
البحر

الزخرفة لسكنى صدام حسين أو لاستضافة كبار الزائرين والضيوف، وقد أقيمت بجانبها بحيرات اصطناعية. قبل الإطاحة بالنظام البعثي العراقي عن طريق العمل العسكري الذي أقدمت عليه الولايات المتحدة في العام 2003، كان الدخول إلى هذه المقرات من قبل مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة سبباً رئيسياً للخلاف والجدل ما بين النظام العراقي والمنظمة الدولية.

القاهرة

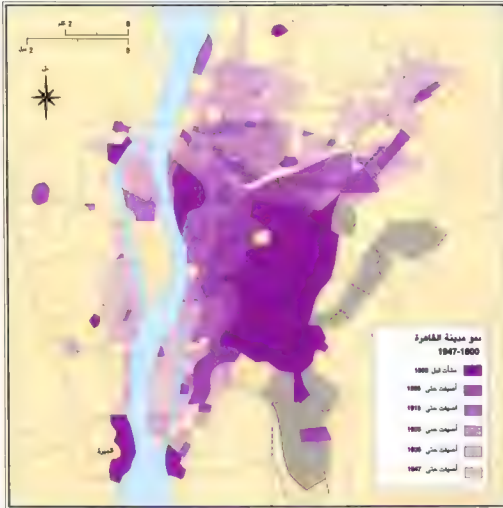
استمدت القاهرة، وتعني الظفيرة أو الغلاية، اسمها من المدينة التي أنشأها القائد الأموي جوهر الصقلي. كان جوهر هذا من أصول صقلية، وربما كان من الصقلية، وقد فتح مصر في العام 999، بالنيابة عن سيده، الخليفة الفاطمي المعز لدين الله. وشأنه شأن معظم الفاتحين السابقين، اقتطع جوهر مدينة عسكرية منفصلة لجنوده تقع إلى الشمال من مدينة القسطنطين التي كان أسسها العرب عندما فتحوا مصر في العام 642. وتضم المدينة الفاطمية، فضلاً عن قصورها ومدارسها ومساجدها، وما أكثرها، الجامع الأزهر، أقدم جامعة في العالم. خرجت المدينة إلى حيز الوجود في العام 970، وفيها بعد تجهدها أمراء المماليك بالعمارة والتزيين، فبنوا مئات المساجد والأضرحة والخانات والشكايا والبيمارستانات (المستشفيات). وسواها من المباني العامة. وقد عرف طرازهم الزخرفي المتميز كيف يستفيد من السحر الجوري الموجود بكثرة في جبل المقطم كما في أهرامات الجيزة، وذلك عمدوا في بعض الحالات إلى استخدام الغطاء الخارجي لتلك الأهرامات. وبعد استيلاء صلاح الدين الأيوبي على السلطة إثر سقوط الحكم الفاطمي، شيد القلعة المهيبة لسانحية الجنوب، حيث بنى محمد علي، الحاكم الأوتوقراطي إنما المصلح في القرن التاسع عشر، المسجد الكبير على الطراز العثماني الذي لا يزال يشرق على المدينة القديمة إلى يومنا هذا.

كان أول استيطان لهذه البقعة العظيمة الشأن من الضفة الشرقية لمجرى النيل قبالة الأهرامات، بابلون أو مئنت (مضيق، مصر القديمة حالياً)، حيث أقام الفرقة الفرس حصناً في العام 525 قبل الميلاد لحراسة معبر مهم على نهر النيل. وتزد المدينة شمالاً بأفراد الذي استمر حتى القرن العشرين بإنشاء ضاحية هليوبوليس الصحراوية، حكمه الاتجاه العام لهبوب



القاهرة في عهد الحديثي
إسماعيل 1870-1880

المدينة القديمة
أصنافها لسانحية
غرائب عديدة جري
تخطيط المدينة القديمة
سكة حديدية



النيل، واستقرار منسوب النهر عند ضفتيه، فضلاً عن وجود جزيرتين كبيرتين هما الروضة والجزيرة، هو ما أتاح للمدينة أن تتوسّع وتتمدد عبر النهر نحو الجزيرة وأصباية. وهذا ما جعل القاهرة الحديثة (بسكانها البالغ تعدادهم 18-20 مليون نسمة)، واحدة من أضخم مدن العالم على الإطلاق.

طشقند:

إلى حين انهيار الاتحاد السوفيتي في عام 1991، كانت طشقند ذات المليونين ونصف المليون نسمة تقريباً، رابع أكبر مدينة سوفيهيتية بعد موسكو ولينيغراد وكيفيف. لقد دُمّرت المدينة بمُعظمها من جراء زلزال عنيف ضربها عام 1968، تهدّم 95 ألف

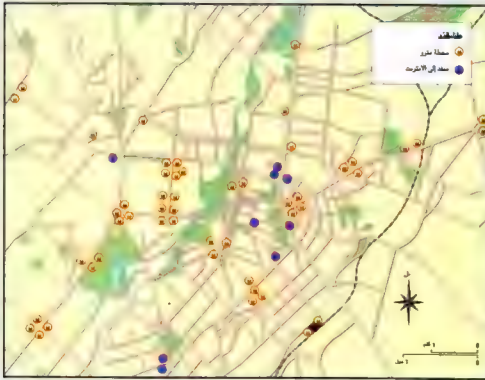
الريح الشمالية بصحّت تأخذ معها الروائح الكريهة وأدخنة النفايات المحروقة جنوباً. قبل القرن التاسع عشر، كان ثمة ما يحول دون تمدّد المدينة غرباً، وهو السهل الفيضي (الناجم عن ترسبات الطمي من النهر). لكن أمراء المماليك والولاة العثمانيين بنوا قصوراً بديعة لأنفسهم تحفّ بها الحدائق وتظلّلها أشجار النخيل الوارفة، فيما بقي السواد الأعظم من الشعب يعيش في دروب وأزقة أشبه بالمقاهة داخل أسوار القاهرة القروسطية. أما المدينة ذات النسق الأوروبي بجاداتها العريضة وميادينها الرحبة، فلم تر النور إلا في الستينيات من القرن التاسع عشر، وذلك في محاكاة واعية لمماريس المعاد تخطيطها على يد البارون هاوسمان. والحال، أن تحسّن نظام التحكم بفيضانات

إلا أنها استعادت شيئاً من ازدهارها وألقها السابق في عهد تيمورلنك وخلفائه. وينتظر إلى الصراع المحتدم عليها بين الحكام المتعاقبين، الأوزبك والقازاق والفرس والمغول والأيرت والكالميك، لم تعرف المدينة قط طعم الاستقلال. في القرن الثامن عشر، قُسمت المدينة إلى أربعة أحياء، متخاصمة أو حتى متعادية في بعض الأحيان، إنما تتقاسم معاً سوقاً واحدة. استولى عليها الروس في العام 1885. ولم يصل خط سكة حديد ما وراء بحر قزوين إلى طشقند إلا في عام 1898، بعدما كان عدد سكانها قد ارتفع ثلاثة أضعاف تقريباً، من 56 ألفاً إلى 156 ألف نسمة. شهدت الحقبة السوفييتية عملية تصنيع مكثفة وتوسعاً في الأحياء السكنية ذات المتنزهات والحدائق الوفيرة. أما المساجد والمدارس وغيرها من المباني الدينية، فلم تُهدمت أو حُولت إلى مصانع ومخازن أو مطابع. ومنذ الاستقلال والمدينة بأجمعها تعاود التأكيد مجدداً على طابعها الإسلامي، وذلك بتشييد المساجد ذات القباب الساطعة، جنباً إلى جنب المجمعات التجارية الكبرى والأروقة المقنطرة التي تقص بالسبل الآتية من جنوب شرقي آسيا.

منزل، وأصبح قرابة 300 ألف من سكانها بلا مأوى. وقد أعيد بناء طشقند كمدينة سوفييتية نموذجية، ذات جادات عريضة وقضائات عمومية رحبة تزدان بالنوافير والشرائح، وتتخللها صفوف من المباني العامة والعمارات السكنية المبنية بالخرسانة في هندسة معصرية عالمية، وإن احتفظت بموتيفات أوزبكية تقليدية عالمة، الممرات المقنطرة والأروقة ذات الشرفات المكشوفة والأشغال الفسيفسائية والكسوات المشبية. تمتاز المدينة بمتنزهاتها الفسيحة وشبكة ممرات الأنفاق الحديثة تحتها. عندما صارت أوزبكستان دولة مستقلة في العام 1992، قيل بأن الروس، الذين كانوا يشكلون حوالي نصف عدد السكان، أخذوا يغادرونها بمعدل 700 فرد أسبوعياً. إلا أن اللغة الروسية لا تزال تتردد على السنة نصف مواطني طشقند على الأمل.

قبل إعادة بناء طشقند، كانت هناك مدينتان متمايزتان فيها: المدينة الإسلامية القديمة، والمدينة الروسية الحديثة، تفصل بينهما ترعة مائية. وقد قُبض لبعض الدروب والأرقة الشبيهة بالمقامعة في طشقند القديمة ذات البهوت التقليدية بأفئنتها المظلة بدوالي

الكريمة البهيجية، أن تنجو من الزلزال المدمر، «طشقند» هو الاسم الأخير من عدة أسماء أصطلحت للمدينة القديمة، التي كانت في الأصل مستوطنة نجعية للبدو الرحّل والتجّار على ضفة نهر شوشيك، أحد فروع سيرداريا، لما هزم العرب جيشاً صينياً في معركة طلاس عام 751، كانت المستوطنة تُعرف باسم شاش، وعُرب الاسم لاحقاً إلى «الشاش». وقد أُطنّب الكُتّاب العرب في وصفها باعتبارها بقعة مزدهرة تكثر فيها الكروم وتنتج بالأسواق والحرفيين العاكفين على أشغالهم بكل مهمة ونشاط. ولغظة «طشقند»، التي تعني باللغة التوركية المحلية «المدينة الحجرية»، ظهرت أول ما ظهرت على نقود معدنية سكّت في الحقبة المغولية. ولئن استُبيحت المدينة وانتهت على أيدي المغول،



وقعُ النفط في القرن العشرين

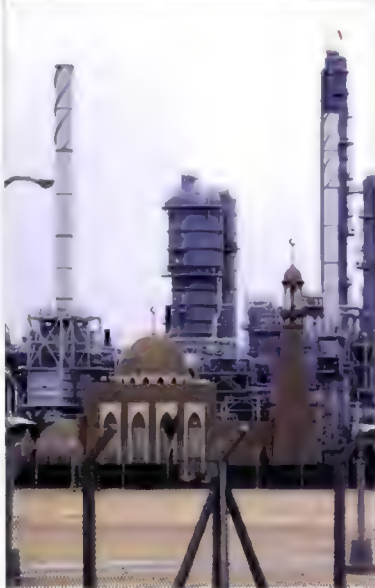
ذات عمارات شاهقة، ومجمّعات تجارية برّاقة، وطُرُقات سريعة من سكةٍ مجازات، وأحدث أنظمة الاتصالات وأكثرها تطوراً، وغيرها وغيرها من آخر منجزات المدينة الحديثة. لتأخذ المملكة العربية السعودية مثلاً، وكانت فيما مضى إحدى أفقر دول العالم وأقلّها تطوراً؛ لقد أتاح لها اكتشاف النفط في أراضيها أن تؤمّن لسكانها نظاماً رائعاً للرعاية الصحية والتعليم العام.

ومن جهة أخرى، وساهم ذلك في زيادة عدم استقرار المنطقة من جراء ترسّع أقدام الأنظمة الأوليغارشية القبلية، التي مكّنها إمساكها بمقدّرات النفط من التسلّد على البلاد بواسطة صيغة مركّبة من المحسوبة والقمع.

ولعلّ المثل الصارح على الأثر المدمر لسياسة الاعتماد الكلي على النفط هو العراق فقد غلّته شبكة من العلاقات القرابية يُشرف عليها صدام حسين شخصياً، لم تترك ناحية من نواحي المجتمع إلاّ وامتدت إليها إثر تأميم النفط في العام 1972. لقد تحكّمت تلك الطبقة بتوزيع أذونات الأراضي المصادرة من ملاك الأرض من العهد السابق أو من الفصوم السياسيين، فأقامت مشاريع تجارية وأعمالاً شتى، بما فيها

كان وقعُ النفط والغاز الطبيعي بمثابة نعمة متفاوتة على المجتمعات الإسلامية في غرب آسيا، ولاسيما في منطقة الخليج التي تضم العراق؛ تلك المنطقة التي تحوي ما بين 60 و65 بالمئة من الاحتياطي العالمي المكتشف، من النفط فمن جهة، أتاح ذلك للبلدان المنتجة للنفط أن تبني مدناً عصرية تطلب الألباب،

محطة لتكرير النفط في المملكة العربية السعودية، إلى 95 بالمئة تقريباً من نفط العالم تنتج حوالى 5 بالمئة من مجمل أباره النفطية. ويقع ثلثا تلك الأبار في غرب آسيا، حيث تُعد المملكة العربية السعودية أكبر منتج للنفط في العالم



وأوزبكستان وكازاخستان السوفييتية السابقة، تلك احتياطات واحدة من النفط. لكنها لا تستطيع تصدير نفطها من دون ضحّة عبر أنابيب تمرّ في أراضي البلدان المجاورة. ولعلّ السبيل الأجدى من الوجهة الاقتصادية هو ذلك الذي يمرّ في إيران نحو الخليج. ويستخدم شبكة الأنابيب الإيرانية القائمة. غير أنّ هذا الطريق يلقى معارضة من جانب الولايات المتحدة لأسباب سياسية، وهي تحدّد مشروعا أكثر تكلفةً ينتهي عند مصبّ جيهان على الساحل التركي للبحر المتوسط.

استيراد الأسلحة، ناهيك عن المضاربة بالعمّلات الأجنبية والتلاعب بعلاقات العمل كما يحلو لها. والذي عزّز سلّطتها القسرية هذه، أجهزة المخابرات المتغلّظة في كل مكان، والتي اكتسبت سمعة مخوفة لممارستها أعمال التعذيب والقتل خارج نطاق القضاء. إنّ الطبيعة السياسية لمنطقة الخليج، كما بدّلت عليها ثلاث حروب كبيرة نشبت منذ عام 1980، قد حفزت المعنيين على البحث عن مصادر بديلة للنفط في مناطق إسلامية أخرى، وبالتحديد في آسيا الوسطى وبحر قزوين، فدخل مثل أذربيجان وتركمنستان



الموارد المائية

ناصر، ممسكاً بزمام النهر بإحكام من خلال تخزينه مياه الفيضان في ما يُعد حالياً أضخم خزان اصطناعي للمياه في العالم، يرى بعض الخبراء أنه ستكون للسد العالي عواقب وخيمة بعيدة المدى على البيئة. فالسد يحول دون وصول العناصر الغذائية التي تحملها مياه النهر من المناطق الاستوائية، مما يزيد في درجة ملوحة التربة ويقلص الثروة السمكية في شرق البحر المتوسط والسود التي أقامتها تركيا على نهر الفرات، لم تكن بأي حال أقل إشارة للجدل والمشاكل. فسد كيبان (1975) وسد كراكا (1987)، وكلٌ منهما مدَّ لاختزان حوالي 30 مليون كيلومتر مكعب من المياه بغية توليد الطاقة الكهربائية وتنظيم جريان مياه النهر، قد مولا جزئياً بقروض من البنك الدولي. غير أن البنك نفسه رفض الإساه في بناء سد أناتورك الأضخم حجماً، البالغ سعته التخزينية زهاء 46 مليون كيلومتر مكعب، لأن سورية والعراق اللتين يجرى النهر الشطلي أراضيهم، امتنعتا عن الموافقة على المشروع. لقد خففت السدود التركية ومشاريع الري المرتبطة بها من تدفق نهر الفرات بمقدار النصف تقريباً، من 30 مليون متر مكعب إلى ما دون 16 مليون متر مكعب في السنة، وبناغاً عن موقفها، تدعي تركيا أن متوسط استخدام البلدان من مياه النهر لم يتعد قط 15 مليون متر مكعب سنوياً، وبالتالي ليس ثمة من ضرر يصيب أيّاً منهما. كذلك تعكف تركيا على تطوير نهر دجلة من خلال سلطة من المشاريع التي قد تقضي إلى انخفاض حجم التدفق المائي، إنما مع تمسُّن في مستوى الاعتمادية. فالعراق هو المستفيد الأكبر من نهر دجلة، وأي نقص يحصل في تدفق مياه الفرات نتيجة الأشغال الهندسية التركية قد يتقلب نفعاً له من خلال تطويره مياه دجلة. وربما لا تتجلى قضية إدارة المياه المشعونة بكل عوامل التفجير كأوضح ما يكون للعنان مظماً تتجلى في الجدل الدائر حول اقتسام مياه نهر الأردن، النقطة المفضلية في النزاع العربي - الإسرائيلي، فمعاهدة السلام المبرمة بين إسرائيل والأردن في تشرين الأول/أكتوبر 1994، تتضمن بنداً يخص على تزويد الأردن وعلى مراحل بكمية 200 مليون متر مكعب من المياه سنوياً، على أن يؤمّن جزء من هذه الكمية من الموارد المائية الإسرائيلية الحالية، والجزء المتبقى من مشاريع التطوير المشتركة. وبخلاف المفاوضات

لطالما كان للماء، وفرته أو ندرته، أعرق الأثر في تلك المناطق التي شكّل قلب العالم الإسلامي. ففي مصر الغابرة، أثمرت عدة قرون من الخبرة الإنسانية في التحكم بفيضانات النيل السنوي وتصريفه عبر منظومة معقدة من ري الحياض، تلك الهندسة المبرّجة فائقة الدقة للأهرامات. وفي بلاد ما بين النهرين، كما في مصر، كانت الدولة بكل بنائها البيروقراطية اللازمة لممارسة السلطة والسيطرة، هبة النهرين بالذات. وفي الجزيرة العربية، احتلت حقولة الأرض وقهمة المياه مكانهما كمفردتين أساسيتين في لغة الإسلام. ففي القرآن، المطر النادر والشمس، الذي يجعل الصحراء تزهزها بين ليلة وضحاها، إن هو إلا آية من آيات الله، واستعارة مجازية تستخدم للبعث والنشور ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾ (سورة فصلت، آية 39)، والمعنى الجذر للغة «الشريعة» هو السبيل أو الميزان إلى حيث الإزواء، مصدر البقاء والبقاء. وهناك معجم عربي من القرن الثامن عشر يشيخ الشريعة بالماء السلسيل، الذي يروي ظمأ الإنسان ويظفره من خلال الصوم والصلاة والصح والزوج. لقد كانت إدارة الماء مفتاحاً أساسياً للنجاح أو الفشل بالنسبة للحكومات الإسلامية في الماضي. ففي منطقة أعالي الفرات، حرص الخلفاء العباسيون على ترميم وتوسيع قنوات المياه الجوفية التي بناها الساسانيون، مما أتاح لهم إضافة مساحات جديدة قابلة للزراعة. فإِنْ إهمال منظومة الري في العصور اللاحقة عجل بتدهور أوضاع تلك الدولة اقتصادياً وسياسياً. هذا وتعد إدارة المياه عاملاً مفصلياً في تطور مصر الحديثة. فتحت حكم أسرة محمد علي، بُنيت أولى السدود وبُحركات المياه للسيطرة والتحكم بفيضانات النيل، مما وسَّع رقعة الأرض الزراعية وسمح باستخدام المنبسط الفيضي الواقع ما بين القاهرة والجزيرة لإقامة مدينة جديدة على الطراز الأوروبي تحتلها الميادين والحدائق العريضة. وجمال عبد الناصر، الزعيم القومي الكاريزمي الذي أطاح بالملكية في عام 1952، عجل بحداث أزمة السويس عام 1956 عندما أقدم على تأميم قناة السويس بعدما رفضت الولايات المتحدة تمويل السد العالي في أسوان. والسد الذي بُني بمساعدة سوفيتية، يرضي الهم عند بحيرة

تجارة السلاح

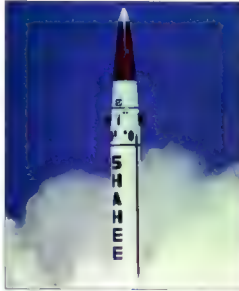
أيضاً، في «وحدات الغوريكا النيبالية» لدى بريطانيا، و«الفيلق الأجنبي» لدى فرنسا على سبيل المثال لا الحصر وعلى النقيض عيذه، ثمة دول إسلامية استحدثت لنفسها وحدات عسكرية من النُخبة تفقد اقتراناً وثيقاً بحكامها، كما هي الحال، مثلاً، مع الحرس الثوري الإيراني (باسدارن انقلاب)، أو السلاح الجوي الملكي الأردني. إلا أن هذه، هي الأخرى، لا تعدو كونها ممارسة ثقافية هجينة.

وأشكال منظومات السلاح متعددة، فهي تشمل المدرعات، والطائرات، والسفن الحربية، والصواريخ، وفي بعض الحالات القبلية الأسلحة الكيميائية والنووية. وجميع أنواع الأسلحة هذه نشأت وتطوّرت

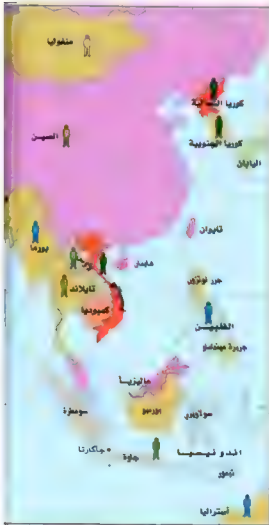
العناصر الأساسية للقوات المسلحة الحديثة ثلاثة، هي: أنواع السلاح المستعمل؛ مصادر التزوّد بالسلاح؛ وتنظيم الأتاس المطلوب منهم استخدام ذلك السلاح. والقوات المسلحة للدول ذات الأغلبية السكانية المسلمة لا تملك في العادة إلا خصائص قليلة تميزها عن سواها وتطبعها بالطابع الإسلامي.

فهذه الدول كافة تملك قوات مسلحة منظمة قوامها موظفون ومستخدمون بدوام كامل. وهي مرتبة وفق هيكلية عسكرية تبلورت في أوروبا خلال القرن الثامن عشر إنما جرى تكيفها بما يتماشى وطبيعة القتاد المعاصر، بما في ذلك الطائرات. فالمصطلح العسكري «سكادرون»، الذي كان يستخدم تاريخياً للدلالة على

«شاهين -1»، صاروخ باكستاني أرض - أرض، يستطيع حمل أي نوع من أنواع الرؤوس الحربية، بما فيها النووية، إلى مسافة 434 ميلاً (حوالي 700 كيلومتر). التقطت هذه الصورة في تشرين الأول / أكتوبر 2003، في وقت بدت فيه محادثات السلام الجارية مع الهند حول المنطقة المتنازع عليها من كشمير وكأنها على وشك الانتهاء



مجموعة صغيرة من السفن (عمارة أسطول)، أو على شريطة من الفرسان (سرية خيالة)، بات يطبق على الطائرات (سرب طائرات)، وحتى البرزات العسكرية، فإنها تجددها هي الأخرى ذات تصاميم أوروبية طاغية إن القوات المسلحة لجميع الدول مشربة بالثقافات التي أوجدتها، والقوات المسلحة في الدول الإسلامية ليست استثناء عن هذه القاعدة. لكن التقاليد الإسلامية يمكن تلمسها في زبي الوحدات وأعلامها أو شعاراتها. فبعض الدول، ولا سيما الدول الصغيرة في الخليج مثلاً، تستفيد من خدمات المرتزقة على نطاق واسع. لكن هذه الممارسة القديمة العهد والهجينة ثقافياً يمكن العثور عليها في غير الدول الإسلامية



الدول الإسلامية، من المغرب إلى إندونيسيا، تدور بمعظمها حالياً في فلك الولايات المتحدة. وتبعاً لذلك، تميل تلك الدول إلى تدريب وتنظيم قواتها المسلحة على النمط الأمريكي. وهذا النفوذ يحدّ باطّراد محل نظيره البريطاني أو الفرنسي أو الروسي السابق، إلّا في حالاتٍ سورية وليبيا، حيث أسلحة وتنظيمات الحقبة السوفييتية لا تزال ملموسة إلى حد بعيد. ربما تكون إيران استثناءً لجهة تطورها مركزاً مستقلاً لها على الصعيد العسكري. إلّا أنّ هذا المركز ما برح ضعيفاً وفي أولى مراحل نموه. ثمة من بين أعضاء الحكومة الإيرانية من يعلن أنّ الأسلحة النووية تتنافى ومبادئ الإسلام. صحيح أنّك تلمس مشاعر وآراء مماثلة يعبّر عنها في البلدان المسيحية، إلّا أنّه نادراً ما تجدّها داخل الحكومة.

إلى ما هي عليه الآن من قبل الدول الصناعية إبّان الحرب العالمية الثانية والدول الإسلامية بعامّة تندرج في عداد البلدان النامية، إذ لا تملك أي منها قاعدة صناعية متقدمة، مما يعني أنّها مضطرة إلى استيراد منظومات أسلحتها الرئيسية كافة من الخارج. والاستثناء هنا نوعان: الأول، إنّ البنادق والمسدسات وبخائنها وسواها من الأسلحة الصغيرة يتمّ صنعها بكميّات وفيرة؛ والثاني، إنّ بضع دولٍ مما لها حلفاء أقوياء، مثل باكستان وتركيا ومصر، تحظى بقدر من المساعدة الخارجية في تطوير صناعة خاصة بها لإنتاج الأسلحة. ويُعتقد أنّ باكستان قد حصلت على مساعدة تقنية من الصين في تطوير برنامجها النووي. وعلى شاكلة القسم الأكبر من دول العالم، نجد



إضاءة سريعة: جنوب شرقي آسيا 1950 - 2000

الشرقية، وكذلك في جنوب جُزر سيلانيزي. وفي تشرين الأول/أكتوبر 2002، انفجرت قنابل (يُزعم أن أعضاء من منظمة «القاعدة» هم الذين زرعوها) في حانة ليلية على جزيرة بالي، مما أسفر عن مقتل 200 شخص وجرح 300 آخرين.

تالت ماليزيا استقلالها في العام 1957 وشكّلت اتحاداً يضم الملايو وسنغافورة وصباح وساراواك. وقد انسحبت سنغافورة من الاتحاد في العام 1966 واعتنقت سياسة للحكم متعدد الأعراق والديانات؛ فيما يُعتبر الإسلام، على النقيض من ذلك، دين الدولة الرسمي في ماليزيا. منذ ما قبل تأسيسها، وحالات

شهدت أواخر الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين ظهور تشكيلة متزعة من الدول في جنوب شرقي آسيا. تتألف المنطقة، في الوقت الحاضر، من جمهورية إندونيسيا واتحاد ماليزيا وسلطنة بروناي، حيث المسلمون أكثرية؛ ومن جمهوريات سنغافورة والفلبين وميانمار (الجمهورية الاشتراكية للاتحاد البورمي)، ومملكة تايلاند، وجمهورية لاو الديمقراطية الشعبية (لاوس)، وجمهورية كامبوتشيا الشعبية (كامبوديا)، وجمهورية فييتنام الاشتراكية، حيث المسلمون أقلية.

تميّز انخراط المسلمين في تكوين وتطوير عدد من هذه الدول على مدى السنوات الخمسين الماضية

عقبات صغيرات في أتشيه بإندونيسيا بتعلم القرآن. كانت أتشيه، تاريخياً، مركزاً للمقاومة الإسلامية ضد الحكم الاستعماري الهولندي، وهي اليوم المقاطعة الإندونيسية الوحيدة التي أعادت العمل بالشريعة الإسلامية كأساس للقانون العام



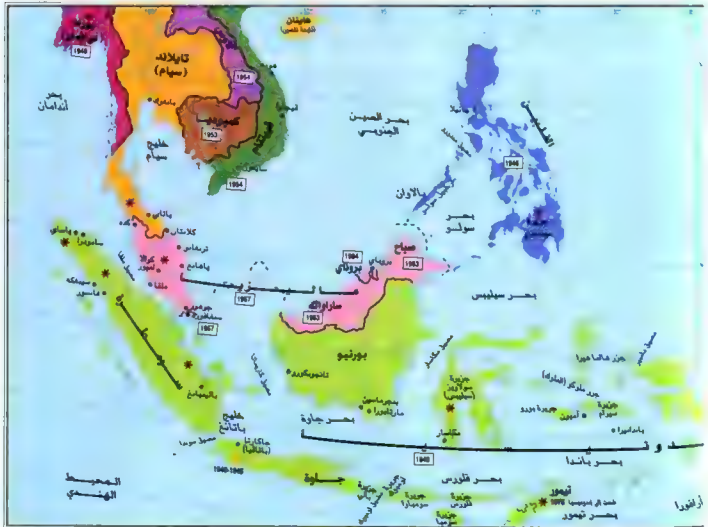
بالمتعدد والتنوع. وقد تخلّلت، جزئياً، سلسلة من الاتعاعات التي شملت مسلمين من شتى التوجهات والتطلعات.

تتكون جمهورية إندونيسيا مثلاً في الفترة 1949 - 1950. اقترن بانتفاضات (1948 و 1953) قام بها عدد كبير من المسلمين في غرب جاوه وجنوب جُزر سيلانيزي (سلبيس) وأتشيه (شمال سومطرة)، لأن زعماءهم لم يرق لهم القرار المتخذ بتقييد دور الإسلام في الجمهورية الوليدة. وفي السنوات الأخيرة كذلك، شهدت إندونيسيا ولا تزال سلسلة من النزاعات المحلية الإقليمية والدولية التي للمسلمين ضلع فيها. فما بين عامي 1999 و 2000، اندلع صراع بين المسلمين والمسيحيين في جزر الملوك (ملوكي) الإندونيسية

الانفصال عن دولة الفلبين، وإلى إقامة وطن مستقل للمسلمين الفلبينيين. كما سعت حكومات الفلبينية متعاقبة إلى التوصل إلى تسويات مع المسلمين في المنطقة. والمسلمون في تايلاند يتركزون بالدرجة الأولى في سياتون، شمال غربي البلاد، وفي الأقاليح الجنوبية: باتاني ويولا وناريثوت، المحاذية لماليزيا. وقد بلغت مقاومة المسلمين للدولة التايلاندية، المتخذة شكل نضالات مسلحة ودعوات انفصالية، ذروتها في عقد التسعينيات من القرن العشرين. أما المسلمون في ميانمار (بورما)، فهم يقطنون غالباً في منطقة أراكان على حدود البلاد مع بنغلادش، وما انفكوا منذ خمسينيات القرن المنصرم في نزاع متواصل مع السلطات هناك حول وضعهم القانوني.

التوتر دائمة الصبغ بين سكان ماليزيا الصينيين والملاويين، حتى إن إنداحتها انفجرت على شكل أعمال شغب عرقية في عام 1969. وحديث إن الملاويين مسلمون ويشكلون الغالبية العظمى من سكان البلاد، فإن مثل هذه النزاعات بين فئات المجتمع المختلفة لا بد من أن تأخذ بعداً دينياً. غير أن ماليزيا تشهد كذلك توتراً داخل المجتمع الإسلامي نفسه يستمر معه المسلمون في مناقشة طبيعة دور الإسلام ومداه في شؤون الحكم.

وفي الفلبين، يتواجد المسلمون (أو «المورو» كما يُسمون في كثير من الأحيان) أكثر ما يتواجدون على جزيرة منداناو وأرخبيل سولو. وقد رأينا المسلمين هناك يدعون في أوائل السبعينيات من القرن العشرين إلى



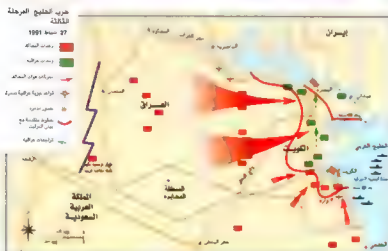
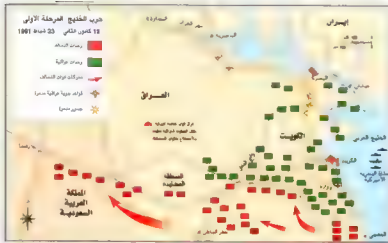
إضاءة سريضة: العراق 1917 - 2003

السكان هم من الأكراد، ويتواجدون أساساً في شمال البلاد، خلال السنوات الأخيرة من الحكم العثماني، انتقلت حركة تدعو إلى الاستقلال بين ضباط الجيش وأعيان المدن، أجتاحت مشاعر قومية عربية جياشة. وحين منحت بريطانيا، التي كانت احتلت بغداد عام 1917 ونصبت حكومة عسكرية في البصرة، تفويضاً بالانتداب على العراق في مؤتمر سان ريمو عام 1920، واجهت سلسلة من الثورات شارك فيها موظفون سابقون في الإدارة العثمانية وملاك عقاريون وزعماء عشائر ورجال دين سُنّة وشيعة، وكذلك ضباط عسكريون. ردة الإنجليز على ذلك بإقامة ملكية دستورية على رأسها فيصل بن الحسين، أحد أبناء شريف مكة، الذي كان الفرنسيون قد أخرجوه عنوة من دمشق. وقد انتهى الانتداب البريطاني في عام 1932، حين قبل العراق عضواً في عصبة الأمم، لكن بريطانيا احتفظت بقواعد جوية لها في الشعبة والحبانية، ويحصه حاكمية في شركة نفط العراق التي باشرت بتصدير النفط في عام 1934. ولئن أدخلت النخبة العراقية في الحكومة، إلا أنها ظلت منقسمة على نفسها تتنازعاً مختلف المصالح الفنية والعشائرية، في حين عملت الاضطرابات في فلسطين الناجمة عن الهجرة اليهودية على إلهاب الحس القومي والمشاعر المناوئة للإنجليز. وقد أدى انقلاب عسكري موالٍ للمحور قامت به مجموعة من الضباط القوميين عرفت به «المرح الذهبي»، إلى احتلال البريطانيين بغداد والبصرة للمرة الثانية في عام 1941.

وتسببت أزمة السويس عام 1956، وانضمام العراق إلى «حلف بغداد» الذي يضم تركيا وإيران وباكستان، والموالي للغرب والهادف إلى احتواء النفوذ السوفييتي، بحادث توترات شديدة ما لبثت أن انتهت بقيام ثورة تمكنت بدعم شويخي من الإطاحة بالنظام الملكي في عام 1958. غير أن الحكم العسكري الجديد نفسه استبدل في عام 1963 (ومرة أخرى في عام 1968) بضباط ينتمون إلى حزب البعث العلماني التوجه. وفي ظل صدام حسين التكريتي (نائب رئيس الجمهورية الفريق أحمد حسن البكر، ورجل النظام القوي قبل زمن طويل من تبوّته سدة الرئاسة في عام 1979)، سُفّرت عشيرة البو نصير من تكريت جهاز حزب البعث على

بشأن معظم الدول العربية، أصبح العراق دولة مستقلة بعد انقراض عقد الامبراطورية العثمانية عند نهاية الحرب العالمية الأولى. وقد واجه منذ البداية مشاكل جمة في بلورة شعور موحد بالهوية القومية. صحيح أنه كان تحت حكم العثمانيين المتمسكين بالمذهب السني، إلا أن أغلبية السكان العرب (حوالي 60 بالمئة) هم من الشيعة الذين تربطهم وشائج دينية وثقافية قوية بإيران المجاورة، حيث المذهب الشيعي هو عقيدة الدولة الرسمية منذ القرن السادس عشر. وزهاء ربع





المثال المعمول به في بلدان أوروبا الشرقية لبناء مراكز قوى مهيولة أساسها توليفة مركبة من المحسوبة والإكراه. وقد أثبت نظام الحكم هذا أنه منيع وصامد على تحولات المنظور. وعمل ما في وسعه لخلق شعور بالهوية الوطنية العراقية. أساسه التراث العربي - الإسلامي والتراث «الرافدي» ما قبل الإسلامي، مع توظيفه للتنقيبات الأثرية والفولكلور والشعر والفنون على أنواعها لتعزيز حسن الفكرة والتمايز العراقيين. وجرى التنكيل بالأكراد على نحو وحشي، فدمرت نحو من ألف قرية وأزهقت أرواح آلاف المدنيين بالغارات السامة. هذا بينما وقف الشيعة، على وجه العموم، إلى جانب الحكومة في حربها الكارثية مع إيران (1980-1988)، وإن كانت هناك معارضة لا يستهان بها من جانب حزب الدعوة الذي أسسه رجل الدين المفقود، آية الله محمد باقر الصدر في ستينيات القرن العشرين. وفي أعقاب قيام قوات تحالف دولي بطرد العراقيين من الكويت في عام 1991، اندلعت انتفاضة شيعية في عدد من المدن الجنوبية، من بينها البصرة والنجف وكربلاء، لكنها سرعان ما أضعفت دونما رحمة بالزعم والوجود القوات الأمريكية في المنطقة. وفي حملتها لاستئصال شائقة المعارضة بكل صورها، أقدمت الحكومة العراقية على تجفيف المستنقعات الجنوبية (الأهوار) التي يقطنها الشيعة؛ في حين وجد الأكراد في المنظمة الجبيلة للقوات المتحالفة حماية فعالة لهم.

وخلافاً لكل التوقعات، لم تحمل العقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة على العراق بعد احتلاله الكويت سوى على تشديد قبضة النظام الحاكم على المجتمع العراقي، وأغنت أكثر فأكثر الشبكات التي يسيطر عليها صدام حسين وإبناؤه من خلال احتكازهم صادرات النفط غير الشرعية وبرنامج الأمم المتحدة «النقط مقابل الغذاء». وقد اكتمل سقوط النظام إثر الهجوم الأنجلو - أمريكي على العراق في آذار/مارس 2003، بالقبض على صدام حسين في كانون الأول/ديسمبر من نفس العام. إلا أنه من غير الواضح بعد ما إذا كان الأميركيون سينجحون في تحقيق هدفهم المعلن، ألا وهو إقامة نظام حكم ديمقراطي يحظى بالقبول لدى جميع فئات الشعب العراقي.

إضاءة سرية: أفغانستان 1840 - 2002



أفغانيا يحمل قذيفة إلى خط الجبهة
سوف يتلقى هؤلاء المقاتلون في
وقت لاحق صواريخ «ستونفر»
أرض - جو. وهذا السلاح على خطه
ورنه وقابليته للعمل، يحتوي على
أجهزة إلكترونية بالغة التعقيد
للتتبع الهدف. وقد تزود المقاتلون
سراً بهذا الصاروخ عن طريق دائرة
الاستخبارات الباكستانية، وكان له
أثر مدس على الاحتلال السوفييتي،
وأتاح لرجال قبائل غير مدربين أن
يستغلوا طائرات هليكوبتر حربية

أفغانستان بلاد جبلية تكثر فيها الأودية السحيقة
والوادي والتجود القاحلة: وهي لم تشكل في أي وقت
مضى كياناً سياسياً واحداً وإن دخلت أجزاء منها
ضمن دولة البشتون التي أسسها أحمد شاه دراني
(ح 1747-1772). سكان البلاد في غاية التعمد
والتنوع، يُمثل البشتون، وهم أكبر مجموعة عرقية -
لغوية فيهم، حوالي 47 بالمئة. وتتركز هذه المجموعة
السكانية في الهزام الجنوبي من المناطق الصحائية
للحدود مع باكستان. أما الطاجيك، وهم ثاني أكبر
مجموعة سكانية من حيث الحجم (حوالي 35 بالمئة)،
فيعيشون أساساً في شمال البلاد، إلى جانب الأوزبك
والتركمان والقرغيز (8 بالمئة). فيما يُمثل الهزاره،
وهم من الشيعة الإمامية، نحواً من 7 بالمئة من
السكان.

ونتيجة الصراع بين الإخوة، تفككت أوصال الدولة
الدورانية في القرن التاسع عشر. وقد فتح ذلك الباب
واسعاً أمام التدخل الروسي والبريطاني. فاهتمام
بريطانيا بحماية إمبراطوريتها من التهديتات الروسية،
حفزها على اجتياح أفغانستان مرتين الأولى في
الفترة 1839-1842، والثانية في الفترة 1879-1880.
ونظراً لحاجتها إلى حكومة مركزية قوية لتثبيت وجود
أفغانستان دولة عازلة في وجه الروس، نصبت
بريطانيا «الأمير المديني» عبد الرحمن خان
(ح 1880-1901). فوطد هذا الأخير سلطانه على البلاد
بشأن حرياً ضد الهزاتة الشهمة وقام بصلات هداية
قسرية لأهالي كافرستان الأسليين من غير المسلمين.
وفي خطوة لم يسبق لها مثيل، أعلن عبد الرحمن أنه
يحكم بموجب حق إلهي وليس بتفويض قبلي.
فأورست سياسة تمييزية ضد كل من هو غير البشتون
وأرقق كاهلهم بالضرائب الجائرة.

أباً كان الأمر، فقد أدخلت أيضاً عناصر الدولة
الحديثة إلى أفغانستان، وفي مقدمتها تكوين جيش
مركزي استُخدم لإخماد تمردات القبائل، وتطعت
الحكومة في دوائر رسمية متفصل بعضها عن بعض.
وفي عهد ابن عبد الرحمن، حبيب الله (ح 1909-

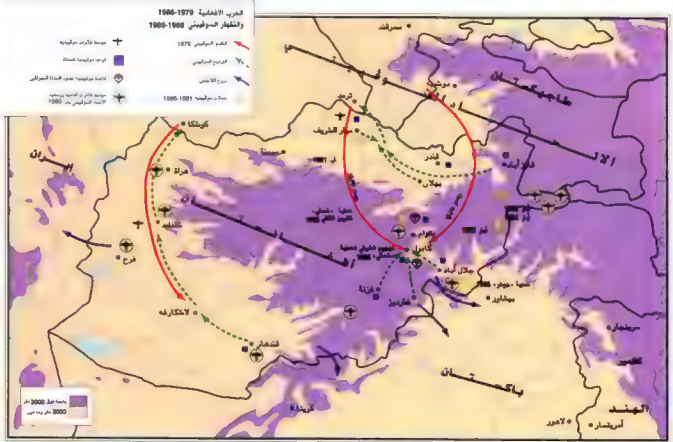
1919)، طُبق مبدأ الاحتراف في الجيش، كما أدخل
التعليم الحديث إلى البلاد. وقام ابن حبيب الله وخلفه
أسان الله (ح 1919-1929) بدفع عجلة التحديث
أشواطاً إلى الأمام باجتراحه تغييرات تشريعية كبيرة،
بما في ذلك تحريم العبودية. وشرع يسمح بتعليم
النساء، وعُدل من وضعيتهن القانونية بأن منحهن
حقوقاً متساوية في الزواج والطلاق والميراث، كذلك
اعتمد اللباس الغربي في البلاط. فأدارت تلك
الإصلاحات حفيظة بعض العلماء وزعماء القبائل
المحافظين المنتمين إلى الطريقة النقشبندية، فثاروا
على أسان الله وأجبروه على ترك البلاد إلى المنفى في
عام 1929.

وآل الأمر بعد أسان الله إلى القائد العسكري
البشتوني شاد شاه (ح 1929-1939)، فأعاد خلفه
ظاهروني (ح 1939-1973) العمل بالحاكم الشرعية،
وكافأ قبائل البشتون التي كان يعمل عليها بإعطاء
المناصب الحكومية على زعمائها، وغض الطرف عن
ممارسة التمييز المفرط ضد أبناء البلاد من غير
البشتون في توزيع الثروة. وفي الوقت عينه، استؤنف
برنامج التحديث إنما بشكل معطل، اضطلعت الدولة فيه
بالدور الرئيسي في التنمية الاقتصادية. وبفعل
الضغوط الاستراتيجية الناجمة عن مغاميل الحرب
الباردة والنزعة القومية البشتونية للنظام التي ولدت
توترات حادة مع الدولة الجارة: باكستان، اقترب طرف
نافذ في النخبة البشتونية من موسكو. وأتت هذه
العملية إلى عزل ظاهر شاه على يد ابن عمه، رئيس
الوزراء الأسبق محمد داود، بدعم من بعض الدول
المجاورة. ألغى داود الملكية، وأعلن نفسه رئيساً
لجمهورية أفغانستان. رد السوفييت بتدبير انقلاب
عسكري قادته حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني،
الشيعي، وأدت هذه الخطوة إلى تدخل سوفييتي
مباشر في عام 1979 لمساندة جناح «برشام» (غير
البشتوني) في حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني
بزعامة بابر كرامال. والجهاد الذي تبع ذلك، ونال
دعم بعض الدول العربية، إضافة إلى باكستان

الملا محمد عمر. وبعد أن تمت لهم السيطرة على كابول في عام 1994، منع الطالبان النساء من الذهاب إلى المدارس أو الخروج إلى أماكن العمل، وارتكبوا قذاعات بحق أبناء قبائل الهزارة الشيعة، ودفعوا بإيران إلى حافة التدخل العسكري عندما أقدموا على قتل تسعة من دبلوماسيها.

وفي أعقاب الهجمات على نيويورك وواشنطن في

والولايات المتحدة، اجتذب متطوعين من العديد من البلدان الإسلامية، وكان من ضمن هؤلاء المتطوعين. الثري أسامة بن لادن الذي تزعم فيما بعد شبكة القاعدة. وبواسطة صواريخ ستينغر المضادة للطائرات التي زودتهم بها الولايات المتحدة، أجبر المقاتلون الاتحاد السوفييتي على سحب جنوده من أفغانستان في عام 1989، غير أن النضال ضد السوفييت بدلاً من



11 أيلول/سبتمبر 2001 من جانب إرهابيين قبل بأنهم ينتمون إلى شبكة القاعدة بزعامة بن لادن، أطاح الأميركيون بنظام طالبان في خضم حملة من القصف الجوي المكثف. والزعيم البشتوني الجديد، حميد كرزاي، الذي نصبته الولايات المتحدة رئيساً للبلاد إثر المؤتمر الدولي حول أفغانستان المنعقد في برلين، يمت بصلة قرابة إلى ظاهر شاه.

أن يولد شعوراً بالوحدة الوطنية، جاء ليُقاوم من حدة الشقاق والتنازع بين المجموعات العرقية المختلفة، لاسيما وأن المؤسسات المركزية للدولة كانت قد أخذت في الانحلال. والافتتال الفنزوي الذي أعقب الانسحاب السوفييتي وانهار نظام الحكم الماركسي للجنرال نجيب الله في عام 1992، فتح الباب واسعاً أمام مجيء نظام طالبان البشتوني بزعامة حليف بن لادن الوفيق:

الجزيرة العربية والخليج 1839 - 1950

وشويعني، بإصدارهم مرسوماً يقضي بأن تعرّض زنجبار التي ورثها ماجد، على مسقط التي ورثها ثويني، لفقدان هذه الأخيرة العائدات من جراء تقسيم السلطة بينهما. والذي حفّز بريطانيا على التدخل في منطقة الخليج إلى الشمال من مسقط، الحاجة إلى مكافحة القرصنة المستفحلة فضلاً عن شيوخ الاسترقاق هناك. وهكذا، ولّعت سلسلة من المعاهدات ما بين عامي 1835 و 1853 وافق بموجبها شيوخ القبائل العربية المشتغلة في البحر، التي كانت تعيش على الغنائم المنتزعة من السفن العربية وحتى البريطانية، على عقد هدنة تنهي كل أعمال القرصنة، والمواقفة في الوقت عينه على حظر تجارة العبيد، وترك أمر الإشراف على مدى التقيد بالموافيق للبحرية الهندية البريطانية. وقد حوّل نظام التهاند هذا صناعة صيد اللؤلؤ في الخليج، كما عاد الفائدة على الملاحة العربية التي طالما عانت أكثر من غيرها من اعتماد الأمن والطمأنينة بسبب القرصنة، مما كان يحمل التجار المحليين على نقل بضائعهم بواسطة السفن البريطانية الأفضل تسليحاً والأمن حياً. ودويلات الساحل المتصالح (دولة الإمارات العربية المتحدة حالياً) ظلّت بحكم المصمبات البريطانية حتى عام 1971، ترفضها بريطانيا بالضباط وتشرّف على سياستها الخارجية.

وسّعت بريطانيا نطاق نفوذها ليشمل الكويت عام 1896، حيث أقامت محمية غير رسمية لحماية وكيلها، الشيخ مبارك الصباح، من الاحتلال التركي المباشر. وصفتها قوة رئيسية كبرى في المنطقة، راحت بريطانيا تتدخل في العديد من النزاعات المحلية وتدخل تعديلات على الحدود المتنازع عليها، وتحاول ضمان استمرارية الوراثة. وأبرز حالة تستحق الذكر في هذا الصدد، النزاع الذي نشب بين أبو ظبي وعُمان والمملكة العربية السعودية على واحة البُرَيْسي. وقد فضّ النزاع بقيام قوات الساحل المتصالح العُمانية بقيادة بريطانيا بإخراج السعوديين من الواحة في عام 1955. كما أنّ مطالبة العراق بالكويت (التي تعود إلى أيام العثمانيين حين اعترف الشيخ رسمياً بالسيادة العثمانية على بلاده) قاومتها بريطانيا بأن أرسلت جنودها إلى الكويت لضمان استقلالها في عام 1961

التاريخ الحديث للجزيرة العربية والخليج عبارة عن نسج معقد من التفاعلات بين القوى المطية على الأرض من جهة، والقوى الإقليمية والدولية من جهة أخرى. وقد تصاعفت الرهانات تضاعفاً هائلاً بوجود النفط واعتماد الاقتصادات الغربية، بالإضافة إلى الاقتصاد الهابتي، على الإمدادات المنتظمة التي يمكن تأمينها منه. وإلى حين اكتشاف النفط في المنطقة، كانت في الأغلب الأعم منطقة فقيرة (فيما خلا مركزي صيد اللؤلؤ في الكويت والبحرين وميناء مسقط التجاري). ولا أهمية كبيرة لها بالنسبة للعالم الخارجي. بيد أن بريطانيا كانت في حاجة إلى حماية إمبراطوريتها الهندية من خصوم أو منافسين محتملين، بمن فيهم روسيا القيصرية والسلطنة العثمانية وإيران، اذلك أقدمت على احتلال عدن في عام 1839، التي سرعان ما أصبحت محطة حيوية للتزود بالقحم (وقدما بعد مستودعاً لإعادة التزود بالوقود) في الطريق إلى الهند.

وهذا التطور الذي عرفته عدن، دشّن عملية ضخمة قام بها البريطانيون طوال الثلاثينيات من القرن العشرين لتهدئة كل المنطقة الساحلية في جنوب الجزيرة العربية ولا سيما القطاعات القريبة من موانئها، بما فيها مرتفعات لمح والمدن - الدويلات المتناحرة في وادي حضرموت، مستخدمين في ذلك قاذفات القنابل التابعة ل سلاح الجو الملكي كرادع أحيان. وقد ضمت محمية جنوب الجزيرة العربية (سُميت لاحقاً «اليمن الجنوبي» قبل أن تتوحد مع اليمن في عام 1991) نحواً من ثلاث وعشرين سلطنة وإمارة وكياناً قبلية تحت السيطرة التامة والشاملة لبريطانيا، حيث السلاطين يهيمنون على المدن، وحيث طبقة «السادة» التي تزعم تصدرها من سلالة الرسول، تحتكر ملكية الأرض وتقوم بدور الوسيط بين عشائر الداهل. وإلى مسافة أبعد شرقاً، تمكّنت أسرة اليوسعيد العُمانية في عهد زعيمها سيد سعيد بن سلطان (1807-1856) من خلق دولة مترامية الأطراف في المحيط الهندي أخذت تغتني وتزداد ثراءً بفضل تجارة العبيد وتصدير العاج والتوابل من المناطق الخاضعة للسلطان في زنجبار. وبموجب سلسلة من الموائيق المبرمة ما بين 1838 و 1856، نزل سيد سعيد عند طلب الإنجليز بالحد من الخفاشة في البلاد، موقراً المزيد من النزاع للتدخل البريطاني. فلدى وفاته في العام 1856، سوى البريطانيون نزاعاً نشب بين ابنه: ماجد



صعود الدولة السعودية

بحيث انتقلت السلطة في تسعينيات القرن التاسع عشر إلى أسرة آل الرشيد الموالية للعثمانيين. ومن خلال إحيائه دولة أسلافه إثر غارة قام بها على معقل آل الرشيد في الرياض عام 1902، اتبع سليل محمد آل سعود، المفقور له عبد العزيز بن سعود، النموذج الكلاسيكي نفسه الذي يضافر بين القوة العسكرية للقبائل والقوة المعنوية للإحياء الديني. نظم محاربو ابن سعود، المعروفون بـ«الإخوان»، ضمن مستوطنات زراعية سُمّيت «الهجرات». وقد استلهمت هذه الأخيرة من المجتمع الذي بنىه النبي محمد عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة في العام 622. وقد أضحى فيها البدو لتدريب عسكري وتلقف ديني صارم. ولما كانت مستوطنات «الهجرات» تلك متوزعة في نقاط استراتيجية على امتداد الهضبة النجدية، فقد كان في استطاع تعبئة الإخوان وحشدهم على جناح السرعة مما وفر على ابن سعود أعماه الإنفاق على جيش مستديم.

وقد أعادت الدول الأوروبية تمركز الدولة السعودية باتجاه الخارج بأن أحكمت السطوق على الجزيرة العربية من خلال السيطرة على محيطها.



مراحل اتساع الدولة السعودية 1926-1902

1912 رأس شدة سيطرة آل سعود حوالي

1920 رأس تم تدميرها بحلول

1926 رأس تم تدميرها بحلول

مجاهد يدمكنا عسكرياً
صحيحاً

رأس شدة سيطرة آل سعود

رأس شدة سيطرة آل سعود

رأس شدة سيطرة آل سعود

رأس شدة سيطرة آل سعود

رأس شدة سيطرة آل سعود

لعلك تجد في قيام المملكة العربية السعودية في القرن العشرين ترجيحاً للعديد من السمات التي وسعت دعوة النبي محمد عليه الصلاة والسلام. يعود تأسيس الدولة السعودية الأولى إلى القرن الثامن عشر، حين قامت على تحالف ما بين مُصلح ديني من المذهب الشيعلي، هو محمد بن عبد الوهاب، وبين محمد آل سعود، حاكم مدينة عنيزة بالقصيم. إلا أن نفوذ محمد آل سعود تقلص كثيراً من جراء التدخل المصري في عام 1818،

المفقور له بلان الله الملك
عبد العزيز بن سعود (يبدو في الصورة جالساً في الصف الأمامي إلى اليسار)، وقد طُور ابن سعود حركة «الإخوان» بتجنيد أفرادها من القبائل البدوية. وبهذه القوة الملتزمة، استطاع بناء الدولة التي صارت تعرف منذ عام 1932 بـ«المملكة العربية السعودية»

إضاءة سرية: إسرائيل - فلسطين

تكمُن جذور النزاع العربي - الإسرائيلي في جنين اليهود المهري للعودة إلى «أرض إسرائيل»، الأرض التي وعد الله بها النبي إبراهيم. وقد بُنيت الصهيونية الحديثة على هذا الاعتقاد الموروث، إذ رأت أن الخلاص من الاضطهاد يكون في امتلاك أرض يمكن إقامة دولة يهودية ذات سيادة عليها. أقيمت أول مستوطنة يهودية عام 1878 في بتاح تيكفا. وأثناء الحرب العالمية الأولى، أعطى البريطانيون تعهدات متناقضة للعرب واليهود: فوعدوا شريف مكة بدولة مستقلة، وبناء عليه قاد أبناء فيصل وعبد الله الثورة العربية ضد الأتراك العثمانيين؛ وفي نفس الوقت، قبلوا بإقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وهو المشروع الذي حظي بتأييد متزايد من الجاليات اليهودية في أوروبا، ولا سيما بعد وصول النازيين إلى سدة الحكم في ألمانيا. وإثر انتفاضة قام بها عرب فلسطين ابتداء من عام 1936، وضعت خطة لتقسيم فلسطين إلى دولتين: عربية ويهودية، إلا أن الخطة عُلّقت لدى اندلاع الأعمال العدائية بين الطرفين عام 1939. وبعد أن أباطم الحلفاء في الحرب العالمية الثانية النقلاب عن فطائع الإبادة الجماعية التي اقترحتها النازيون بحق اليهود، تزايدت الضغوط للسماح بهجرة يهودية واسعة النطاق إلى فلسطين، وسرعان ما أصبحت تلك الضغوط جارية. يتعذر الوقوف في وجهها. في عام 1947، صدرت خطة تقسيم فلسطين عن منظمة الأمم المتحدة التي تنص على قيام دولتين: عربية ويهودية، «متشاككتين معاً في عناق غير ودي» لكنهما حيتان متصارعتان، على حد وصف أحد المسؤولين. قبل زعماء اليهود بالخطة لكن العرب رفضوها. في 14 أيار/مايو 1948، انسحب البريطانيون من فلسطين، وفي اليوم التالي اعترفت الدول الكبرى باستقلال دولة إسرائيل. استطاعت الدولة الجديدة أن تنجو من هجمات متزامنة إنما غير منسقة، شنتها عليها جيوش الدول العربية المجاورة، مما عاد عليها بمزيد من الأراضي فوق ما مُنح لها بموجب خطة الأمم المتحدة. بسط شرقي الأردن - الأردن لاحقاً - سيطرته على جزء من فلسطين، بما فيه القدس الشرقية التي تضم أماكن ومزارات مقدسة لدى اليهود والمسيحيين والمسلمين جميعاً. وجاءت هجمات شنتها مقاتلون يهود غير نظاميين، كالمذبحة التي طالت أهالي قرية دير ياسين الفلسطينية عام 1948، لتحت آلاف الفلسطينيين على الفرار من مدُنهم وقراهم، مما خلق مشكلة لاجئين سوف تعمل باستمرار على صب الزيت على النار وتتسبب بنشوب الحروب تباعاً في الأعوام 1956، 1967، 1973 و1982.



كانت منظمة التحرير الفلسطينية، بزعامة ياسر عرفات، قد اعترفت بحق إسرائيل في الوجود عام 1988، وظفرت بحكم ذاتي محدود للفلسطينيين في غزة وأريحا وأجزاء أخرى من الضفة الغربية بموجب اتفاق أوسلو لعام 1993. فإن منظمتهن حماس والجهاد الإسلامي وسواهما من المنظمات الإسلامية، قد أعلنت رفضها للعملية السلمية والحال، أن استمرار الاستيطان اليهودي، والهجمات الإرهابية على المدنيين بما فيها التفجيرات الانتحارية، والإجراءات التي تتخذها إسرائيل من قبيل بناء جدار فصل على شاكلة جدار برلين بين إسرائيل والضفة الغربية، وعمليات «القتل المستهدف» التي تطلق قادة فلسطينيين، إن كل ذلك جعل احتمالات التوصل إلى سلام بين إسرائيل والفلسطينيين أكثر صعوبة.

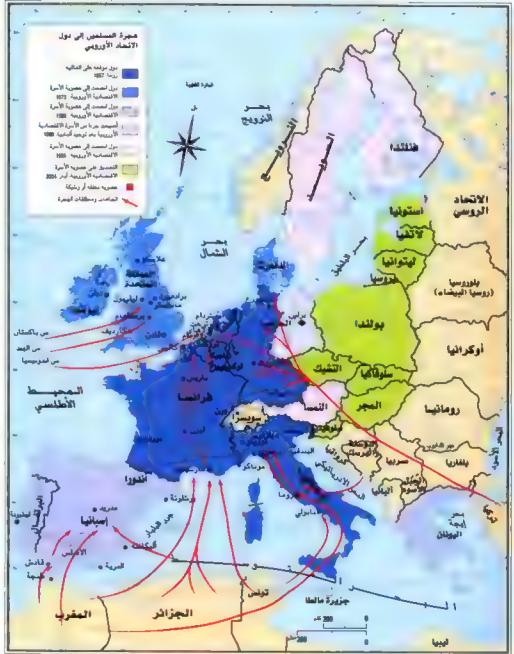
أدت الحرب العربية - الإسرائيلية الشالفة في حزيران/يونيو 1967 إلى تمكين إسرائيل من السيطرة على شبه جزيرة سيناء، وقطاع غزة، والضفة الغربية ومرتفعات الجولان السورية. وقد عمدت إسرائيل في وقت لاحق إلى ضم القدس الشرقية العربية إليها، وزرعت المستوطنات اليهودية في جميع المناطق المحتلة. النجاحات العسكرية المحدودة التي أحرزها المصريون في الحرب العربية - الإسرائيلية الرابعة في تشرين الأول/أكتوبر 1973، شجعت الرئيس المصري أنور السادات على زيارة القدس في عام 1977. وقد دشنت هذه الزيارة عملية سياسية تشوحت بتوقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل في كامب ديفيد عام 1979. تبعها اتفاقية فك الاشتباك مع سورية، ومعاهدة سلام بين إسرائيل والأردن في عام 1994. غير أن المسألة الفلسطينية بقيت من دون حل، وإذا



المسلمون في أوروبا الضريبة

وتونس، وكذلك من بلدان غرب إفريقيا شرعوا بعد ذلك بالتوافد على فرنسا بأعداد متزايدة وترسيخ أقدامهم فيها. في البداية، كان المهاجرون في معظمهم من الذكور الذين يبعثون بتحويلات نقدية إلى عوائلهم في الوطن. إنما أخذت كفتي الجنسين تتعاذلان بوصول عائلات بكامل أفرادها إلى هناك اعتباراً من ثمانينيات القرن العشرين. هذا ولئن كانت هناك جاليات مسلمة لا يستهان بها في مدن مرسيليا وليون وليل، إنما تبقى باريس مدينة التوطن باعتبارها بالنسبة للمهاجرين المسلمين. أقام مسجد باريس الكبير في عام 1926، لكن الأحياء الإسلامية الرئيسية من المدينة لم تغد ألفة بالسكان إلا في الفترة التالية لخمسينيات من القرن العشرين. ولا يزال المسلمون في فرنسا محل استقطاب بلدان المنشأ التي وفدوا منها، ولعل كثرة المساجد التي يبنونها تمثل وجه التنوع والاختلاف هذا. والجماعات الصوفية بنوع خاص، ناشطة في باريس ولا سيما تلك العائدة إلى طرق إفريقية شمالية كالطريقة الدرقاوية والطريقة العلوية. وتجذب هذه الجماعات حتى بعض الفرنسيين ممن دخلوا مؤخرًا في الإسلام. ألمانيا (هامبورغ، ميونيخ، فرانكفورت):

يغلب على الهجرة الإسلامية إلى ألمانيا العرق التركي: ففي سنوات الخمسينيات من القرن العشرين، شجعت ألمانيا بصورة فعالة هجرة العمال الأتراك إليها. ومعظم فرص العمل المعروضة، كانت لغير المهرة أو



فرنسا (باريس):

حتى الستينيات من القرن العشرين، كانت العالمية العظمى من المهاجرين من البلدان الإسلامية إلى فرنسا من الجزائريين، إلا أن مسلمين آخرين من المغرب

من هويته الشخصية. والشباب المسلمات إنما يتخذن الحجاب حالياً باعتباره وسيلة لتوكيد هويتهن الخاصة بناءً على السور الذاتي وليس بقبول المسلمات والممارسات الدينية للأجيال السابقة، ومثلما هي الحال في السياقات الأوروبية الأخرى، تؤدي الصوفية في بريطانيا دوراً مهماً كحركة دينية، ولا سيما في اجتذاب المهتدين الجدد إلى الإسلام.

هولندا (أمستردام، روتردام، لاهاي، أوترخت):

في هولندا جالية إسلامية متنوعة المذاهب والمشارب، وهي تتألف من أتراك، وأفارقة من شمال القارة، وملوخيين من جزر الهند الشرقية الهولندية سابقاً، ومع ترسّع أقدام الجاليات الإسلامية في هولندا، طرأت زيادة على عدد المساجد التي تبني هناك منذ عقد الثمانينيات من القرن العشرين. والعديد من المساجد ترتبط ببلدان المنشأ، ولا سيما تلك التي تعود إلى الأتراك لأن أئمتها تؤدّم الدولة التركية نفسها. تأخذ الدولة الهولندية على عاتقها تعليم اللغات الوطنية لأبناء المهاجرين في المدارس؛ لكن مثلما هي الحال في سائر أنحاء أوروبا، التعليم الديني مهمّة تضطلع بها المساجد حصراً.

إيطاليا (روما، ميلانو، تورينو):

في إيطاليا جالية إسلامية متنوعة الأعراق، إنما يغلب على تكوينها المغاربة والتوانسة، وترفعها مؤخراً أعداد متزايدة من يوغسلافيا السابقة. في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، حرصت الجالية المغربية بالفصوص على بناء المساجد والمرافق اللازمة لسدّ الاحتياجات الدينية والتعليمية.

إسبانيا:

إن إسبانيا، بتاريخها الإسلامي الطويل، لترتدي أهمية كبيرة كبديل أوروبي يشهد حالياً نوعاً من الإحياء الإسلامي ولا سيما في أقاليمه الجنوبية. إن الغالبية العظمى من المهاجرين المسلمين إلى إسبانيا هم من دول شمال إفريقيا، وسواهم الأعظم من المغرب. وهناك جاليات من إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى ومن الشرق الأوسط أيضاً. إن بناء المساجد جارٍ على قدم وساق في إسبانيا، وكذلك تأمين مرافق ومستلزمات التعليم الديني الإسلامي. يتسم الموقف الإسباني من الإسلام بالمعاطف والود على وجه العموم، وثمة حركة ذات شأن لاقتناك الإسبان الدين الإسلامي ولا سيما في بلاد الأندلس. ولعل التوكيد على استقلالية المنطقة والتحول إلى الإسلام يتدرجان هنا في إطار الاكتشاف المتجدّد لهوية جرى كبثها رديحاً طويلاً من الزمن.

لأشياء المهجرة. لكن فترة السبعينيات شهدت موجة عارمة من العمال الأتراك الوافدين على أمانتها، أفضت إلى نشوء جاليات إسلامية ذات تركّزات استثنائية. ففي تلك الفترة بالذات، التحقّت عائلات بأكملها بالمهاجرين الأصليين، ومنّح معظم العمال وضعية «العمال الضيف» التي تشدّد على المفهوم الرسمي بأن التوطّن مؤقت ليس إلا. وخلال الثمانينيات من نفس القرن، شرعت الجاليات الإسلامية في أمانتها بتأمين ما يلزمها من مرافق دينية واجتماعية، وذلك بتشديد المساجد وتكوين الجمعيات الدينية التي ترتبط العديد منها بجماعات مقرّاتها الرئيسية في تركيا. وعلى نحو مماثل، تنشط الطرق الصوفية كالنقشبندية بشكل لافت؛ ومن خلال هذه الجماعات تحديداً، يلعب المتأسلمون الجدد دوراً خطيراً داخل الجاليات الإسلامية.

بريطانيا (لندن، غلاسكو، مانشستر، برمنغهام، برادفورد):

بدأت هجرة المسلمين إلى المملكة المتحدة في منتصف القرن التاسع عشر باستقرار بعض البحارة الهنود في موانئ كارديف، وساوث شيلدن، وليفرپول، ولندن، وأخيراً في برمنغهام. إلا أن معظم الهجرة الإسلامية إلى بريطانيا جاءت من جنوب آسيا (باكستان وبنغلادش)، حيث وصل في إبان الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن العشرين عدد غفير من المهاجرين الاقتصاديين لشغل وظائف بناءً على استعدادات مسبقة، وأدى وصول عائلات بأكلها خلال الستينيات إلى قيام شتى المرافق الضرورية لتقديم الخدمات الدينية والثقافية على غرار ما حصل في معظم جاليات المهاجرين المسلمين في أوروبا. وقد اجتذبت لندن، بالأخص، جاليات إسلامية متنوعة؛ وهذا ما جعل المنظور الثقافي والديني فيها أكثر ليبرالية منه في بقية الجاليات المسلمة في المملكة المتحدة. هنا تختلط أعداد ليست بالقليلة من العرب والباكستانيين والبنغلادشيين، باللاجئين النازحين حديثاً إليها، فضلاً عن الطلاب المسلمين الوافدين إليها من وراء البحار. بينما تميّز برادفورد باحتضانها جالية أكثر تناسلاً من أصل باكستاني، وهذا ما انعكس تنوعاً واختلافاً أقلّ في النظرة الدينية. برمنغهام، من جهة أخرى، وإن كانت مؤثلاً لجالية يغطي عليها الأصل الباكستاني، إلا أن المسلمين فيها أكثر تنوعاً بكثير، وهم يضمون عدداً ليس بالقليل من المتأسلمين من أصول إفريقية - كاريبية. إن الشباب المسلم في بريطانيا أخذ، وعلى نحو متزايد، باكتشاف الإسلام من جديد كجزء



هذا المسجد اللّاقم في حدائق قلعة شترينغن بألمانيا، والذي يرجع بناؤه إلى حوالي العام 1750. يمزج في طرازه المعماري الموثفات الإسلامية بالمؤثرات الباروكية الأوروبية

المسلمون في أمريكا الشمالية

ذوي الأصول الإفريقية، أي الأفرو - أميركيين، استأفروا وما زالوا بأهمية كبيرة على وجه الخصوص. إن «أمة الإسلام» حركة انتصالية ناشطة بين الأفرو - أميركيين، لكن أكثرية المسلمين لا يعدونها من الإسلام في شيء. غير أنها تظل قوة يُعتد بها بالرغم من أن نسبة متزايدة من المسلمين الأفرو - أميركيين باتت تنحاز إلى المعتقدات والعبادات المأثورة عن التيار الرئيسي للإسلام السني منذ عام 1976، حين تولى واريث دين محمد، ابن إلهيا محمد مؤسس «أمة الإسلام»، زعامة قسو من تلك الحركة. يمثل المسلمون الأفرو - أميركيون نسبة لا يستهان بها من أبناء الجالية المسلمة في الولايات المتحدة، والإقبال على اعتناق الدين الإسلامي كبير بنوع خاص بين نزلاء السجون من السود، وذلك رداً على التمييز العنصري والمعاملة الوحشية الممارسة التي يلقونها، وهو يحول إلى حد بعيد على الأصول الإسلامية لأسلاف العديد من المواطنين الأفرو - أميركيين. المثأسلمون من البيض في أمريكا ليسوا على قدر ذاته من الأهمية العددية، إلا أنهم مع ذلك دعامة ركنية للدين الإسلامي ولهم صوت مسموع، وكثيراً ما يرتبطون، شأن نظراتهم في أوروبا، بالحركات الصوفية. لقد أُنشئ أول الإسلام في أمريكا الشمالية إلى فترة من الزوايا في المجتمع، صنفت معها قضية الهوية الدينية ضمن قضايا الاندماج الثقافي العام، فيما بقي المسلمون الأفرو - أميركيون خارج هذه السيرة. لكن مع قدوم الطلاب المسلمين من وراء البحار، والمهاجرين الأحدث عهدا المتصفين بالدين كالكابستانيين على سبيل المثال، طرأ ارتفاع على نبرة التوكيد على الهوية الدينية في أميركا. هنالك على وجه العموم طيف واسع من العبادات وأشكال الممارسة الدينية بين الجاليات المسلمة في أمريكا الشمالية، ولئن كانت العديد من الجمعيات الإسلامية والمساجد تقوم على أساس عرقي، إلا أن هناك أيضاً منظمات إسلامية أبوابها مشرعة لمختلف الأعراق دون استثناء.

لنأخذ «اتحاد الطلبة المسلمين»، الذي أسسه في عام 1963 الطلاب المسلمون في جامعة إيلينوي بمدينة أوربانا مثلاً، فهو يضطلع بدور بالغ الشأن في التشديد على الهوية الإسلامية كتميز لاختزال بالهوية العرقية. وهناك منظمات مظلية أخرى في الولايات المتحدة، ومجلس الجاليات الإسلامية في كندا، أسهمت وما فتئت تسهم بيسقط لا بأس به في هذا التحول نحو الهوية الإسلامية الجامعة. على المستوى

تعود نشأة السكّان المسلمين في الولايات المتحدة إلى جذبة مبكرة زمنياً فحمة شاهد على أن المسلمين الأوائل وصلوا إلى هناك برفقة المستكشفين الإسبان في القرن السادس عشر. لكن فاتحة الجاليات الإسلامية التي يُعتد بها إنما نجمت عن هجرة من سورية ولبنان إبان الستينيات من القرن التاسع عشر ما لبثت أن استتبع مزيداً من المهاجرين في العقود اللاحقة. وشهدت الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية تواجد سول دافق من المهاجرين على أمركا رداً على القيود الاقتصادية والسياسية التي تكبلهم في بلدانهم الأصلية، ومنها: أوروبا، وجنوب غربي آسيا، وشرق إفريقيا، والهند، وباكستان. في مقدمة الولايات التي استوطنتها الجاليات المسلمة تأتي ميتشيغن، أوهايو، إنديانا، إيلينوي،

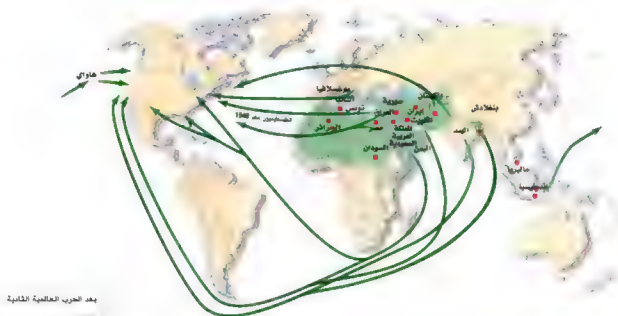
الولايات المتحدة
والولايات المتحدة

نهر الإسلام

نهر الإسلام



ماساشوستس، أيووا، لويزيانا، نيويورك وبنسلفانيا. في كندا، لم تكن الجاليات المسلمة متركزة إلى هذا الحد في أماكن معينة، بل كانت أكثر حركية من الوجهة الجغرافية. كما أن بلدان المنشأ اختلفت، هي الأخرى، عنها بالنسبة إلى الولايات المتحدة، إذ جاءت الغالبية العظمى من المهاجرين المسلمين إلى كندا من بلدان عربية، وشمال إفريقية، ومن جنوب شرقى أوروبا، وتركيا، وإيران، وأفغانستان، والشرق الأقصى وشرق إفريقيا. ويضمهم وفد إليها من أقطار تابعة للكومنولث البريطاني. وفي حالتي الولايات المتحدة وكندا على السواء، كان اعتناق الإسلام عاملاً في بروز المجتمع الإسلامي هناك، فالمثأسلمون الأميركيون من



بعد الحرب العالمية الثانية

مسار الإسلام

البناء الجديد

البناء القديم

إلى الإسلام والمسلمين، متخذاً في ذلك وجهة سلبية وقد كان لأحداث 11 أيلول/سبتمبر 2001، والهجمات الأخرى التي استهدفت أميركيين، وعمليات قتل المدنيين الإسرائيليين (الذين يتعاطف معهم بقوة المسيحيين الإنجيليون ناهيك عن اليهود في أميركا)، وقّعها الشديد على الجاليات المسلمة في الغرب عموماً، وفي الولايات المتحدة بشكل خاص. وهكذا ترتب على قادة الجالية الإسلامية والزعماء الدينيين أن يحدّثوا من جهة محاولات تنميط الإسلام سلبيها وتصويره على أنه دين عنيف، ويتصدّوا من جهة أخرى لمشكلة تسييس الإسلام في أوساطهم هم

المحلي، تتوافر لمعظم تجمعات المسلمين في المدن، مثل ديترويت ونهيوورك وشيكاغو، المرافق اللازمة لتأمين الطعام الحلال، ومستلزمات الدفن، والمساجد والمصليات والقاعات الاجتماعية، فضلاً عن المؤسسات التربوية الخاصة بالتعليم الديني للأطفال. أما لجهة علاقتهم بالمجتمع الأوسع، فالمسلمون في أميركا الشمالية، وفي الولايات المتحدة أنواع أخص، واجهوا تحديات ليست بالهينة على مدى السنوات الخمس والعشرين الفائتة. فبعد قيام الثورة الإيرانية عام 1979، واحتجاج مواطنين أميركيين في السفارة الأميركية في طهران، أخذ الرأي العام في تغيير نظرتهم

مالكولم إكس، زعيم المسلمين السود في أميركا، استهزأ حياته مجرماً صغيراً قبل أن يهتدي إلى جماعة بأمة الإسلام ذات الفرعة الانفصالية لكن حجّه إلى مكة عام 1964 أفتته بأن الانفصالية اتجاء خاطيء، وأن الإسلام الحق يضم أناساً من جميع الأعراق وقد أدبّن ثلاثة من أعضاء أمة الإسلام بمقتله إثر اغتياله في شباط/فبراير 1965



المساجد وأماكن العبادة في أمريكا الشمالية

حدثت تحول نحو إقامة مساجد أقل اصطفاً بالصيغة العرقية لتأحية الذين يؤمنونها للصلاة. وقد أنشئ «مجلس المساجد» في الولايات المتحدة لتسهيل أمر توفير أماكن العبادة اللازمة للجاليات الإسلامية هناك

ويتبين من تقرير نُشر في العام 2001، أن الذين يؤمنون بالمساجد، بحسب الانتماءات العرقية، هم أبناء جنوب آسيا بنسبة 33 بالمئة، والأفرو-أميركيون بنسبة 30 بالمئة، والعرب بنسبة 25 بالمئة. وما فتئ أئمة المساجد يُستقدمون من بلدان كمصر وتركيا وباكستان، إلا أن ثمة أعداداً متزايدة من الأئمة يجري إعادهم داخل الولايات المتحدة بالنظر لتوفر المزيد من الوسائل الضرورية لتدريب الأئمة. بعض الأئمة يُملكون كذلك من الخارج، لكنهم في معظمهم يتقاضون أجورهم من الجاليات المحلية. وقد أنشئ مجلس للأئمة في عام 1972. والمساجد، على وجه الإجمال، تدار بواسطة مجالس استشارية محلية.

تخفي الإشارة هنا إلى أن المساجد والمباني الأخرى التي يستخدمها المسلمون في أمريكا الشمالية، بما في ذلك «حسينيات» الشبهة الاثني عشرية، و«جُمعة خانات» الإسماعيليين، ومعابد «أمة الإسلام»، تؤدي في واقع الأمر لسلسلة متنوعة من الوظائف إلى جانب كونها أماكن للصلاة والعبادة. فهي تستعمل لأغراض ترفيهية شتى، كنداس نهاية الأسبوع، وصفوف للأطفال، وقاعات للمحاضرات، وكذلك لتنظيم دورات لتعليم الراشدين. وهي تخدم أيضاً بمثابة مكتبات عامة، وحوانيت لبيع الكتب، ومطابع صغيرة لتشر المواد الإسلامية، فضلاً عن استضافتها المناسبات الاجتماعية كحفلات الأعراس ومراسم التأبين. هذا عدا عن اضطلاعها بدور حاسم كنقطة اتصال بغير المسلمين كي يتعرفوا على الإسلام ويلتقوا بالمسلمين - وهذه لعمرى مسألة في غاية الأهمية خصوصاً في أعقاب هجمات نيويورك وواشنطن عام 2001. وهكذا مع تطور الجاليات الإسلامية باطراف في أمريكا الشمالية، تغدو المساجد ومراكز التجميع الإسلامية الأخرى مفاصل حيّة لإطلاق المبادرات.



بعد أن استتب المقام للجاليات الإسلامية في الولايات المتحدة، شهد العقد الثاني من القرن العشرين أول ظهور للجوامع والمساجد على أراضيها، تلبية لاحتياجات المسلمين الدينية والاجتماعية. ومثلما جرى في أوروبا، استُخدمت المبوت في أول الأمر كمصليات، وتبع ذلك تحويل مبوت قائمة إلى مساجد، بينما جاء إنشاء المساجد المشيدة خصيصاً لهذا الغرض في مرحلة لاحقة. وقد أقيمت معظم المساجد أصلاً لخدمة جاليات محددة عرقياً: كما لم تكن دينية بالمعنى الحصري، إذ كانت المباني تستعمل لأغراض عبادة واجتماعية على حد سواء. وفي أحيان كثيرة، كان يُصار إلى استئجار قاعات عامة أو صالات خاصة لمناسبات أضخم، كمصلاة العيد مثلاً، كي تستوعب عدداً غفيراً من المؤمنين؛ وهذا ما كان يحصل في تورنتو ومونتريال وادمنتون في كندا مثلاً. وأول مسجد للأفرو-أميركيين، وكان تابعاً لـ«أمة الإسلام»، أُقيم في حي هارلم بنيويورك عام 1950.

لكن حتى الستينيات من القرن العشرين، لم يكن يوجد ما يكفي من المساجد والجوامع لاستيعاب أبناء الجالية الإسلامية المتنامية باطراف، التي وجدت نفسها مضطرة إلى استخدام مصليات وفحات خاصة لأداء فرائضها الدينية. على كل، هنالك الآن ما يربو على ألف مسجد مسجل رسمياً في الولايات المتحدة. لحلّ واحدًا من أضخم المساجد التي أقيمت في الولايات المتحدة، هو المركز الإسلامي في ديترويت الذي ارتفع بنيانه ما بين عامي 1962 و1968. وقد تكفل ببنائه أبناء الجالية الإسلامية في المدينة بحكم كونهم جماعة المصلين الذين سيراتادوتهم. ثم جاءت التبرعات والمنح المالية من الحكومات المصرية والسعودية والإيرانية والبنغالية لتكشف عن

مسجد المقر الرئيسي للجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية بالقرب من مدينة إنديانا بوليس في ولاية إنديانا المبني من تصميم المهندسين المعماريين غولراب حيدر ومختار خليل، واكتمل بناؤه عام 1981. إنه يُقدّم صورة عصرية وتقديمية للإسلام، الدين الذي يعتنقه ما يربو عن ثمانية ملايين من الأميركيين والكنديين. يحتوي المبني فضلاً عن قاعة فسحة للصلاة، على مكتبة ومكان إدارة

المركز الثقافي الإسلامي في تابعة
ولاية أريزونا (بني عام 1984)



لكن التردد على أماكن العبادة يجب ألا يفهم بالضرورة على أنه تطور يكتنف الجالية الإسلامية في أمريكا بأوسع مظاهره. ففي دراسة ميدانية أجريت عام 1987، اتضح أن ما بين 10 و 20 بالمائة فقط من المسلمين في أمريكا يؤمنون بالمساجد بانتظام، في مقابل 40 بالمائة من المسيحيين يواظبون على الصلاة في الكنائس. وفي الوقت الذي قد يُعبد فيه بعض المسلمين من الجيل الصاعد تؤكد هويتهم الإسلامية بالانغماس في ممارسة الشعائر الدينية، نجد أن الأغلبية العظمى من المهاجرين الجدد الوافدين من جنوب آسيا ووسطها أكثر ميلاً إلى الاندماج في التشار السائد للمجتمع الأمريكي.

عدد المساجد في كل ولاية عام 2000



الفنون الإسلامية

عرفت الأقطار الإسلامية تقاليد نابضة بالحياة والنشاط في مضمار الفنون، التي ازدهرت فيها أياً ازدهار لكن وخلافاً للتقاليد الفنية للشعوب الأخرى،



كان الخزف الصيني على الدوام موضع إعجاب وتذمين في العالم الإسلامي، ويمكن تبيين تأثيره بخلاء في هذا الإبريق المجلوقي

الموضوعات والسياقات الدينية كافة؛ والسبب يعود ربما إلى الخشية إياها من الوقوع في الوثنية التي أمت بالديانات الأخرى في باكر الأزمنة. أما في السياقات الأخرى، ولا سيما في الأوضاع الضعيفة الضعيفة الباطنية، فقد رأينا تقليداً حياً من الفن التصويري ينمو ويزدهر. وحسبنا شاهداً على ذلك، جدران القصور التي كثيراً ما كانت تزدهر بالمشاهد المتضمنة صوراً بشرية. أما في المساجد، فقد كانت الزخرفة غير التصويرية التي أساسها التزيين بالأشكال الهندسية والنباتية، وكذلك بالكتابة النقشية، هي الطاغية أكثر من سواها. وإذا كان فن تصوير الأشخاص بجميع صوره، فمما غرني صبغة دينية تعريضاً في ديار الإسلام، فإن العكس ليس بالضرورة صحيحاً. ذلك أن الفن غير التصويري كان جد ملائم ومهل احترام كبير في كل السياقات والموضوعات، علمانية كانت أم دينية. كانت الأقمشة بمثابة الدعامة الأساسية للحياة الاقتصادية في القرون الوسطى الإسلامية. فكانت تُصنع من الصوف، والكتان، والحرير، والقطن؛ وتتراوح تشكيلاتها من الأقواب الرقيقة كالأورغندي والموسلين (الأول مشق اسمه من مدينة أورغندي وآسيا الوسطى، والثاني من مدينة الموصل في العراق)، إلى البطانيات المتينة واللباد والأقمشة التي يصنع منها البدو الرُحَّل خيمهم. ولم تكن الأقمشة تستخدم لإكساء الأفراد فحسب، بل كانت تدخل في صلب تحديد الخضاءات وتأنيثها في تلك البلاد البعيدة الفقيرة بالأخشاب، حيث يجلس الناس عادةً على السجاجيد ويتكئون على الوسائد. كانت الأقمشة في مُجملها من الصنف العادي، غير المزخرف؛ لكن السادة الموسرين، من الخلفاء نزولاً إلى التجار، كانوا يشترون الأقمشة الغريبة، ذات الألوان الزاهية والنقوش المتقنة. ولذلك كان يُصاير إلى إضفاء البهجة على الجيوب الخام بواسطة الأصباغ الفرحة المصنوعة من مواد شتى، التي كانوا هم أنفسهم يتاجرون بها على نطاق واسع. لقد استطاع الحرفيون والصناع المهرة أن يستنبطوا مجموعة مؤهلة من التقنيات، تبدأ بالتطريز والتسجيف (الكتفا) وتنتهي بالحيكة على النول والتلوين بالأصباغ، وكل ذلك من أجل أن تأتي أقمشتهم غاية في الجمال وتجميل الكلمة في الإسلام يعني أن تكون الكتب والكتابة موضع تقدير بالغ في كل مكان. وقد أدّى

فإن الفنون التي تفوق سواها من حيث الأهمية في الحضارة الإسلامية، كانت تعدّ «زخرفية»، «ثانوية» أو «محمولة» في الحضارات الأخرى، من ذلك: الأقمشة، والخط، وفنون الكتابة، والسيراميك، والمشغولات المعدنية، والأبنية الزجاجية وما إليها. وهذه بمعظمها كانت تستلزم لصنعها تحويل مواد وضيعة كالألياف النباتية أو الحيوانية، والرمال، والطين، أو الفلزات المعدنية، إلى أعمال فنية جليلة تتميز بالألوان الزاهية والتصاميم المعقدة. مهما يكن من أمر، فإن الكثير من أكثر هذه الأعمال رفعة ورهافة، كانت في نهاية المطاف قطعاً ذات قيمة متفحمة، من قبيل دلاء الاستحمام وصينيات الطعام المعدة للاستعمال في الحياة اليومية

كثيراً ما نسمع أن الإسلام يُحرّم تصوير كلاً ما خلقه الله، لكن الحقيقة ليست كذلك تماماً. يتغنى القول بالأحرى إن الإسلام لا يُحذّر التصوير في

وبالمثل، يمكن تلمس المؤثرات الأوروبية في تصوير الشخصيات من خلال هذا الرسم للسلطان سليم الثالث

الذهبية والفضية، لذا عمد الحرفيون المسلمون إلى صنع الأدوات والأوعية اللازمة للاستعمال اليومي من خلانط النحاس، كالنحاس الأصفر والبرونز، وبلغوا شأواً بعيداً في هذا المضمار. وكان الكثير من هذه



الصينيات، والأحواض، والزبيديات، والدلاء، والأكوان، والمباخر، والمصابيح، والشعدانات وما إليها، تُرسم بالمعادن الثمينة لجعل أسطحها أكثر إشراقاً ومראהً أبهج للعين. والمشغولات المعدنية المعدة للأغراض الدينية ما كانت تختلف كثيراً عن تلك المستعملة في المنازل، إلا من حيث زخرفتها، التي كانت أقرب إلى الزخرفة الفطرية والهندسية والنباتية منها إلى الزخرفة التصويرية

تعلّم تقنية صنع الورق من بلاد آسيا الوسطى في القرن الثامن، إلى حدوث طفرة مائلة في تأليف الكتب، والتدريس بالكتب، وإنتاج الكتب، ناهيك عن الفنون المساحبة لها والمقرنة بها، كالخط والزخرفة والتذهيب والتجليد، وأخيراً التزيين بالرسم. ولعلّ أخطر المخطوطات وأتقنها، هي تلك النسخ من القرآن التي كانت ترقن في البداية على الرق، ولاحقاً على الورق. وهي تحفل في الغالب بزخرفة غير تصويرية ولا تدخلها الرسوم مطلقاً. لكن الكتب التي تتخللها تصاوير، ولا سيما تلك المصنفة في حانة الأدب الملحمة أو الشعر الغنائي الفارسي، فقد باتت من الصنف الراجح في عالم الثقافة الإيرانية، وذلك بدءاً بالقرن الرابع عشر حين أقام الحكام الناطقين بالفارسية في إيران وتركيا والهند محفلات لهذه الغاية وأنجوا فيها بعضاً من أعظم وأروع الكتب التي عرفها العالم على الإطلاق.

وثمة العديد من الفنون الأخرى المقرنة بديار الإسلام كانت تتوسل النار لتحويل المعادن المستخرجة من الأرض. فقد ورث المسلمون تقاليد صناعة الفخار الموهلة في القدم من الشرق الأدنى، لكنهم أضافوا إليها وطوروها من خلال استنباطهم قوالب خزفية جديدة، وتقنيات الصقل والقرزجج، وتشكيله غنية من الأشكال الزخرفية. وقد اجتمعت بعض من هذه المقومات المميزة، كالرسم بالطلاء الفوقى للسامع المكتشف في عراق القرن التاسع، والعجينة الصلصالية المكتشفة في مصر وإيران القرن الثاني عشر، والرسم بالطلاء التحتي المطور في إيران القرن الثاني عشر أيضاً، لتنفيجر نشاطاً خزفياً خلافاً منقطع النظير في بريطانيا حتى القرن الثامن عشر. صحيح أن غالبية المستنوعات كانت عبارة عن أنية فخارية غير مطلية، معدة لتخزين ونقل المياه والأطعمة من يوم ليوم، إلا أن الإقبال الشديد على اقتناء وتقليد الأطباق، والزبيديات، والأباريق، والزجاجات، والأكواز الفاخرة المصنوعة في الأقطار الإسلامية، شكل ظاهرة مثيرة بكل معنى الكلمة من الصين إلى إسبانيا. أما صناعة الزجاج بطريقة النفخ، وهي تقنية ابتُدعت في سورية قبل العصر الإسلامي، فبقيت خاصةً ينفرد بها المشرق دون غيره. فكان صناع الزجاج والزجاجون ينتجون المصابيح المذهبة والمطلية بالميخا بالألوان كي تضاهي بها المساجد والمدارس التي رُفعت لشركمة الله.

يقال إن النبي محمد قد نهى عن استعمال الأتية





أبرز المواقع المعمارية الإسلامية

حلبة معمارية من النقش النافر، موجودة في قصر بنه السامون، أودى ملوك الطوائف، في طليطلة



إن وجود المسلمين في أية بقعة من العالم إنما يُستدلّ عليه بمبانٍ من أنماط مميزة، يأتي في طليعتها المسجد الجامع، أو مسجد الجمعة. وإذا كان من الجائز أن يتخذ المسجد أي شكل كان، تبعاً للمواد المتوافرة محلياً وتقاليده البنّاء المتعارف عليها، فإن المبنى يجب أن يكون دائماً موجهاً للقبلة، أي في اتجاه الكعبة، ورحباً بما فيه الكفاية لاستيعاب المؤمنين. تشيّد المساجد، على العموم، من الطوب أو الحجارة، وتُسقف عادة بالعقود أو القباب. فطالما كان الضيق نادراً، وبالتالي غالباً جداً، كي يستعمل في التشييد في المناطق الجافة إلى حد بعيد، وإن كان قد استعمل على نطاق واسع في المناطق كثيفة الأحرار كبواد الأناضول وجنوب شرقي آسيا. وفي أماكن أخرى، أُنشئت الأبناس الممتدّة من الخشب خصيصاً لتأثيث المساجد، فكانت تصنع منها المنابر ومناضد القراءة، التي غالباً ما تكون مطعّمة بأخشاب أخرى، بالعاج أو يعرق اللؤلؤ. كانت المساجد تُزيّن على نحو متقن بواسطة البلاط اللامع والتشويش المصنّعة، وتُكسى أرضيتها بالسجاد المزاهر أو العادي. وقطع السجاد المستعملة في المساجد هي من النوع الموشى بتصاميم نباتية، هندسية وكتاتيبية. ذلك أن تصوير الأشخاص كان مستبعداً من السياقات الدينية، ولا تبدد إلا في الأماكن والوضعيّات غير الدينية. عملياً، كل المساجد لها «محراب» في الجدار لاستقبال القبلة، والعديد منها تعلوها منقّدة أو أكثر يُرفع منها الأذان لإقامة الصلاة. ولما كانت المساجد في الجملة

تُبنى من أفضل المواد المتوافرة طراً، ويُسهّر على صيانتها بانتظام عبر القرون، فهي عادة ما تكون في طليعتها العمارات المحفوظ عليها في أية بقعة من البقاع.

ينزع الحكّام، في أغلب الأحوال، إلى بناء قصور منيفة وباذخة لأنفسهم، يرمزون بها إلى ما يتمتعون به من جاه وسلطة. إلا أن هذه القصور لم يكتب لها البقاء مثلما كُتب للمساجد لأن تصميمها وإنشائها كانا يتسمان بقدر أكبر من التجريدية. أضف إلى ذلك أن الوارثين كثيراً ما يعزفون عن صيانة الإنجازات الباهرة لخصومهم. لقد تركّزت النقشيات الأثرية في الديار الإسلامية على القصور المهجورة أو المهملة، مثل خربة المفجر، المنتجع الأموي بالقرب من أربحا: وسامراء، العاصمة العباسية في القرن التاسع في العراق. قلّة من القصور الإسلامية فقط فُيِّض لها أن تبقى على وجه الأرض، نذكر منها: «قصر الحمراء» في غرناطة، و«توبكايي سراي» في استنبول، و«الحصن الأحمر» في دلهي. إن القصور الإسلامية عادة ما تكون مزوّقة ومبهرجة، لكنّها مبنية بطريقة رديئة، تُعطى فيها الأولوية للمظهر والإبراز على الشكل والإنشاء. وبخلافها لما هي الحال في قصر فرساي أو الأرميتاج، تأخذ القصور الإسلامية بصورة نمطية شكل مبانٍ مُلحقة بها أجنحة صغيرة متخلّفة حول أفنية داخلية وحدائق غنّاء.

بالرغم مما يُقال من أن النبي محمد قد استاء وتجهّم لدى رؤيته أضرحة تتكاثرية تقام فوق قبور الموتى، إلا أن بناء الأضرحة أضحت مع ذلك شكلاً رئيسياً لرعاية العمارة في العديد من ديار الإسلام. فكانت تُبنى الأضرحة فوق مداخل رجال التقوى والصلاح بالخصوص، فضلاً عن قبور الأمراء التوّافين إلى حفظ ذكراهم في عالم يلفّه الغموض. إن معظم الأضرحة كناية عن مبانٍ مقببة، وهي إما مربعة الشكل أو مُشَنّبة الأضلاع أو دائرية؛ وتتوارق ما بين أضرحة الأولياء البسيطة في شمال إفريقيا إلى صرح «تاج محل» المهيّب في الهند. والكثير منها مُزوّد بمحراب يُحدّد اتجاه القبلة إذا ما أراد زوّار المقام أن يؤدّوا الصلاة على روحه. ولبعضها مبانٍ ملاصقة كي

كنائس أوروبية، واستُخدم بعضها للّف عظام
القديسين المسيحيين
إن المكتشفات الأثرية لتشهد على مدى اتّساع
شبكة الطّرق التجارية التي كانت تتقاطع في ديار
الإسلام طويلاً وعرضاً، وأربطة الصين والهند وإفريقيا
الاستوائية بأوروبا. وبفضل تدجين الجمل قبل ظهور
الإسلام، صارت التجارة تتمّ في معظمها بطريق البرّ،
مع إنشاء خانات يبعد الواحد منها عن الآخر مسافة

تتسع للزوّار المنتظرين أو للقيام ببعض الخدمات
العامة المترواحة بين تدريس القرآن وإعداد الطعام
للفقراء. وبهذه الطريقة، كان يتسنى للسادة استخدام
مؤسّسة خيرية ما للتسويق إقامة ضريح
يُدفن المسلمون في التراب مباشرة، ملفوفين بكفن
أبيض بسيط ليس إلّا. وهكذا، فإن أدوات الدفن التي
عادةً ما يُحوّل عليها علماء الآثار لفهم التقاليد
الثقافية الأخرى، لا وجود لها في ديار الإسلام. غير أنّ

قضاء داخلي لخان قانصوه الغوري
في القاهرة



15 ميلاً لإيواء المسافرين ودوابهم وكذلك بضائعهم
وجزءً من التجارة كان يتمّ بطريق البحر، فيسلك
خطوطاً موازية لسواحل المتوسط أو يتنقّب مجاري
الرياح الموسمية حول المحيط الهندي. وقد أتاح التقدّم
المحرز مؤخراً في مجال التنقيب الأثري تحت سطح
البحر، استكشاف مواقع السّفن الغارقة، كذلك السفينة
العائدة إلى القرن الحادي عشر التي تمّ العثور عليها في
سرجي ليماني قبالة الشواطئ التركية. وكانت الفلة
من ذلك الموقع كمية ضخمة من كسّارة الزجاج المعدّة
لإعادة التدوير

الجفاف النسبي الذي يُميّز القسم الأكبر من مناطق
العالم الإسلامي، ولا سيما مصر وآسيا الوسطى، ساعد
على حفظ المواد العضوية الهشة التي لولاه لكانت
اضمحلت في التراب. وأهم هذه المواد، الأقمشة التي
كانت تلعب دوراً محورياً في الاقتصاد الإسلامي في
القرن الوسطى، والكثير من هذه الخرق في حالة بالية
وغير جذابة بالعمرة حتى إنّها نادراً ما تعرض في
المتاحف. ومن المفارقة بمكان، أن أفضل أصناف
الأقمشة من بلاد المسلمين، والكثير منها مزركش
بأبتهالات وتبريكات عربية، كانت قد حُفظت في



توزع المسلمين في العالم (عام 2000)

الحجم السكاني، فهو باكستان التي تعدّ 134 مليون نسمة، تليها الهند (121 مليوناً)، وبنغلادش (114 مليوناً)، ومصر (61 مليوناً)، وتيجيريا (61 مليوناً). ومن بين البلدان الإسلامية الستة الأولى التي تضم أكثر من نصف عدد مسلمي العالم، وحدها مصر تنطق بالعربية، وأصبحت جزءاً من العالم الإسلامي في زمن متقارب ونشأة الإسلام. وفي واحد من هذه البلدان الستة، الهند، يعيش المسلمون كأقلية. صحيح أنها أقلية ضئيلة، لكنها لا تزال قابلة للعطب. من الوجهة الديمغرافية، يجوز القول إن الإسلام «القديم» الذي أبصر النور في مجرى الفتوحات الإسلامية، قد لحق به بل وتحطّاه الإسلام «الفتي» في المناطق الاستوائية إجمالاً.

ومن الفاحية الطائفية والمذهبية، فإن حوالي 85 بالمئة من مسلمي العالم ينتمون إلى التيار الرئيسي للدين الإسلامي، أعني المذهب السني؛ وهم يندرجون من حيث العرق وإن ليس دائماً بالممارسة إلى أحد المذاهب السنية الأربعة: المذهب الحنفي، وكان المذهب الرسمي للإمبراطورية العثمانية، ويسود في الممتلكات العثمانية السابقة، بما فيها بلاد الأناضول والبلقان، وكذلك في بلاد ما وراء القوقاز وأفغانستان، وباكستان، والهند، وجمهريات آسيا الوسطى والصين؛ والمذهب المالكي، الذي يطغى في المغرب وبلدان غرب إفريقيا؛ والمذهب الشافعي، الذي يعمل به في مصر وفلسطين والأردن، ومناطق اليمن الساحلية، وبين قطاعات من مسلمي كل من باكستان والهند وإندونيسيا؛ وأخيراً المذهب الحنبلي، وهو المذهب الساري في المملكة العربية السعودية. على أية حال، لقد تعايشت مذاهب فقهية مختلفة زمنياً طويلاً في بعض المناطق، وثمة قدر كبير من التداخل والتشابه فيما بينها في بلدان كمصر، حيث سمحت الحداثة والفقهية بتلفيق أحكام شرعية من شتى المذاهب.

يمثل المسلمون من غير السنة حوالي 15 بالمئة من مجموع المسلمين في العالم. فالفرار الذين انشقوا عن الجسم الرئيسي للإسلام في عام 680، مثّلون من خلال نسخة معدلة عنهم تعرف بـ«الإباضية» في

هناك ما يقارب المليار ومنتى ألف مسلم في العالم اليوم، أي ما يناهز خمس تعداد البشرية. والغالبية العظمى منهم يقيمون في الحزام الأوسط من المناطق المعتدلة من إندونيسيا شرقاً إلى ساحل شمال إفريقيا على الأطلسي غرباً. وعلى ضوء تمدد الإسلام التاريخي نحو الأقاليم الاستوائية في جنوب وجنوب شرقي آسيا، حيث طريقة الزراعة الكثيفة تسمح بدرجة تركز



سكانية عالية، فإن البلد المسلم الأكبر حجماً من حيث عدد السكان (182 مليوناً) هو إندونيسيا. وهذا البلد بعيد جداً عن المذنب أو الرّجيم الذي ولد فيه الإسلام؛ أعني جنوب غربي آسيا. أما البلد الثاني من حيث

استقلالية رجال الدين الذين طالما احتكروا تأويل ونشر وتطبيق أحكام الشريعة في الماضي. وفي الوقت عينه، أصاب الوهن سلطتهم الدينية، القائمة على الحق الحصري في الوصول إلى النصوص المقدسة، بفضل التوسُّع في التعليم الثانوي وانتشار معرفة القراءة والكتابة. فالكثيرون من الحركات الإسلامية يقودها ويدعمها أناسٌ تلقوا تعليماً تقنياً حديثاً، وحصلوا تعليمهم الديني رأساً من النصوص الأولية أو الثانوية. وهي القرآن والحديث وكتابات المفكرين والفقهاء المحدثين، وليس بواسطة الدراسة الفقهية التقليدية.

قد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى أن الاتجاه نحو ما يمكن تسميته بعلمنة السلطة الدينية في الإسلام أو جعلها ديمقراطية، قد يقضي إلى صيغٍ أكثر تشدداً وسلفية، كتلك التي تروج لها منظمات من قبيل «رابطة العالم الإسلامي» التي مقرها في المملكة العربية السعودية. غير أنه بالرغم من كل هجمات الإصلاحيين وما يجهز وسماها به الأميريالية الدينية» المنبثقة من مناطق إنتاج النفط، الغنية مالياً إنما المحافظة ثقافياً، فقد أثبتت تقاليد الصوفية المتشعبة بالفيثيات أنها على درجة عالية من الرجوعية والقدرة على التكيف. ففي إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، وفي العديد من مناطق آسيا، ومنها الجمهوريات السوفييتية السابقة، نجد صيغاً من الإسلام طلع بها زعماء كاريزميين ترمسوا في مجالات تهذيب النفس والتحكُّم بالفرائض والأهواء (وهي مجالات تُكسَلُ وإن كانت لا تحلُّ بالضرورة محل الفرائض الدينية المعتادة من صلاة وصيام وزكاة وحج)، لا تني تسجِّل تقدماً وتبني على ماثورات جرى تناسلها زمناً طويلاً إما بالقوات الشفوية أو من خلال العلاقات الشخصية. إن التنوع الشديد الذي يسم المعتقدات والعبادات الإسلامية، كما هي شائعة أو «مجمدة» في النصوص، ما هو إلا وجه من مجسمتها الرمزية الغنية ونخيرتها الوافرة من المعاني. وإن تأخذ الأشكال المتعقبة من السلطة الدينية طريقها إلى الانحلال وينكشف جزءها أكثر فأكثر عن مواجهة تحديات الحداثة، تخرج إلى حيز الوجود أشكال بديلة من السلطة الروحية والقوى الاجتماعية سواء بسواء.

عُمان، وزنجبار، وتاهرت في الداخل الجزائري، أما الشيعة، فيتركزون في إيران، وجنوب العراق، والكويت، والبحرين، بالإضافة إلى أقاليم ليست بالصغيرة منهم في كل من أفغانستان (3,8 ملايين أو 15 بالمئة من السكان)، الهند (30 مليوناً أو 3 بالمئة)، لبنان (1,2 مليوناً أو 34 بالمئة)، باكستان (28 مليوناً أو 20 بالمئة)، سورية (ملويوناً أو 12 بالمئة)، تركيا (3 ملايين أو 20 بالمئة)، الإمارات العربية المتحدة (حوالي نصف مليون أو 16 بالمئة)، واليمن (7 ملايين أو 40 بالمئة). والسواد الأعظم من الشيعة – حوالي 85 بالمئة – ينتمون إلى الشيعة الإمامية أو الاثني عشرية. ومعظم الشيعة الإمامية يتقيدون بواحد أو بأخر من كبار الزعماء الدينيين، أو «آيات الله العظمى»، الذين يُعرفون بهـ«المراجع» (مراجع التقليد أو الاجتهاد)، ويتخذون صفة المفسرين المؤهلين للشرع الإسلامي. والطائفتان الشيعيتان الأخريان هما: الزيدية في اليمن، والإسماعيلية أو الشيعة السبعية ممثلة بمذهبين ما برحا قائمين إلى يومنا هذا ويعود هذان المذهبان في منشئهما إلى الخلافة الفاطمية: المستطية، ويُعرف أتباعها في جنوب آسيا وشرق إفريقيا بهـ«البهرة»، وهم يتبعون الداعي المطلق للإمام/الخطيفة الفاطمي المستعلي بالله (ت 1101)؛ والنزارية، ويتبع أصحابها زعيمهم الروحي: الأغا خان، وهو نبيل من ذرية فارسية تنحدر من محمد بن إسماعيل الذي يُعتبر بمثابة إمامهم الحي. وقد عاش النزاريون ضمن جاليات صغيرة في سورية وإيران وآسيا الداخلية وشمال غربي الهند إلى حين هجرتهم إلى إفريقيا والغرب ابتداءً من القرن التاسع عشر.

إن العديد من المسلمين الملتزمين سواء أكانوا من السُنَّة أم من الشيعة، يتقيدون بأحكام واحد من المذاهب الفقهية أئمة الفكر، لكن الجاصل أنه في العديد من البلدان ذات الأغلبية المسلمة، جرى إدماج عناصر من الشرع الإسلامي، ولا سيما القوانين المتعلقة بالأحوال الشخصية، كالزواج والطلاق والميراث، في صلب النظام القانوني للدولة. ففي معظم البلدان الإسلامية، أُنشئت الدولة الحديثة، بدءاً بالإصلاحات، أو «التنظيمات» العثمانية التي وضعت المؤسسات الإسلامية تحت سيطرة الدولة بالتدريج، على اعتراف

رفع الأذان لدعوة المؤمنين إلى الصلاة: صوتٌ يتردد صدى عبر العالم الإسلامي البالغ التنوع

السينما الإسلامية

العام في حانة لاحتساء البيرة في ميدان غلطة بإسطنبول. وفي إيران، بدأ أوهراس أوغانيان، الإيراني من أصل أرمني، ببثه دور السينما للعموم في عام 1905، وأنشأ أول مدرسة لتعليم السينما في عام 1929، وأنتج أول فيلم روائي إيراني في عام 1930. كانت معظم أنحاء إفريقيا وآسيا عرضة للتصوير السينمائي كجزء من التجربة الاستعمارية التي كانت تعيشها. فكان أن شكّل العالم العربي بدرجة كبيرة ستارة خلفية مثيرة للأفلام الغربية. وهكذا، فتن الجمهور الفرنسي بشمال إفريقيا، واجتذبت فلسطين اهتماماً واسعاً بحكم كونها الأراضي المقدسة، وأسرت مصر فضول الناس لتاريخها الغابر وإذا كانت صناعة السينما الاستعمارية قد أنتجت قرابة 200 فيلم في شمال إفريقيا، فإن ستة منها فقط شارك فيها ممثلون عرب.

وأدى إدخال الصوت باللغات العامية إلى إعطاء إنتاج الأفلام المحلية دفعة قوية، فالسينما المصرية، على سبيل المثال، اجتذبت المستثمرين والمشاهدين المحليين على السواء عندما اشتركت موسيقيين ومغنيين مصريين شعبيين من أمثال المطربة أم كلثوم في أفلامها. هذا ولم تقتصر السينما المصرية بأن صارت قوة موجهة في البلدان العربية الأخرى، بل تركت كذلك بصماتها واضحة على الفن السينمائي في بلدان بعيدة جداً عنها كالأفلام الناطقة بالفارسية في إيران ما قبل الثورة الإسلامية. غير أن صناعة السينما الوطنية لم يتسّن لها أن تحرز تطوراً في معظم البلدان العربية الأخرى بسبب القيود المالية والضغط الاستعماري وأغلب هذه البلدان لم تعرف صناعة السينما إلا بعد نيلها الاستقلال (لبنان وسورية في الأربعينيات من القرن العشرين، وبلدان شمال إفريقيا في الخمسينيات ومطالع الستينيات من القرن نفسه).

إبان الحقبة الاستعمارية، كثيراً ما كانت الأفلام المستوردة إلى الأقطار العربية وسيلة من جملة الوسائل لخدمة أغراض قوى الاستعمار. حتى اليابانيون لجأوا إلى استخدام صناعة السينما الإندونيسية الوليدة لدعم مجهودهم الحربي إبان احتلالهم إندونيسيا في الفترة 1942-1945. وفي الوقت عينه، أسهمت السينما في تقويض اللغة الإندونيسية لتغدو اللغة القومية للبلاد. في العام

دخلت صناعة السينما المجتمعات الإسلامية بعد زمن وجيز من ظهورها في الغرب، وقد عرضت في بادئ الأمر على جمهور منتخب من المشاهدين. فلم تفض بضعة أشهر على الظهور الأول للسينما في أوروبا عام 1896، حتى كانت أفلام الأخوين لومير تعرض على الشاشة في العالم العربي لجمهور من النخبة في غالبية. ففي مصر، على سبيل المثال، كانت العروض السينمائية تقدّم في مبنى بورصة طوسون بالإسكندرية، وفي المغرب داخل القصر الملكي بفاس. أما في تركيا، فالعروض كانت تتم في بلاط السلطان. أي في قصر يلدز بإسطنبول. وفي عام 1900، سافر العامل الإيراني مظفر الدين شاه إلى فرنسا خصيصاً لمشاهدة «السينما-توغرافيا» و«الفانوس السحري»



وفي السنة عينها، صوّر ميرزا إبراهيم خان، مصوّر الملك الخاص، فيلمه «حفل الأنهار» في بلجيكا، مخرجاً بذلك أول فيلم إيراني في تاريخ السينما. أصبحت صناعة السينما المحلية في تلك الأقطار النور بفضل جهود الأجنبي أو أفراد من الأقليات فيها. ونسوق مثالا على ذلك، سيغموند وينبرغ، الروماني من أصل بولندي، الذي شرع يعرض الأفلام على الجمهور

حصل هبوط مفاجيء في عدد الأفلام المنتجة في تركيا، إلا أنه عاد وارتفع مجدداً مع نهاية ذلك العقد. تحرص معظم الدول في المنطقة على إحكام قبضتها على صناعة السينما لما لها، في عرفها، من أهمية فائقة كوسيلة تغيير وأداة احتجاج. ففي تركيا، مثلاً، تعمل مثل هذه الرقابة الصارمة على مستويين: على مستوى السيناريو، وكذلك على مستوى الفيلم المنجز. وثمة عملية مشابهة تحدث في إندونيسيا، حيث تتم الرقابة قبل تصوير المشاهد وأثناء عملية التوليف. وفي السينما الإيرانية، لا تخرج الأفلام بنسختها النهائية إلى شاشات العرض إلا بعد أن تنال ترخيصاً رسمياً من الدولة. وفي حالات قليلة يكون هذا الترخيص مطلوباً حتى في مرحلة كتابة النص. وفي معظم الدول العربية، يتعين على المشاريع السينمائية أن تستحصل مسبقاً على إذن رسمي بالتصوير، وذلك قبل نيل التراخيص الأخرى من وزارة الإعلام أو سواها من السلطات الرقابية بغية ضمان جدارتها التجارية.

وحرى بنا أن نذكر هنا «بوليود»، أي صناعة السينما الهندية التي تتخذ من مومباي (بومباي) قاعدة لها، ليس فقط لأنها كانت موضع تقليد ومحاكاة واسعة في كثير من البلدان الإسلامية، ولا سيما في عقودها الأولى، بل وبالنظر كذلك إلى الوجود المهم للمسلمين فيها ككتبة سيناريو ومتجولين وموسيقيين وممثلين... الخ. وهناك أيضاً صنف من الأفلام السينمائية الهندية يُدعى «شاهنشاه» (ملك الملوك)، وهو يعود زمنياً إلى فيلم «بوكان» (1939) الذي تدور قصته حول الأباطور المغولي جيهانكير. إنه أول «فيلم اجتماعي إسلامي» جذير بالشعر. ولئن استمرت شخصية هذا الأخير بالظهور في أفلام من الإنتاج الحديث، إلا أن الحضور المسلم فيها أخذ يرتدي طابعاً أقل ملوكية، مركزاً في الأكثر على مشاكل الطبقة المتوسطة الإسلامية في شمال الهند... إلى أن اضطلع هذا الصنف السينمائي تدريجاً بعد سبعينيات القرن العشرين.

نشير في الفتا، إلى أنه وبعد غياب ملحوظ عن عالم السينما (أقل من أربعين فيلماً ما بين طويل وقصير)، عادت أفغانستان إلى مسرح السينما العالمية بفيلم: «أسامة» في العام 2003، وهو من إنتاج أفغاني - ياباني - إيرلندي مشترك. ولكنه أول فيلم سينمائي أفغاني ما بعد طالبان. فقد عُرض في مختلف مهرجانات السينما العالمية، بما فيها مهرجان كان ولندن.

العربي، اتخذ الإنتاج السينمائي منحى قومياً واشتراكياً متعانطاً بعد الاستقلال، حيث دأبت كل من سورية والجزائر وتونس تتوسل الفن السينمائي للإعلاء من شأن هويته القومية على النشأة. وفي إيران، دشّن فيلم «البقرة» لداريوش مهرجوي، الفائز بجائزة الجوائز السينمائية، وكذلك فيلم «قيصر» لمسعود كيمي، وكلاهما أنتجا في العام 1969، بداية ما يُعرف بـ«الموجة الجديدة» في السينما الفنية الإيرانية، التي راحت الأفلام الإيرانية بعدها تنال إطراء عالمياً متزايداً. وحوالي الفترة ذاتها، وبالتحديد في عام 1970، شكّل فيلم يلماز غوناي «الأمل»، المأثور هو الآخر على إحدى الجوائز السينمائية، نقطة انعطاف في السينما التركية ودشّن مرحلة «الموجة الجديدة» من الأفلام التركية.

في الفترة 1978-1982، واجه السينمائيون في إيران مستقبلاً غامضاً نتيجة لعدم الاستقرار المالي وقلة اهتمام الحكومة بالسينما خلال المرحلة الانتقالية، ناهيك عن أمور أخرى غرهمها. وفيما عدا بعض الاستثناءات القليلة، لم يُصر إلى إنتاج أية أفلام من النوعية الجيدة في تلك الفترة. قبل الثورة، كان علماء الدين في معظمهم يرفضون السينما أو تجاهلونها. لكن الإسلاميين، بعد الثورة، أدركوا ما لها من قوة مؤثرة وقرروا وضعها تحت إشرافهم وتوجيههم. وهكذا، صار تبثّ السينما عند الفمعي متابعة سلاح أيديولوجي يُحارب به الثقافة المألوفة للغرب والإمبريالية لنظام حكم بهلوي. وفي عام 1989 (عام وفاة الفمعي)، ظهرت أفلام، ومنها فيلماً «باشو» والغريب الصغير، لتكسب السينما الإيرانية من جديد إعجاباً وتقديراً على نطاق العالم. والسينما الإيرانية بإفساحها المجال هكذا أمام خطاب لا يني ينمو ويتطور داخل المجتمع، إنما تكرست أداة خطيرة الشأن في عملية التغيير نفسها.

شهدت الخمسينيات من القرن العشرين بدء انسحاب الدول العربية من مضمار الإنتاج السينمائي. فقد وقعت صناعة السينما الجزائرية في الإفلاس، فوما واجهت تطوراتها المصرية أزمة اقتصادية خاتمة. وجاء التلفزيون وإنتاج شرائط الفيديو بالجملة ليزيد من تدهور صناعة السينما في المنطقة كافة. فكان أن توجهت الأفلام نحو الإنتاج المشترك مع الغرب: وهذه هي الحال في بلدان شمال إفريقيا وسورية، ولاسيما في لبنان. وعند بداية الثمانينيات من القرن الماضي،

الصورة إلى اليمين: المهرجة
السينمائية الإيرانية سميرة
مصلحيات تقف أمام عسكات
المصريين بعد نيلها جائزة عن
فيلمها «الخامسة بعد الظهر»، وذلك
خلال العفل الاختصاصي لمهرجان
«كان» السينمائي السادس
والخمسين في أيار / مايو 2009
هي ابنة المخرج المصوب محسن
مصلحيات. أعربت فيلمها الأول
«النفاحة» (1998) في عمر الخامسة
عشرة كذلك فإن فيلمها «اللوح
الأشود» (2000) عن اللاجئين
الأكراد على الحدود العراقية
الإيرانية قد نال أيضاً جائزة في
مهرجان «كان»

استخدام الإنترنت

الوصول إلى أحكام مراجع التقليد الأحياء، من أمثال آية الله العظمى السيستاني، المرجع الأكبر للشيعة في العراق. فصفحات موقعه على الإنترنت تغطي مسائل وهموماً معاصرة، كبطاقات الانتماء، والتأمين، وحقوق الملكية، وتشريح الجثة، والتبرع بالأعضاء، فضلاً عن طلب المشورة حول الواجبات والفرائض الدينية. وبعض الطرق الصوفية مواقع على الشبكة تحكي بالتفصيل عن خطوط النسب الروحية لمشايخها، ونصوص الأوراد والأذكار المستخدمة في طقوسها. لكن، طالما أن الكثرة الكثيرة من الممارسات

قبل قدوم العصر الرقمي، كانت المسائل الإسلامية المثارة للنقاش أو المطروحة للحل تُعالج في كثير من الأحيان محلياً، من قبل علماء الدين، مفسري العقيدة الدينية المعترف بهم، القاطنين بدور الوكلاء الرئيسيين للسلطات الدينية. وكان لانتشار معرفة القراءة والكتابة والتعليم الثانوي في الشطر السُني من العالم الإسلامي، أثره المجتري لوزن وأهمية هؤلاء العلماء قبل وقت طويل من ظهور شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت). مع ذلك، فالإنترنت تسهم في تسريع وتيرة هذه العملية بتسهيلها أمر اضطلاع الأفراد أنفسهم بالاجتهاد، استناداً إلى مفسرين أساسيين هما: القرآن والحديث. فيما مضى كانت المرجعية المعرفية حكراً على الفقهاء المؤهلين دون غيرهم، لكن جاء هذا التطور المذهل لنسب البساط من تحت أقدام الهرمية التقليدية للمعرفة.

إن المسلمين المبحرين على الشبكة غير مضطرين بعد اليوم إلى استشارة المعاجم المظهورة للقرآن أو مراجع الفقه الرُويّة للوصول إلى اجتهادات أو أحكام، بل حسبهم ببساطة أن ينفذوا إلى مواقع معينة على الشبكة، فيستعرضوا فيها بالمصحح الإلكتروني الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية بمجرد النقر على كلمات مفتاحية بعينها. أو إذا شاؤوا، بإمكانهم إرسال أسئلتهم بالبريد الإلكتروني إلى مئات المواقع على الشبكة التي تقدم الإرشادات الاجتماعية والمسلية والدينية، وفي بعض الحالات، للتوجيهات السياسية أيضاً. والكثير من المواقع ذات التمويل الجيد في المملكة العربية السعودية أو دول الخليج، غالباً ما تكون أجوبتها أمهل إلى المحافظة، وقد لا تكون دائماً حساسة لظروف المسائل الاجتماعية أو الاقتصادية. لتأخذ الأجوبة على أسئلة الشباب اللواتي يحشون في أمريكا الشمالية بصدد ما ينبغي عمله بشأن المعاملة السنية التي يلقينها من أبائهن، مثلاً إنها قد لا تخرج عن تكرار التشديد على وجوب طاعة الآباء وواجبات الأبناء والبنات تجاههم، لا بل وتقدمها حتى على حقوقهم كمواطنين.

بالنسبة للشريحة الاثنى عشرية، وهي التي يقوم رجال الدين فيها وليس التخصص مقام العُبدِ الرئيسي للسلطة الدينية، تؤمن شبكة الإنترنت سهولة



كان يطبقه نظام طالبان البائد في أفغانستان باسم تعاليم الإسلام «الحقة».

رغم الانتشار السريع لخدمات الإنترنت في طول العالم الإسلامي وعرضه، تبقى النتائج البعيدة المدى لهذا الانتشار غامضة نوعاً ما. فمن جهة، ثمة خطاب إسلامي «كوفي» أخذ بالبروز وبما يتجاوز حدود التقاليد والأعراف المحلية، بما فيها تلك السائدة ممثلة بمؤسسات عريقة كالأزهر في القاهرة. ومن جهة أخرى، لا يستطيع الخطاب الأخذ بالبروز هذا أن يتهرب من معالجة موضوع التنوع والمخالفة، طالما أن الأقليات والجماعات المخالفة قادرة على تحدي رأي التيار الرئيسي في تلك الثقافات، حيث تكون التعددية الدينية والسياسية عرضة للكبت في أغلب الحالات.

الصوفية تبقى مغلفة في وجه الدخلاء من غير المنتمين إليها، فإن الطرق الأكثر تقليدية هي من يسهر على إدارة مواقع لها على الشبكة.

كذلك، الإسلام السياسي حاضراً بقضيه وقيضه على الإنترنت، بحيث يمكن للمرء الوصول بسهولة وسرعة إلى معظم الأحزاب السياسية الإسلامية من خلال مواقعها العديدة. كما أن قوى المعارضة موجودة هي الأخرى على الشبكة، وإن كان الوصول إلى مواقع الجماعات المحظورة دونة قيود وتعقيدات في بعض الحالات من جانب أجهزة الرقابة الحكومية. وثمة جماعات للنساء المسلمات تنشط في «الفضاء السيبرنتيكي» ضد الممارسات الأبوية من النوع الذي



جدول زمني بأهم الأحداث الإسلامية

| | | |
|---------|--|---|
| 622-570 | محمد في مكة | «اختفاء» محمد المهدي، الإمام الثاني عشر للشيعية، أو «الإمام المنتظر». |
| 632-622 | محمد في المدينة | «العينة» الصغرى، أو الاحتجاب الذي يمثل خلاله إمام الشيعة الاثني عشرية بأربعة وكلاء |
| 632-634 | خلافة أبي بكر الصديق. انتصار المسلمين في حروب الردة. توحيد الجزيرة العربية. | وفاة أبي يزيد السطامي، أول المتصوفة «السكراني». |
| 634-644 | خلافة عمر بن الخطاب. فتح معظم أراضي الهلال الخصيب. مصر والقسم الأكبر من بلاد فارس. التوسع باتجاه شمال إفريقيا | تأسيس أول دولة فاطمية للإسماعيليين في إفريقيا (تونس الحالية). |
| 644-656 | خلافة عثمان بن عفان. تواصل الفتوحات شمالاً وشرقاً وغرباً. جمع القرآن وتوحيد النص. | إعدام الحلاج بتهمة الزندقة، «الشهيد». ينظر المتصوفة المتأخرين. |
| 656-661 | الفتنة الأولى إبان خلافة علي بن أبي طالب. | الأمير الأموي عبد الرحمن الثالث ينشئ «خلافة أموية في قرطبة بإسبانيا» |
| 660-672 | إغفاق العرب في الاستيلاء على القسطنطينية | بداية «الغيبة» الكبرى، أو الاستتار الذي يفقد خلاله الشيعة الاثنا عشرية الاتصال بإمامهم. |
| 661 | مقتل علي. إقامة الخلافة الأموية على يد معاوية في دمشق. | البوهيميون الشيعة يستولون على بغداد ويعملون الخليفة العباسي رهينة فعلية لديهم. |
| 680 | الفتنة الثانية. ثوريت معاوية الحكم لابنه يزيد يثير تمرد الحسين بن علي. استشهاد الحسين وأتباعه في كربلاء بالعراق. | الخلافة الفاطمية (الإسماعيلية) في مصر. |
| 685-705 | عهد الخليفة عبد الملك بن مروان. باني قبة الصخرة في القدس. | محمود الغزنوي (من غزنة، أفغانستان حالياً) يغزو شمال الهند |
| 687-691 | الخوارج يسيطرون على معظم أرجاء الجزيرة العربية. | الأتراك السلاجقة، المنطلقون من أواسط إيران والزاحفون غرباً، يعمدون العقيدة الشيعية التقليدية إلى قلب العالم الإسلامي. |
| 711 | العرب يتقدمون داخل إسبانيا | المرابطون، الوافدون من إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، يصدون تقدم المسيحيين في إسبانيا. |
| 712-713 | العرب يفتحون بلاد ما وراء النهر (بخارى وسمرقند) | السلاجقة يهزمون الروم (البيزنطيين) في معركة ملاذكرد، فاتحين بذلك بر الأناضول أمام الاستيطان التركي |
| 728 | موت الحسن البصري، المعلم الصوفي الأول | الإسماعيليون الزناريون ينتفضون في وجه الخلفاء الشيعية السلاجقة يتخذون من بغداد عاصمة لهم. |
| 732 | موقعة بواتيه. شارل مارتيل يوقف تقدم العرب داخل فرنسا. | الصليبيون يحتلون أجزاء من سورية وفلسطين. |
| 744-750 | الفتنة الثالثة. السلالة الأموية تسقط على أيدي العباسيين (749) بسبب الضعف الذي نالها من جراء الانشقاقات والمنازعات الداخلية | الصليبيون ينتزعون القدس من المسلمين. |
| 756 | قيام الحكم الأموي في إسبانيا | وفاة الغزالي (م 1058)، المتصوف والمتكلم الشيعي. |
| 765 | وفاة جعفر الصادق. سادس أئمة الشيعة. انقسام الشيعة إلى إسماعيليين، واثنى عشرية، وزيديين. | وفاة ابن تومرت، مؤسس السلالة الموحدية في إسبانيا |
| 767 | وفاة أبي حنيفة (م 699)، مؤسس المذهب الحنفي في الفقه. | صلاح الدين الأيوبي يطرد الصليبيين من القدس. |
| 786-809 | عهد هارون الرشيد، الخليفة العباسي النموذجي لعصر الإسلام الذهبي. | وفاة ابن رشد (م 1126)، الفيلسوف الأندلسي. |
| 795 | وفاة مالك بن أنس (م 713)، مؤسس المذهب المالكي. | قيام سلطنة دلهي في الهند |
| 801 | وفاة رابعة العدوية (البصرية)، المتصوفة والشاعرة | غارات المغول في بلاد ما وراء النهر وشرق إيران تعيث دماراً وخراباً في المدن |
| 813-833 | خلافة العباسيون. صعود المعتزلة (العقلانيين) والندوة الاعنالية في علم العقائد (أو علم الكلام). | الموحدون يتخذون من إسبانيا، واتحساد الوجود الإسلامي هناك ليتقصر على مملكة غرناطة الصغرى (1232-1492) فقط. |
| 820 | وفاة الشافعي (م 767)، مؤسس المذهب الشافعي في الشرع الإسلامي | موت جنكيزخان |
| 847-861 | خلافة المتوكل، الذي انقلب على المعتزلة. | وفاة ابن عربي (م 1165)، شيخ الثيوصوفية الإسلامية. |
| 861-845 | تنكك أوصال الدولة العباسية مع استقلال الولايات تبعاً إلى أن فقدت سلطة الخلافة للسيطرة تماماً على أراضيها | سقوط قلعة الموت، آخر معقل إسماعيلي جنوبي بحر قزوين |
| 870 | وفاة البخاري (م 810)، المحدث (جامع الأحاديث النبوية). | خراب بغداد على أيدي المغول |
| 873 | وفاة شلم، المحدث. | المماليك، خلفاء الأيوبيين في مصر، يهزمون المغول، الذين |

| | | |
|-----------|---|--|
| 1805-1848 | محمد علي يباشر عملية التحديث في مصر. | لم يعرفوا طعم الانكسار حتى الآن، في معركة عين جالوت بغلسطين |
| 1815-1817 | ثورة الصرب على العثمانيين | ن 1300 |
| 1818 | بريطانيا تصبح القوة صاحبة السلطة المطلقة في الهند. | بزوغ السلالة العثمانية (العثمانلي) في بينينيا، على حدود |
| 1820 | محمد علي يشرع في إخضاع السودان. | وينطقة في غرب الأناضول. |
| 1821-1830 | حرب الاستقلال اليونانية. | 1326 |
| 1830 | بدء الاحتلال الفرنسي للجزائر. | العثمانيون يحتلون بورصة، أول عاصمة حقيقية لهم. |
| | إنشاء الخرطوم كموقع بريطاني - مصري متقدم في أهالي النيل. | 1362 |
| | القوى الأوروبية تسارع إلى نبذة الامبراطورية العثمانية في وجه اجتياح محمد علي لأراضيها | العثمانيون يحتلون أدرياتويل (أدرنة حالياً) في البلقان. |
| 1832-1848 | فشل «التمرد» الهندي يؤدي إلى إلغاء «شركة الهند الشرقية»، ويُسَّد السبيل لدمج الهند في صلب الامبراطورية البريطانية. | ن 1378 |
| 1839 | الروس يهزمون الإمام شامل في القوقاز، ويتبعون ذلك بضم الشيشان وداغستان إلى ممتلكاتهم. | صعود نجم تيمورلنك، التركي العامل في خدمة المغول في بلاد ما وراء النهر، ليقزو القسم الأكبر من آسيا الوسطى والغربية |
| 1848-1861 | تأسس أكاديمية ديوباند في شمال الهند من المصلحين الذين يُحاذرون الاتصال بالبريطانيين | 1389 |
| 1859 | اكتمال الضم الروسي لكازاخستان. | العثمانيون يهزمون الصرب في كوسوفو بأواسط صربيا، بدعم من الألبان والبلغار واليشناق والمجرين |
| 1867 | إمارة بخاري تصبح محمية روسية. | 1405 |
| 1869 | افتتاح قناة السويس. | موت تيمورلنك |
| 1875 | انهار خزانة الدولة المصرية. السويس تُباع للبريطانيين. | 1453 |
| 1876 | إعلان أول دستور عثماني بعد وقوع ثورة في القصر. | محمد الفاتح (ح 1451-1481) يستولي على القسطنطينية ويُخضع الامبراطورية البيزنطية. |
| 1876-1909 | السلطان عبد الحميد يُطلق الدستور، ويجري إصلاحات في مجالات التعليم والنقل والاتصالات من خلال الحكم الاستبدادي | 1498 |
| 1881 | إعلان تونس محمية فرنسية. | فاسكو داغاما يدور حول رأس الرجاء الصالح، منُهباً بذلك احتكار المسلمين للتجارة في المحيط الهندي |
| 1882 | احتلال بريطانيا لمصر | 1501 |
| 1885 | مقتل الجزائر غوردون (الملقب بـ«الصيني») في الخرطوم أثناء الثورة المهدية ضد الحكم المصري المدعوم من بريطانيا | صعود الدولة الصفوية في إيران. للشعبة الاثنا عشرية تصبح العقيدة الرسمية للدولة. |
| 1889 | محمد عبده، تلميذ الأفغاني ومريد، يعود إلى مصر ويقتر التعاون مع البريطانيين. | 1517 |
| | طلاب الأكاديمية العسكرية في استنبول، يشكلون أول تنظيمهم قومي لتدريكتها الفتاة باسم «جمعية الاتحاد والترقي». | 1526 |
| 1897 | وفاة السيد جمال الدين الأفغاني (م 1838)، المصلح والداعية للوحدة الإسلامية الجامعة | معركة بانيهوت (الهند) تتوج للأمر التجموعي، بابر، أن يؤسس الامبراطورية المغولية (المغلية) في الهند. |
| 1898 | الحركة المهدية في السودان تمنى بالهزيمة على يد قوة إنجليزية - مصرية مشتركة بقيادة الجنرال كيتشنر في موقعة أم درمان. | ومعركة موهاكس تجعل من الكاثوليك المجرين تابعين لامبراطورية العثمانية. |
| | وفاة السيد السيد أحمد خان (م 1817)، الشخصية الإصلاحية والتجديدية، ومؤسس جامعة عليكرة في الهند (1875) | 1529 |
| 1905 | وفاة محمد عبده (م 1849)، مؤسس الحركة الإصلاحية السلفية الحديثة | العثمانيون يُحاصرون ميبيا |
| 1906 | تأسيس «رابطة الإسلامية» في الهند | 1552 |
| 1906-1908 | وقوع ثورة دستورية في إيران. | موسكو تصم خانات قازان |
| | | 1556-1605 |
| | | عهد الأمراء المغولي الثالث، أكبر، الذي رعى التقارب الثقافي والديني بين الهندوس والمسلمين. |
| | | 1682-1689 |
| | | العثمانيون يخسرون المعر ويغفاد في الحرب مع النمسا وبولندا |
| | | 1718 |
| | | المصلح في باسروفيتز يُكرس ما فقدته العثمانيون من مناطق لصالح آل هابسبورغ. |
| | | 1739 |
| | | الفاعل الإيراني نادر شاه، يستنبح دلهي ويضع نهاية لسلطة المغول في الهند. |
| | | 1757 |
| | | الهاويون ينتزعون الإصاء في شرق الجزيرة العربية انتصار بريطانيا في معركة بلاسي يفتح الهند أمام التوسع البريطاني. |
| | | 1762 |
| | | وفاة شاه وليّ الله، المصلح الصوفي الهندي من الطريقة السيرمدية |
| | | 1774 |
| | | معاهدة كوتشوك كينارجي. العثمانيون يفقدون شبه جزيرة القرم عقب هزيمتهم أمام روسيا. الاعتراف بالقياصرة الروس حماة للمسيحيين الأرثوذكس في البلاد العثمانية |
| | | 1779 |
| | | قيام السلالة القاجارية في إيران. |
| | | 1789-1807 |
| | | الإصلاحات العثمانية الأولى على النهج الغربي في عهد السلطان سليم الثالث |
| | | 1798 |
| | | نابليون بونابرت ينزل في بر مصر ويهزم المماليك في معركة الأهرامات. غزوه تولد اهتماماً بالثقافة الأوروبية. |

| | |
|-----------|---|
| 1908 | ثورة «تركيا الفتاة».. تجر السلطان العثماني على إعادة العمل بالدستور والتنازل البرلمان مجدداً. |
| 1909 | اعتماد جمهوريتين منفصلتين للناخبين، أحدهما مسلم والآخر هندوسي، في الهند. |
| 1911-1913 | إيطاليا تنتزع طرابلس الغرب من العثمانيين. |
| 1912 | إعلان المغرب محمية فرنسية. |
| 1914-1918 | هزيمة الأمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى. |
| 1918-1916 | إعلان مصر رسمياً محمية بريطانية. |
| 1918-1916 | اندلاع الثورة العربية المدعومة من بريطانيا ضد الحكم التركي بقيادة حسين، شريف مكة، وابنه الأمير فيصل، والكونويل الإنجليزي ت. إ. لورانس. |
| 1917 | وعد بلفور يفتح الباب أمام الاستيطان المتزايد لليهود أوروبا في فلسطين. |
| 1917-1920 | الثورة الروسية والحرب الأهلية في روسيا تفضيان إلى وقوع نزاعات سوفييتية - إسلامية في آسيا الوسطى. |
| | المسلمون في كازاخستان وأذربيجان والقوقاز يناضلون في سبيل الاستقلال الوطني. |
| | القوات الروسية تطيح بجمهورية تركستان المستقلة (1918) |
| | وتتسبب باندلاع الثورة السماشية |
| | إدراج بخاري وبخويز ضمن الجمهوريات السوفييتية. |
| | انتخاب بعض «التجديديين» المسلمين البارزين إلى عضوية الحزب الشيوعي. |
| 1918 | مؤتمر سان ريمو.. غلبة الأمم تكلف دولاً بالانتداب على الولايات التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية، فتنتدب بريطانيا على فلسطين وشرقي الأردن والعراق، وفرنسا على سورية ولبنان. |
| | الفرنسيون يطردون الأمير فيصل بن الحسين من دمشق، والإنجليز ينصبونه ملكاً على العراق. وأخوه الأصغر، عبدالله بن الحسين، ينصب ملكاً على شرقي الأردن. الزعيم المصري سعد زغلول يترأس الوفد المطالب باستقلال مصر. |
| | إبعاده عن البلاد يُشعل فتيل «ثورة» وطنية |
| | إنهاء السيادة العثمانية على مصر، فيما تحتفظ بريطانيا بحق الإشراف على شؤون الدفاع والسياسة الخارجية والسودان وقناة السويس. |
| 1919-1922 | حرب الاستقلال التركية. مصطفى كمال (أتاتورك) يجمع شمل القوى الوطنية التركية لإنزال الهزيمة بالغزاة اليونانيين، وصد عمليات الإنزال الأوروبية على بر الأناضول. |
| 1923 | معاهدة لوزان تضمن وحدة وسلامة الأراضي التركية |
| 1924 | آسيا الوسطى السوفييتية يُعاد ترتيبها تحت أسماء جمهوريات أوزبكستان، وتركمانستان، وكازاخستان، وقيرغيزيا الاشتراكية. |
| | إنهاء الخلافة العثمانية. المحاكم الشرعية التركية تستبدل بمحاكم مدنية. |
| | حركة «خلافت» الهندية تنحو باللاملة على البريطانيين لإلغاء الخلافة. |
| 1926 | أمن سعود يحتاج الحجاز، فيطرد الشريف حسين من الجزيرة العربية ويضع حجر الأساس لمملكة ومأبئة محدثة. |
| 1926 | تكمير الكيان اللبناني وفصله عن سورية تحت رعاية فرنسا وحمايتها. |
| 1928 | حسن البنا، المدرس المصري، يؤسس تنظيم «الإخوان المسلمين». |
| 1932 | العراق ينال استقلاله ويقبل في عضوية عصبة الأمم. |
| 1936 | الفلسطينيون يطردون على الحكم البريطاني في فلسطين، وضد ازدياد الهجرة اليهودية من جراء وصول النازيين إلى السلطة في ألمانيا. |
| | محمد علي جناح يتولى قيادة «الرابطة الإسلامية»، منوهاً بذلك دعم المسلمين لحزب المؤتمر. |
| | دستور سوفيتي جديد ينظم آسيا الوسطى في ست جمهوريات اشتراكية سوفييتية (أوزبكستان، أذربيجان، كازاخستان، تركمانستان، طاجيكستان، قيرغيزيا)، وثمان جمهوريات اشتراكية سوفييتية ذات حكم ذاتي (تاتارستان، باشكوريا، داغستان... وغيرها من أقاليم القوقاز الواقعة تحت السيطرة الشيوعية). |
| 1938 | وفاة محمد إقبال، الشاعر/الفيلسوف، والأب الفعلي لدولة باكستان. |
| 1940-1947 | الرابطة الإسلامية تنتهي فكرة قيام دولة إسلامية منفصلة للمسلمين الهنود. |
| 1941 | البريطانيون يخدمون ترمداً موالياً للمحور قام به ضباط من الجيش العراقي. |
| 1942 | البريطانيون يجبرون الملك فاروق على استبدال رئيس وزرائه الموالي للمحور بأحمر أسهل انقياداً لهم وأكثر تعاطفاً مع قضية الطغام. |
| 1943 | بدء حملة الإرهاب الصهيوني ضد البريطانيين في فلسطين. |
| 1945 | تأسيس جامعة الدول العربية |
| 1946 | الاعتراف باستقلال كل من شرقي الأردن، ولبنان، وسورية. أعمال شغب واسعة النطاق تندلع بين الهندوس والمسلمين في الهند |
| 1947 | استقلال الهند. تكوين دولة باكستان من المناطق ذات الأغلبية المسلمة فيما دعا كشمير. |
| 1948 | انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين. هزيمة نكراء تحمل بالجيش العربي إثر الإعلان عن قيام دولة إسرائيل. نزوح الفلسطينيين عن ديارهم يخلق مشكلة لاجئين خطيرة. |
| | الأمير عبد الله، عامل شرقي الأردن، يضم القدس الشرقية (بما فيها البلدة القديمة) والضفة الغربية إلى دولته. |
| | رئيس الوزراء المصري، محمود النقراشي، يتعرض للاغتيال. |
| 1949 | اغتيال حسن البنا على أيدي عملاء أجهزة الأمن رداً على مقتل النقراشي |
| 1952 | الإطاحة بالملكية في مصر بانقلاب قادة ضباط قوميين عرب يتزعمهم جمال عبد الناصر وحظون بدعم حركة الإخوان المسلمين. |

| | |
|-----------|---|
| 1956 | عبد الناصر يؤم قنّاة السويس؛ خطوة استدعت تدخلًا عسكرياً من إنجلترا وفرنسا، في تواطؤ سري مع إسرائيل. |
| 1958 | قلب النظام الملكي الموالي لبريطانيا في العراق. بانقلاب دؤي قاده الزعيم عبد الكريم قاسم. |
| 1963 | الإطاحة بعبد الكريم قاسم في انقلاب عسكري قام به الضباط البعثيون بقيادة عبد السلام عارف. |
| 1965 | تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية. |
| 1966 | إعدام سيد قطب، الكاتب والأيدولوجي ذي النزعة الكفاحية الجامعة في تنظيم الإخوان المسلمين بمصر. مصرع الرئيس العراقي عبد السلام عارف في حادث طائرة. |
| 1967 | حرب الأيام الستة (في حزيران/يونيو) تنتهي بسيطرة إسرائيل عسكرياً على شبه جزيرة سيناء بأكملها، والضفة الغربية بما فيها البلدة القديمة من مدينة القدس، ومرفعات الجولان السورية. |
| 1968 | ياسر عرفات (أبو عمار)، قائد منظمة فتح، أكبر المنظمات القذاتية الفلسطينية، يُنتخب رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية. |
| 1968 | سقوط الرئيس العراقي عبد الرحمن عارف (شقيق عبد السلام عارف وخلفه في الحكم) على يد الفريق أحمد حسن البكر. لكن السلطة الحقيقية في قبضة صدام حسين للكرتي. |
| 1969 | الإطاحة بالنظام الملكي للأسرة السنوسية الموالية لبريطانيا في ليبيا، وذلك بانقلاب عسكري على الخط الناصري، بقيادة العقيد معمر القذافي، البالغ من العمر 27 سنة. |
| 1970 | تأسيس منظمة المؤتمر الإسلامي لتعزيز التضامن الإسلامي وتشجيع التعاون السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي بين البلدان الإسلامية. |
| 1970 | حافظ الأسد، قائد سلاح الجو السوري، ينتزع مقاليد السلطة في سوريا على رأس حزب البعث. |
| 1972 | حرب أهلية في الأردن بين الجيش الأردني والقذاتيين الفلسطينيين (ومن هنا منظمة «أيلول الأسود»). |
| 1973 | أنور السادات يتبأ رئاسة الجمهورية في مصر عقب وفاة جمال عبد الناصر. |
| 1972 | بنغلادش، باكستان الشرقية سابقاً، تفوز باستقلالها بمعاونة الجيش الهندي. |
| 1973 | حرب أكتوبر/تشرين الأول (حرب رمضان/حرب يوم كيبور). مصر تقم رأس جسر على الضفة الشرقية لقناة السويس، في أول نجاح كبير تحزه الجيوش العربية ضد إسرائيل. |
| 1975 | منظمة البلدان المصدرة للبترول (أوبك) التي تنزعها إيران والمملكة العربية السعودية، تفرض زيادة قدرها أربعة أضعاف على أسعار النفط الخام، مما خلق لديها فائضاً هائلاً من «البترول دولار» للاستثمار في تصنيع اقتصاداتها ولإسنادة الحركات الإسلامية في العالم، وأدى كذلك إلى حدوث ركود اقتصادي عالمي. |
| 1979 | اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية، لأسباب تعود جزئياً إلى |
| 1977 | وجود اللاجئين الفلسطينيين المقاتلين والعمليات الانتفاخية الإسرائيلية ضدهم. |
| 1977 | بدء التفاوض بين مصر وإسرائيل. |
| 1979 | ضياء الحق، القائد العسكري الباكستاني، يقبض السلطة ويفرض الأحكام العرفية. إعدام الرئيس السابق ذو الفقار علي بوتو، وضياء الحق يشرع بتنفيذ برنامجه الخاص بأسلمة البلاد. |
| 1979-1978 | وفاة علي شريعتي (م 1933)، المفكر والفيلسوف الإسلامي، في مدينة ساوثمبتون ببريطانيا. |
| 1979 | استعمال الاضطرابات في إيران ضد ديكتاتورية الشاه محمد رضا بهلوي. |
| 1979 | آية الله الخميني يهود من منفاه في أوروبا ليقيم الجمهورية الإسلامية في إيران. أخذ 52 بدمواسياً أميركياً رهائن واحتجاجهم لمدة 444 يوماً. اتفاقية كامب ديفيد للسلام بين مصر وإسرائيل تدشّن العملية السلمية بين العرب والإسرائيليين. |
| 1979 | وفاة أبو الأعلى المودودي (م 1909)، المفكر والمنظر الهندي - الباكستاني، ومؤسس «جماعتي الإسلامي» (الجماعة الإسلامية). |
| 1980 | الرئيس الباكستاني، ضياء الحق، يشرع بتطبيق «الحدود» أي العقوبات المنصوص عليها في القرآن لصنوف معينة من السرقة والزنا وشرب الخمر. |
| 1980-1988 | الغزو السوفييتي لأفغانستان، دعماً للنظام الشيوعي المعلن، والتدريب والتسليح الغربي للمجاهدين يخلق كادراً جيد الإعداد من المناضلين الإسلاميين. |
| 1981 | الحرب الإيرانية - العراقية، الناجمة عن الاستفزازات العراقية لإيران، تتحول إلى أطول نزاع دولي مستمر في القرن العشرين، مؤلفة ما لا يقل عن نصف مليون ضحية على الجانب الإيراني فقط، فضلاً عن خراب اقتصادي هائل، متطرفون إسلاميون يقتالون الرئيس المصري أنور السادات. |
| 1982 | إسرائيل توجّاه لبنان وتطرد منظمة التحرير الفلسطينية إلى تونس. |
| 1987 | بداية الانتفاضة الفلسطينية. الجماهير الغفيرة تنفض ضد الاحتلال الإسرائيلي؛ والأطفال، رُماة الحجارة، يشكلون رأس الحربة في تلك الانتفاضة. |
| 1988 | الشيخ أحمد ياسين، رئيس المركز الإسلامي في غزة وعضو تنظيم الإخوان المسلمين الفلسطينيين، يؤسس «حركة المقاومة الإسلامية» (حماس). |
| 1988 | آية الله الخميني، المرشد الديني لإيران، «يتجرع السم» ويقتل بوقوف إطلاق النار مع العراق. مقتل الرئيس الباكستاني ضياء الحق في حادث طائرة مريب. |
| 1989 | صدر «الآيات الشيطانية» للكاتب البريطاني المسلم سلمان رشدي. |
| 1989 | محمد محمود طه، زعيم الإخوان الجمهوريين والمُصلح ذو المول الصوفية، يُعدم شنقاً بتهمة «الرذيلة» في السودان. |
| 1989 | الخميني يُصدر فتوى: ضد سلمان رشدي، مما يحول دون |

- 1998 حدث انفجار بين إيران والغرب برغم وجود برغماتيين في الحكومة الإيرانية
وفاة الشمسي (في حزيران/يونيو)، لمخلفه في منصب المرشد الديني الأعلى آية الله علي خامنئي
في الجزائر، فوز الجبهة الإسلامية للإنقاذ بـ 55 بالمئة من أصوات المقيدين في الانتخابات البلدية
1999 الزعيم العراقي صدام حسين يجاتح الكويت
1991 عملية «عاصفة الصحراء» بقيادة الولايات المتحدة وبمساعدة عسكرية من بريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، والمملكة العربية السعودية، مصر، وسورية، وباكستان، تنجح في طرد القوات العراقية من الكويت
انتفاضة شعبية في مدينتي الخفج وكربلاء العراقيتين تقع بوحشة
تفكك أوصال لاتحاد السوفييتي، بعد فشل الانقلاب العسكري على غورباتشوف، يؤدي إلى استقلال جمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية إما تحت حكم أفراد من الشريحة الطفيلية المتنفذة السوفييتية السابقة التنافس بين القيادة الشيوعية السابقة والمعارضة الإسلامية في طاجيكستان
2000 تنمض عن حرب أهلية مبررة ومكلفة.
في الجزائر، الجبهة الإسلامية للإنقاذ تفوز بـ 49 بالمئة من أصوات الناخبين في الجولة الأولى من الانتخابات العامة الجيش يتدخل للحؤول دون فوز الجبهة في الجولة الثانية، ما أثار حرباً أهلية دامت ثمان سنوات يقال إنها كوّنت البلاد مئة ألف قتيل على أقل تقدير.
1992 مستبدون إسلاميون يطلقون النار على الكاتب والمفكر الإنساني المصري البارز، فرج فودة، ويروونه قتيلاً في القاهرة
إقامة منطقتين يحظر فيهما الطيران في شمال العراق وجنوبه لمنع هجمات القوات العراقية على السكان الأكراد والشيعية، القوقاز التي فرضتها الأمم المتحدة على العراق تنسب بمصاعب جمّة للفئات الهشة من المواطنين وفي طليعهم الأطفال.
1994 اغتيال الشبّ حُسن، مطرب «الراي» الشعبي الجزائري في فرنسا. والظاهر جعوط، الروائي والناشر الحائز على عدة جوائز أدبية، يردى قتيلاً خارج منزله في مدينة الجزائر.
1995 مقتل أكثر من سبعة آلاف مسلم ومسلمة في مذبحة سريريتشا بالبوستة والهرسك، بعدما أحفقت قوات الأمم المتحدة في حماية الجيب المسلم من هجمات صرب البوسنة.
1996 حركة طالبان، المعولة على طلاب المدارس الدينية في أرياف أفغانستان، تتقوى على كابل. برنامجها لوضع حد للتعف، تنعكس سلباً على وضع النساء والأقليات في البلاد
1997 مقتل أكثر من 80 سائحاً أوروبياً بالقرب من مدينة الأقصر في مصر على أيدي متطرفين إسلاميين.
محمد حاتمى، وزير الثقافة السابق، يُنتخب رئيساً للجمهورية في إيران
- مقاتلو طالبان يُجهزون على ما يتراوح بين ألفين وخمسة آلاف فرد من طائفة الهزارة الشيعية بعد استيلائهم على مزار الشريف.
«القاعدة» تُهاجم سفارات للولايات المتحدة في شرق إفريقيا
عبد العزيز بوتفليقة، وزير الخارجية الجزائري الأسبق، يُنتخب رئيساً للجمهورية بناءً على برنامج للمصالحة الوطنية
مظاهرات مؤيدة للديمقراطية في إيران تقمعها الشرطة بإيعاز من القوى المحافظة
حملة من القصف الجوي شتتها حلف شمالي الأطلسي تُجبر الصرب على التخلي عن كوسوفو وتضع حداً للتطهير العرقي بحق المسلمين الألبان.
روسياً تقصف الشيشان تحت ذريعة محاربة «الإرهاب الإسلامي»
(حزيران/يونيو) الروس يحتلون غورني، عاصمة الشيشان
في باكستان، الجنرال برويز مشرف يطعم بحكومة نواز شريف المُنتقبة ديمقراطياً
(أيلول/سبتمبر) خاطفو طائرات انتحاريين مرتبطون بـ«القاعدة»، بهاجمون مركز التجارة العالمي في نيويورك ووزارة الدفاع (البيتاغون) في واشنطن، فيزهقون أرواح ثلاثة آلاف شخص تقريباً.
الولايات المتحدة تقصف أفغانستان وتزيل نظام طالبان من السلطة
(تشرين الأول/أكتوبر) مجموعة إرهابية مرتبطة بـ«القاعدة» تقتل أكثر من 200 شخص، معظمهم من الأسترياليين، في تفجير ملام ليلية في بالي بأندونيسيا
(آذار/مارس) الولايات المتحدة وبريطانيا تُهاجمان العراق من غير موافقة الأمم المتحدة، متذرعتين بأن صدام حسين يخفي أسلحة دمار شامل. ولم يُعثر على أي أثر لتلك الأسلحة
إرهابيون إسلاميون مرتبطون بـ«القاعدة»، يُقدمون على قتل مدنيين أبرياء في الدار البيضاء، والرياض، واستنبول، ومدن أخرى.
(كانون الأول/ديسمبر) القوض على صدام حسين بالقرب من مسقط رأسه: تكريت.
هزيمة الإصلاحيين في الانتخابات البرلمانية الإيرانية بعدما رفض «مجمع تشخيص مصلحة النظام»، الذي يُسيطر عليه رجال الدين، طلبات ترشيح العديد من أنصار التيار الإصلاحي.

ماليز روثقن: من الكتّات البارزين عن الإسلام
والعالم الإسلامي. من مؤلفاته: «الأصولية: البحث
عن معنى» (2004): «الإسلام: مدخل وجيز جداً»
(1999): «غضب الرب: الهجوم الإسلامي على
أميركا» (2002): «مسألة شيطانية: سلمان رشدي
وغضبة الإسلام» (1990): «الإسلام في العالم»
(1984 ، 2000). كتب عدة سيناريوهات لهيئة
الإذاعة البريطانية، وحاضر في الدراسات
الإسلامية والتاريخ الثقافي والأديان المقارنة في
جامعات بريطانية وأميركية، وهو اليوم كاتب
متفرغ يقسم وقته ما بين لندن والنورماندي.

البروفسور عظيم نانجي: مدير معهد الدراسات
الإسماعيلية في لندن. عمل سابقاً أستاذاً ورئيس
دائرة الأديان بجامعة فلوريدا، وشغل مناصب عدة
في مختلف الجامعات الأميركية والكندية. من بين
الكتب المنشورة له: «تمثيل الدراسات الإسلامية في
خرائط» (1997)، و«الروزنامة الإسلامية» (1996).

إشادات بكتب ماليز روثقن:

الإسلام: مدخل وجيز جداً

الغارديان

«ممتاز»

غضب الرب

«عمل يتسم بعمق الرؤية والاطلاع على خفايا
الأمور»

كولن ثوبرون

«ممتاز... روثقن مراقب رائق ولماح»

وليم دالريمبل

الإسلام في العالم

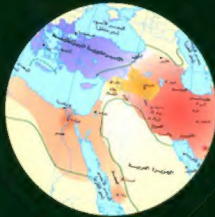
«استبصار غير عادي، وفكر يحفز على الاستزادة
من معرفة الإسلام»

جون ل. اسهورتو

من غزوات النبي محمد ﷺ إلى معارك المجاهدين نظرة بانورامية على 1500 سنة من تاريخ دين وشعبه

يجمع هذا الأطلس التاريخي الجديد، الصادر في أوله تماماً، ما بين الرواية السردية لتاريخ الإسلام ومسار تطوره والعرض الشيق والجذاب للخرائط ورسوم بيانية غنية بالمعلومات والمعطيات إنه يقدم لنا لوحة أسرة لواحد من أعظم أديان العالم - دين تعتنقه خمس البشرية - في وقت لم يسبق قط أن بلغ الاهتمام بالإسلام هذه الدرجة من الشدة وجب الاستطلاع أحد الأطلس كاتبان يعدان من السراج الفقات حول الإسلام، وقد جاء تصنيفه على نحو يجعل منه مدخلاً وسرجاً للقارئ العام وللطالب على حد سواء.

- يعطي الأطلس الفترة الزمنية الممتدة من أواخر العصر القديم ما قبل الإسلام إلى يومنا الحاضر.
- يشتمل على نغطة مستقلة لكل منطقة على حدة الشرق الأوسط، وأفريقيا، وآسيا الوسطى، والهند، وجنوب شرقي آسيا، وأوروبا، وأميركا الشمالية.
- يضم الأطلس حوالي 100 خريطة ملونة تبين لنا الطبيعة المتحوّلة للحدود والتركّزات السكانية وطرق التجارة الرئيسية، وتتابع صعود وسقوط السلالات الإسلامية الحاكمة والمذاهب الدينية، كما تستجلي كيفية تروّع الثروات المعدنية والموارد المائية، والأنماط الزراعية، والمواقع الأثرية، والعديد من العناوين الأخرى.
- يحتوي على عدد كبير من الصور الفوتوغرافية والرسوم البيانية الملونة والعادية.



Bibliotheca Alexandrina



0430936

ISBN 9953-37-377-9



9 789953 373775